التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية

(بالموصل)

تأليف

علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري
(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)

تحقيق

عبد القادر أحمد طليمات

ماجستير في التاريخ

كلية الآداب - جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر

دار الكتب الحديثة بالقاهرة

ومكتبة المثنى ببغداد

مقدمة

كتاب « التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية » أحد كتب ابن الأثير التاريخية الهامة ، خصه بأخبار دولة إسلامية حاكمة ظهرت فى النصف الغربى من دولة الخلافة العباسية ، أسسها عماد الدين زنكى ابن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب بمدينة الموصل سنة ٥٢١ ، ه (١١٢٧ م) وشملت فى عهد ابنه نور الدين محمود ، الموصل ، والجزيرة ، والشام ، ومصر ، واليمن .

وقد اخترت تحقيق مخطوط الكتاب ودراسته ، ودراسة مؤلفه موضوعا لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى من جامعة عين شمس . تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة .

وقد نوقشت الرسالة فى اليوم العاشر من شهر يوليو عام ١٩٦٢ ، بمدرج المغفور له محمد شفيق غربال بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

وكانت لجنة المناقشة مكونة من : الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، رئيساً .

وعضوية :

الأستاذ الدكتور أحمد فكرى ، أستاذ الآثار الإسلامية ، ورئيس قسم التاريخ بجامعة الاسكندرية .

والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ التاريخ الإسلامى ، ورئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة (سابقاً) .

وقد أجازت اللجنة ، الرسالة بتقدير « جيد جداً » .

وقد حملت النسخة التى قدمت للمناقشة عنوان : « تاريخ الدولة الأتابكية — ملوك الموصل » وهو العنوان الذى اختارته له المكتبة الأهلية بباريس — والمخطوط لا يحمل عنواناً — والمسجل بها تحت رقم : ٨١٨ من المجموعة العربية . غير انى رأيت أنه من الأوفق ، أن يحمل الكتاب العنوان الذى ذكره المؤلف فى كتابه الآخر « الكامل فى للتاريخ » ، وهو العنوان الذى يحمله الكتاب الذى بين يدى القارىء الآن .

وإنى إذ أحمد الله جل شأنه ، لما وفقنى إليه من النجح فيما قمت به من عمل ، أتقـدم بخالص الشكر إلى أستاذى الكبير ، الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، لتفضله بالموافقة على الإشراف على الرسالة ، ولما قدمه إلىّ من توجيهات وتصويبات أثناء اشتغالى فى تحضيرها .

كذلك أشكر السيد الدكتور عز الدين إسماعيل. مدرس النقد الأدبى بكلية الآداب بجامعة عين شمس لتفضله بمراجعة الشعر الوارد بالمخطوط ، وضبط أوزانه ، وتقويم أخطائه .

والله الموفق إلى سواء السبيل ؟

مصر الجديدة : شهر شعبان ١٣٨٢
شهر يناير ١٩٦٣

عبد القادر أحمد طليمات

المؤلف

ابن الأثـــير الجزرى

(٥٥٥ — ٦٣٠ هـ/١١٦٠ — ١٢٣٢ م)

اسمه ولقبه : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى ، المعروف بابن الأثير الجزرى ، الملقب عز الدين .

مولده : ولد ابن الأثير بجزيرة ابن عمر ، من أعمال الموصل ، فى اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٥(١) ، ثم انتقل والده به وبأخويه إلى الموصل فى سنة ٥٧٩(٢) ، حيث أقاموا بها إقامة دائمة .

أسرته : وكان والد ابن الأثير موظفا عند ملوك الموصل منذ حكم عماد الدين زنكى ، وقد أخبرنا بهذا ، ابن الأثير وحده فى ثنايا كتابه « الباهر » ، أما غيره من المؤرخين وأصحاب التراجم . فلم يهتموا بالترجمة له ، كذلك لم يتعرضوا له بالذكر حين ترجموا المؤلف وأخويه .

وأول خبر ذكره ابن الأثير عن والده ، هو ما أورده فى ترجمته لعماد الدين زنكى فى « الباهر » حيث يذكر أن والده سار إلى قلعة جعبر فى سنة ٥٤١ ، حينما كان يحاصرها عماد الدين ، ونزل عند الوزير جمال الدين — وزير عماد الدين — الذى كان يرافقه فى الحصار ، ولما علم عماد الدين بوصوله ، أرسل إليه أحد غلمانه يسأله عن أخبار حصار قلعة « فنك » — وكان عسكر عماد الدين يحاصرها فى نفس الوقت الذى كان عماد الدين يحاصر بنفسه قلعة جعبر — فأخبر الوالد ، الغلام بما يطمئن عماد الدين(٣). ولم يذكر ابن الأثير شيئاً عن وظيفة والده فى الدولة فى تلك السنة ، غير أننا نرجح أنه كان عامل الوزير على جزيرة ابن عمر ، ويؤيد هذا الترجيح ، ما ذكره ابن الأثير فى الخبر الخاص بالملك سليمان

---

(١) ابن خلكان (ج/١ ص/٤٣٨) .

(٢) اعتمدنا فى تحديد هذا التاريخ لانتقال ابن الأثير إلى الموصل مع والده وأخويه على ما ذكره اليونينى فى ذيل مرآة الزمان (ج/ ١ /ص / ٦٤) ، عن ضياء الدين — أخى ابن الأثير — بأنه ولد بجزيرة ابن عمر « وانتقل إلى الموصل مع والده فى رجب سنة تسع وسبعين وخمسمائة » والمؤرخون يجمعون على أن والد ابن الأثير ، انتقل بأبنائه جميعا إلى الموصل ، دون تحديد السنة ، وأقاموا بها .

(٣) أنظر ما يلى ، ص/ ٧٨ ، (من النص) .

شاه السلجوقى سنة ٥٥٥ ، ذلك أن قطب الدين مودودا صاحب الموصل ، كان قد قبض على الملك سليمان شاه وحبسه بالموصل ، فلما توفى السلطان مسعود بن محمد السلجوقى فى سنة ٥٥٥ ، أرسل أمراء همذان إلى قطب الدين ، يطلبون منه إرسال سليمان شاه إليهم لكى يولوه سلطاناً عليهم خلفاً للسلطان مسعود ، فاتفق قطب الدين مع سليمان شاه ، على أن يكون سليمان شاه سلطاناً وقطب الدين أتابكا له وجمال الدين وزيراً للسلطان ، ثم عزم جمال الدين على أن يجعل والد ابن الأثير نائباً عنه بالعراق الذى يتبع سلطة سليمان شاه ، ولكن المشروع كله فشل لأسباب ذكرها ابن الأثير فى الخبر(١) .

كذلك يذكر ابن الأثير خبراً آخر عن والده ، ويذكر فيه صراحة أنه كان يعمل فى خدمة جمال الدين وزير الموصل وأنه كان نائبا عنه ، والخبر لا يحدد هذه النيابة . وإن كنا نرجح أنه كان نائبا عنه فى جزيرة ابن عمر(٢) .

ثم يحدد الخبر الذى يذكره ابن الأثير عن والده فى سنة ٥٦٥ ، فى ترجمته لقطب الدين مودود صاحب الموصل ، أن والده كان يتولى رياسة ديوان جزيرة ابن عمر وخزانتها(٣) . ثم لا يذكر ابن الأثير أكثر من هذا عن والده كموظف .

وكانت أسرة ابن الأثير على جانب من الثراء ، حيث يذكر المؤرخ أن أسرته كانت تملك عدة بساتين بقرية العقيمة من أعمال جزيرة ابن عمر(٤) ، كذلك كانت تملك قرية بأسفل الموصل يقال لها « قصر حرب » ويقول ابن الأثير ، إنه جمع أكثر مادة كتابه « الكامل فى التاريخ » فى دار لهم بهذه القرية(٥) .

كذلك كان والد ابن الأثير يشتغل بالتجارة إلى جانب وظيفته ، حيث يذكر المؤرخ خبر استيلاء الصليبيين — فى سنة ٥٦٧ — على مراكب للمسلمين قادمة من مصر إلى الشام ، وكان لوالده فيها تجارة(٦) . ويذكر أيضاً فى أخبار سنة ٥٨٨ ، أن الفرنج استولوا على قافلة برية للمسلمين بنواحى الخليل . وكان لابن الأثير — أو لوالده — تجارة فى هذه القافلة فنهبت(٧) .

ولم يترجم ابن الأثير لوالده بعد وفاته ، لا فى « الكامل » ولا فى « الباهر » ، كذلك لم يترجم له أحد من المؤرخين أو أصحاب التراجم . ولذلك فنحن نجهل تاريخ وفاته ، غير أن ابن الأثير ، ذكر خبراً فى « الباهر » يبين منه أنه كان موجوداً فى سنة ٥٨٧ فى الموصل ؛ وخلاصة الخبر أن عز الدين مسعودا ، صاحب الموصل ، حاصر جزيرة ابن عمر فى هذه السنة ، وخرج معه مجد الدين أبو السعادات — أخو المؤرخ — فلما عاد عز الدين إلى الموصل ، أمر عسكره ألا يدخلوا المدينة ، وأن يعسكروا خارجها

---

(١) أنظر ما يلى ، ص / ١٤٧ ، (من النص) .
(٢) أنظر ما يلى ، ص / ١١٨ ، (من النص) .
(٣) أنظر ما يلى ، ص / ١٤٧ (من النص) .
(٤) أنظر ما يلى ، ص / ١٤٧ (من النص) .
(٥) الكامل ، ج / ٥ / ص / ٢٠ .
(٦) أنظر ما يلى ، ص / ١٥٥ (من النص) .
(٧) الكامل ، ج / ٩ / ٢٢٠ .

فنصب مجد الدين خيمته مع الجند ولم يدخل الموصل ، ولكن عز الدين صرح له بدخولها ، وقال له : إن والدك أثير الدين له مدة مارآك ، ولا شك أنه اشتاقك(١) .

وكان عز الدين المؤرخ ، أوسط أخويه مجد الدين وضياءالدين سنا ، فقد ولد مجد الدين أبو السعادات المبارك سنة ٥٤٤ ، وولد عز الدين سنة ٥٥٥ ، وأما ضياء الدين نصر الله ، فإنه ولد سنة ٥٥٨ . وكان أول المتوفين من الإخوة ، مجد الدين حيث توفى سنة ٦٠٦ ، ثم تلاه عز الدين المؤرخ فتوفى سنة ٦٣٠ ، أما ضياء الدين فإنه توفى سنة ٦٣٧ .(٢)

وقد اتجه كل من الإخوة الثلاثة إتجاها خاصا فى حياتهم العلمية . فقد اختار مجد الدين العلوم الدينية ، واختار ضياء الدين الأدب ، أما عز الدين فقد اختار التاريخ ، فاشتهر كل منهم فى ميدانه ، فقد نال مجد الدين شهرته فى مؤلفاته فى الحديث والتفسير والكتابة والرسائل ، واشتهر ضياء الدين بمؤلفاته الأدبية وفى مقدمتها «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» . أما عز الدين فإنه اشتهر بمؤلفاته التاريخية ، وفى مقدمتها كتابه «الكامل فى التاريخ»

وقد خدم كل من مجد الدين وضياء الدين الزنكيين وكبار موظفيهم . فقدكان مجدالدين كاتب الإنشاء لمجاهد الدين قايماز وزير عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم تولى ديوان رسائل عز الدين مسعود نفسه ، ثم ديوان ابنه نور الدين أرسلان شاه من بعده . ثم عرض له مرض منعه من الكتابة ، فأقام فى داره يغشاه الأكابر والعلماء ، وأنشأ رباطا بقرية «قصر حرب» ، ووقف أملاكه عليه وعلى داره التى يسكنها بالموصل . وقد ألف كتبه كلها أثناء مرضه(٣) .

أما ضياء الدين ، فإنه وزر للملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبى صاحب دمشق ، فأساء السيرة حتى أثار عليه الناس فهموا بقتله . ولما خرجت دمشق من يد الأفضل ، التحق مجد الدين بخدمة الظاهر غازى صاحب حلب ، ولكن لم يطل مقامه عنده وخرج مغاضبا له وسار إلى الموصل ، ولكن لم تطب له الإقامة بها ، فرحل منها إلى إربل فلم يستقم حاله بها أيضا ، فرحل عنها إلى سنجار ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الموصل واستقر بها ، فالتحق بخدمة ملكها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بوظيفة كاتب الإنشاء ، وذلك سنة ٦١٨ . ولما مات ناصر الدين محمود كتب لبدر الدين لؤلؤ بعد أن آلت إليه الموصل . وفى سنة ٦٣٧ سيره بدر الدين رسولا إلى خليفة بغداد فمات بها(٤) .

أما عز الدين المؤرخ فالراجح أنه لم يدخل فى خدمة ملوك الموصل ، حيث أنه لم يذكر هو نفسه ، ولم يذكر من ترجم له أنه شغل وظيفة ما . إلا أن ابن خلكان يذكر فى ترجمته له ، أنه سفر لبعض ملوك الموصل من الزنكيين إلى بغداد ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك(٥) . أما ابن كثير ، فإنه يذكر فى ترجمته لابن

---

(١) أنظر مايلى ، ص/ ١٨٦ (من النص) . (٢) شذرات الذهب ، ج/٥/ص/٢٢ / ١٣٧ / ١٨٧ .
(٣) ابن خلكان ، ج/١/ص/٥٥٧ وما بعدها . (٤) ابن خلكان ، ج/ ٢ / ص ٢٠٨ .
(٥) ابن خلكان ، ج/ ١ / ٤٣٨ .

الأثير ، أنه وزر لبعض ملوك الموصل ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك أيضا(١) . ولا شك أن هذا وهم من ابن كثير .

حياته : ولد ابن الأثير – كما ذكرنا من قبل – فى جزيرة ابن عمر فى اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٥ ، ثم انتقل إلى الموصل مع والده وأخويه فى سنة ٥٧٩ ، أى وهو ابن أربع وعشرين سنة . ومعنى هذا ، أنه نشأ وربى وتلقى دروسه الأولى فى جزيرة ابن عمر . والواقع أنه ليس لدينا معلومات عن طفولة ابن الأثير وصباه ومراحل تعليمه فى صغره . فقد ضن ابن الأثير بالترجمة لنفسه، كذلك ضن من ترجم له بتفاصيل نشأته ، وإن كان من المفروض أن والده اهتم بتعليمه وتعليم أخويه إهتماماً كبيراً ، ظهر أثره فى نبوغ الإخوة الثلاث كل فى ميدانه .

تعليمه : ومن الطبيعى أن يكون ابن الأثير قد حفظ القرآن فى صغره ، وتعلم مبادىء القرآءة والكتابة فى أحد المكاتب حسب عادة أهل عصره . ولما شب عن الطوق ، انتقل إلى مرحلة الدراسة العميقة . فجلس إلى الشيوخ يتلقى عليهم العلم ، فدرس الحساب ، واللغة . والفقه ، والحديث . ولعله درس غير ذلك من العلوم ، كالأصول ، والفرائض ، والمنطق ، والهيئة ، والنجوم ، والقراءات ، فإن من شيوخه من كان يتقن أكثر من علم .

شيوخه : وقد ترجم ابن الأثير لبعض شيوخه فى كتابه « الكامل فى التاريخ » ، وممن ترجم لهم : شيخه عبد الله بن سويدة ، المتوفى سنة ٥٨٤ ، فقال عنه : « فى هذه السنة توفى شيخنا أبو محمد عبد الله ابن عبد الله بن سويدة التكريتى ، كان عالماً بالحديث ، وله تصانيف حسنة(٢) »

وشيخه ابن أفضل الزمان ، المتوفى سنة ٥٨٥ : « وفيها – فى صفر – توفى شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان ، المعروف بابن أفضل الزمان ، بمكة . وكان رحمه الله عالما متبحرا فى علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه ، الأصولين ، والحساب ، والفرائض ، والنجوم ، والهيئة ، والمنطق ، وغير ذلك . وختم أعماله بالزهد ولبس الخشن ، وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاوراً فتوفى بها . وكان من أحسن الناس صحبة وخلقا(٣) » .

وشيخه ابن رواحه ، وقد قتل سنة ٥٨٥ فى وقعة عكا، فقد حضرها مع صلاح الدين الأيوبى، فلما انهزم قلب جيش صلاح الدين من الصليبيين ، وصل الصليبيون إلى التل الذى عليه خيمة صلاح الدين ، فقتلوا من مروا به ، ونهبوا ، وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة ، منهم ، شيخنا جمال الدين أبو على بن

---

(١) ابن كثير ، ج / ١٣ / ص / ١٣٩ . (٢) الكامل ، ج / ٩ / ص / ١٩٨ .

(٣) الكامل ، ج / ص / ٢٠٥ .

رواحة الحموى ، وهو من أهل العلم ، وله شعر حسن ، وما ورث الشهادة من بعيد ، فإن جده عبد الله ابن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله الروم يوم مؤتة(١) » .

وشيخه ابن صدقة ، المتوفى سنة ٥٩٣ ، « وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن على الفراتى الضرير ، الفقيه الشافعى . كان إماما فى الفقه ، مدرساً صالحا ، كثير الصلاح . سمعت عليه كثيراً ، لم أر مثله ، رحمه الله تعالى . ولقد شاهدت منه عجبا يدل على دينه وإرادته بعمله وجه الله تعالى . وذلك أنى كنت أسمع عليه ببغداد سنن أبى عبد الرحمن النسائى — وهو كتاب كبير — والوقت ضيق ، لأنى كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله ، فبينما نحن نسمع عليه مع أخى الأكبر مجد الدين أبى السعادات ، إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد ، وقال له : قد برز الأمر لتحضر ، الأمر كذا ، فقال : أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت ، والذى يراد منى لا يفوت . فقال : أنا لا أحسن أذكر هذا فى مقابل أمر الخليفة . فقال : لا عليك ، قل ، قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع . فسألناه ليمشى معه ، فلم يفعل ذلك وقال : إقرءوا ، فقرأنا . فلما كان الغد ، حضر غلام لنا وذكر أن أمير الحاج الموصلى قد رحل ، فعظم الأمر علينا . فقال [الشيخ] : ولم يعظم عليكم العود إلى أهلكم وبلدكم ؟ فقلنا : لأجل فراغ هذا الكتاب . فقال : إذا رحلتم أستعير دابة وأركبها ، فأسير معكم وأنتم تقرءون ، فإذا فرغتم عدت . فمضى الغلام ليتزود ونحن نقرأ ، فعاد وذكر أن الحجاج لم يرحلوا ، ففرغنا من الكتاب . فانظر إلى هذا الدين المتين ، يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ، ويريد [أن] يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا(٢) » .

وشيخه ابن كليب الحرانى ، ، المتوفى سنة ٥٩٦ : « وفى هذه السنة — فى ربيع الأول — توفى شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحرانى ، المقيم ببغداد . وله ست وتسعون سنة وشهران . وكان عالى الإسناد فى الحديث . وكان ثقة صحيح السماع(٣) » .

وشيخه ابن شبة النحوى ، المتوفى سنة ٦٠٣ : « وفيها - فى شوال - مات شيخنا أبو الحرم مكى ابن ريان بن شبة النحوى المقرى بالموصل . وكان عارفا بالنحو واللغة والقراءات ، لم يكن فى زمانه مثله ، وكان ضريرا . وكان يعرف سوى هذه العلوم ، من : الفقه ، والحساب وغير ذلك معرفة حسنة . وكان من خيار عباد الله وصالحيهم . كثير التواضع ؛ لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الصبح(٤) »

وشيخه ابن طبرزد ، المتوفى سنة ٦٠٧ : « وفيها توفى شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادى ، وكان عالى الإسناد () » .

وشيخه الخطيب الطوسى ، المتوفى سنة ٦٢٢ ، فى الوباء الذى انتشر فى الموصل فى هذه السنة ومات

---

(١) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٢٠٣ .
(٢) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٢٣٩ .
(٣) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٢٤١ .
(٤) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٢٩٠ .
(٥) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٣٠٥ .

منه كثيرون ، « فممن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسى ، خطيب الموصل . وكان من صالحى المسلمين ، وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور(١) » .

وشيخه ابن العديم ، المتوفى سنة ٦٢٨ : « وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبى ، الشيخ الصالح . وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمهم . فلو قال قائل ، إنه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا ، فرضى الله عنـــه وأرضاه ، فإنه من جملة شيوخنا . سمعنا عليه الحديث ، وانتفعنا برؤيته وكلامه(٢) » .

وكان ابن الأثير ينتهز فرصة سفره إلى العراق والشام ، فيجتمع بشيوخها ويسمع منهم الحديث . فقد سمع ببغداد من عبد المؤمن بن كايب ، وعبد الوهاب بن سكينة مسند العراق . وسمع بدمشق من القاسم بن صصرى مسند الشام وزين الأمناء بن عساكر .

وكان ابن الأثير محل تقدير وثناء من عرفه من معاصريه ومن جاء بعده واستفاد من مؤلفاته . فمن معاصريه ابن خلكان وسبط ابن الجوزى . أما ابن خلكان ، فقد كان على اتصال وثيق به ، وسبب ذلك أن والده — والد ابن خلكان — كان صديقا لابن الأثير ، لذلك كان ابن الأثير يكرم ابن خلكان ويقربه إليه . يقول ابن خلكان عن ابن الأثير ، إنه « كان إماما فى حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة . وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم » . ويقول أيضاً : « وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها » . ويذكر أنه اجتمع بابن الأثير فى حلب سنة ٦٢٦ ، وقد كان ابن الأثير ضيفا على الطواشى شهاب الدين طغريل الخادم أتابك الملك العزيز بن الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان طغريل كثير الإقبال على ابن الأثير حسن الاعتقاد فيه ، مكرما له . يقول ابن خلكان ، إنه لما اجتمع بابن الأثير عند طغريل وجده « رجلا مكملا فى الفضائل وكرم الأخلاق ، وكثرة التواضع ، فلازمت التردد إليه ، وكان بينه وبين الوالد — رحمه الله تعالى — مؤانسة أكيدة فكان بسببها يبالغ فى الرعاية والإكرام(٣) » .

وأما شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى ، فإنه لم يترجم له بالرغم من أنه نقل عنه فى كتابه « مرآة الزمان » غير أنه كان يقدره ويلقبه بالأستاذ ، فهو حين ينقل عنه خبر وفاة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، يقول : « وذكر الأستاذ الجزرى فى تاريخه(٤) » .

ويصفه ابن كثير بأنه « الإمام العلامة » ، ويقول ، إنه أقام بالموصل فى آخر عمره ، « موقرا معظما إلى أن مات(٥) » .

ويقول عنه الذهبى ، « كان صدراً معظما كثير الفضائل(٦) » .

---

(١) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٣٦٤ .

(٢) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٣٨٧ .

(٣) ابن خلكان ، ج / ٢ / ص / ٤٣٨ .

(٤) مرآة الزمان ، ج / ٨ س / ٣٢٠ .

(٥) ابن كثير ، ج / ١٣ / ص / ١٣٩ .

(٦) شذرات الذهب ، ج/٥/ص/١٢٧ ، عن «العبر» للذهبى .

ويقول عنه ابن العماد الحنبلي : « كان إماماً ، نسابة ، مؤرخا ، إخباريا ، أديبا ، نبيلا ، محتشماً(١) ».

وفاته :

وقد توفى ابن الأثير فى شهر شعبان من سنة ٦٣٠ ، وهو المشهور(٢) . غير أن بعض المؤرخين يشذ عن ذلك ، مثل : السبكى ، فيذكر أنه توفى فى شهر رمضان من السنة(٣) . وأبو شامة يذكر أنه توفى فى شعبان سنة ٦٣١(٤) .

مؤلفاته :

سبق أن ذكرنا أن ابن الأثير اتجه الوجهة التاريخية فى حياته العلمية . وترجع السبب فى هذا إلى ما كان يسمعه من أبيه فى شبابه من أخبار الزنكيين ، حيث يذكر فى مقدمة كتابه « التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية » ، أن والده كان يحدثه عن أخبار الموصل وملوكها من بنى زنكى ، وما نلاحظه من كثرة النقل عن والده فى هذا الكتاب ، ولا شك أن القصص التاريخى قد استهواه ، فأكب على قراءة كتب التاريخ ، حتى إذا بلغ المرحلة التى يجب عليه فيها أن يحدد اتجاهه العلمى ، اختار التخصص فى علم التاريخ والتأليف فيه ، يدلنا على هذا ، مؤلفاته التى تركها فى المكتبة الاسلامية ، فبالرغم من أنه بلغ درجة الإمامة فى حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، كما يقول ابن خلكان(٥) ، فإنه لم يعن بالتأليف فى علم الحديث ، أو فى غيره من العلوم التى درسها ، بينما مؤلفاته المعروفة لدينا كلها فى التاريخ .

يقول فى مقدمة كتابه « الكامل فى التاريخ » : « أما بعد . فإنى لم أزل محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثراً للاطلاع على الجلى من حوادثها وخافيها ، مائلا إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة فى مطاويها . . . » . فابن الأثير يصرح بحبه للتاريخ ، وميله إلى المعرفة ، وهذا ما حداه إلى الاتجاه الوجهة التاريخية .

ترك ابن الأثير فى المكتبة التاريخية الاسلامية أربع كتب ، هى :

١ — اللباب فى تهذيب الأنساب .

٢ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة .

٣ — الكامل فى التاريخ .

٤ — التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) .

ومن أسماء هذه الكتب ، نرى أن ابن الأثير قد اهتم بالتاريخ بفروعه المختلفة ، اهتم بالتاريخ العام

---

(١) شذرات الذهب ، ج / ٥ / ص / ١٣٧ .

(٢) ويحدد ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب ، ج/٥/ص/١٣٧ ، أنه توفى فى الخامس والعشرين من الشهر .

(٣) طبقات الشافعية ، ج / ٥ / ص / ١٢٧ .

(٤) الذيل على الروضتين ، ص / ١٦٢ .

(٥) ابن خلكان ج/١/ص/٤٣٨ .

الممثل فى « الكامل فى التاريخ » ، وبالتراجم الممثل فى « أسد الغابة » ، وبالأنساب الممثل فى « اللباب » . كذلك اهتم بالتاريخ الخاص ، فأرخ لإحدى الأسر الحاكمة فى الاسلام ، وهى أسرة بنى زنكى فى كتاب « التاريخ الباهر » ، فجمع بذلك علم التاريخ كله ، فأحسن فيه وأجاد ، وحاز ثقة من جاء بعده من المؤرخين القدامى ، ومن المهتمين بالدرسات التاريخية الإسلامية من المحدثين .

ولابن الأثير كتاب آخر لا يمت إلى التاريخ بصلة ، عنوانه « تحفة العجائب وطرفة الغرائب »(١) وأحسب أن ابن الأثير أراد أن يرفه عن نفسه بتأليفه هذا الكتاب ، فجمع فيه ما استرعى انتباهه من قراءاته المختلفة . يقول فى مقدمة الكتاب إنه ذكر فيه « ما أظهرته الحكمة الإلهية ، وما أبدعته القدرة الربانية من عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات ، وطرزتها من ملح الأجناد (الأخبار ؟) ونوادر الأشعار » .

اللباب فى تهذيب الأنساب :

كتاب « الأنساب » الذى هذبه ابن الأثير ، هو لأبى سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى المروزى ، من رجال القرن السادس ، فقد توفى سنة ٥١٠ . فقام ابن الأثير على تهذيبه واختصاره ، وقد ذكر سبب إقدامه على هذا العمل فى مقدمة الكتاب ، فقال بعد أن مدح الكتاب وأشاد بالسمعانى وعمله ، أن السمعانى « قد أطال واستقصى حتى خرج عن حد الأنساب وصار بالتواريخ أشبه ، ومع ذلك ففيه أوهام » فشرع هو فى « اختصار الكتاب والتنبيه على ما فيه من غلط وسهو » . ثم ذكر مجهوده وعمله فى التهذيب بالتفصيل .

أسد الغابة فى معرفة الصحابة :

وهذا الكتاب ، كما يدل عليه عنوانه ، تراجم للصحابة والصحابيات الذين صحبوا النبى فى حياته . وقد ذكر فى مقدمة الكتاب سبب تأليفه ، فقال : إنه لم يعجبه من ترجم للصحابة غير أبى عبد الله ابن منده الأصفهانى ، وأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى ، والامام أبى عمر بن عبد البر القرطبى ، غير أن كلا منهم سلك طريقا يختلف عن الآخر ، وذكر بعضهم أسماء لم يذكرها صاحبه ، فرأى أن يجمع بين هذه الكتب وأن يضيف إليها ما شذ من كتاب أبى على الغسانى ، الذى استدرك فيه على كتاب ابن عبد البر . ثم ذكر طريقته فى الجمع واستدراكاته فى مقدمة طويلة .

الكامل فى التاريخ :

عن طريق هذا الكتاب نال ابن الأثير شهرته كمؤرخ من مؤرخى القرن السادس باعتبار مولده

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم : ٤٩٩ جغرافيا .

وباعتبار مدة نصف القرن الذى عاشه فيه ، ومن رجال القرن السابع باعتبار وفاته وباعتبار مدة ثلث القرن الذى عاشه فيه . والواقع أن ابن الأثير قد أحسن فى تأليف هذا الكتاب ، فقد جمع فيه أخبار العالم الإسلامى شرقه وغربه ومابينهما ، وهذا ما لم يسبقه إليه أحد .

يقول ابن الأثير فى مقدمة كتابه ، إن من أسباب تأليفه الكتاب ، أنه وجد من سبقه من المؤرخين ، أن « الشرقى منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب ، والغربى قد أهمل أحوال الشرق ، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة ، مع ما فيها من الإخلال والإملال . فلما رأيت الأمر كذلك ، شرعت فى تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، ليكون تذكرة لى أراجعه خوف النسيان ، وآتى فيه بالحوادث والكائنات ، من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضا إلى وقتنا هذا » أى حتى سنة ٦٢٨ .

التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية :

وهذا الكتاب الذى أعددناه للنشر ، ألفه ابن الأثير عن دولة أقامتها أسرة من الأسرات الحاكمة فى الإسلام ، هى أسرة عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب ، والتى يطلق عليها ابن الأثير ، « الدولة الأتابكية » ، نسبة إلى لقب « أتابك »(١) الذى أطلق على عماد الدين — مؤسس الدولة — بعد أن ولى إمرة الموصل سنة ٥٢١ .

قدم ابن الأثير كتابه بمقدمة أظهر فيها علاقة أسرته الوثيقة بملوك الموصل ، ولخص فيها جهادهم للصليبيين ، ثم ذكر سبب تأليفه الكتاب .

ثم بدأ بسرد أخبار الدولة فبدأ بقسيم الدولة آقسنقر — والد عماد الدين زنكى — فذكر صلته بالسلطان السلجوقى ملكشاه ، وولايته على حلب من قِبله ، واشتراكه فى مشاكل الأسرة السلجوقية بسبب التنافس على السلطنة بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ . ثم ذكر مقتل قسيم الدولة سنة ٤٨٧ ، فى حرب منافسة بينه وبين تاج الدولة تتش السلجوقى صاحب دمشق . وختم ابن الأثير أخبار قسيم الدولة بترجمة له ، أظهر فيها حسن سياسته فى حلب وعدالة حكمه .

ثم تناول أخبار عماد الدين زنكى — الابن الوحيد لقسيم الدولة — منذ مقتل والده حتى وفاته سنة ٥٤١ ، فذكر رعاية أصحاب أبيه له ونشأته تحت رعايتهم ، فقد كان عماد الدين فى نحو العاشرة من عمره حين توفى أبوه . ثم استقلاله بنفسه لما أن اشتد ساعده ، والتحاقه بخدمة أمراء الموصل ، واشتراكه معهم فى حروبهم المحلية وحروبهم ضد الصليبيين ، ثم انتقاله إلى خدمة السلطان محمود السلجوقى ، وولايته شحنكية واسط والبصرة وبغداد ، ثم بعد ذلك ولايته على الموصل سنة ٥٢١ . وهنا يأخذ ابن الأثير فى تفصيل الخطوات التى اتبعها عماد الدين لتكوين دولة تحمل اسمه ، تضم بعض

---

(١) أنظر معنى لقب « أتابك » فيما يلى من النص ، ص / ١٨ / حاشية / ٨ .

إمارات الجزيرة والشام . كذلك ذكر الأخبار التى تشير إلى الصعوبات التى اعترضت طريقه أثناء تكوين دولته ، والتى تتمثل فى الخليفة العباسى ، والسلطان السلجوقى ، وأمراء الجزيرة والشام المسلمين ، ثم الصليبيين . وقد أفاض ابن الأثير فى سرد حروب عماد الدين ضد الصليبيين وجهوده فى استرداد كثير من البلاد التى استولوا عليها ، سواء فى الجزيرة أو فى الشام .

ثم تناول ابن الأثير انقسام الدولة بعد وفاة عماد الدين سنة ٥٤١ ، بين ولديه سيف الدين غازى الذى ملك الموصل والجزيرة ، ونور الدين محمود الذى استقل بحلب وتوابعها بالشام .

دون ابن الأثير أخبار سيف الدين غازى بن عماد الدين ، وكان عهد سيف الدين قصيرا (٥٤١ — ٥٤٤) ، ومن أبرز أعماله ، أنه منع خلافا خطيرا كاد أن يقع بينه وبين أخيه نور الدين . ثم إنه حافظ على أملاك الدولة بالجزيرة من الطامعين بها من أمرائها ، ثم كان له الأثر الكبير فى منع سقوط دمشق فى يد امبراطور الروم الذى حاصرها مع الصليبيين سنة ٥٤٣ .

ثم سرد ابن الأثير أخبار قطب الدين مودود ، الذى خلف أخاه سيف الدين على الموصل (٥٤٤ — ٥٦٥) . فذكر الخلاف الذى حدث بينه وبين أخيه نور الدين بسبب مدينة سنجار والذى انتهى بالصلح بينهما . ثم ذكر مشروع سلطنة سليمان شاه السلجوقى على همذان ، وتعيين قطب الدين أتابكا له ومدبرا لشئون سلطنته وفشل هذا المشروع . كذلك سرد خبر النزاع على ملك الموصل بين ولدى قطب الدين أثناء مرضه ، وأثر نفوذ رجال الدولة فى هذا النزاع ، الذى انتهى بملك ابنه سيف الدين غازى (الثانى) سنة ٥٦٥ .

كذلك تناول ابن الأثير أخبار نور الدين محمود (٥٤١— ٥٦٩) . فذكر استيلاءه على حلب بعد وفاة أبيه ، وجهاده للصليبيين . واسترداده بعض البلاد الإسلاميه منهم . كذلك ذكر استيلاءه على دمشق سنة ٥٤٩ ، ومصر سنة ٥٦٤ ، والموصل سنة ٥٦٦ . كذلك تحدث عن الخلاف الذى نشب بين نور الدين وصلاح الدين بعد أن حل صلاح الدين محل عمه أسد الدين شيركوه فى مصر ، لاختلاف وجهات النظر بينهما فى حرب الصليبيين .

ثم ذكر ابن الأثير أزمة الاستخلاف التى حدثت فى البيت الزنكى بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ . بسبب صغر سن الصالح إسماعيل ، الابن الوحيد لنور الدين ، والتى آلت الدولة بسببها إلى صلاح الدين الأيوبى . ماعدا الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر .

وفى الفترة ما بين سنتى ٥٦٩ و ٦٠٧ ، أرخ ابن الأثير لملوك الموصل تأريخا مختصراً ، ذكر فيه أخبار سيف الدين غازى (الثانى) بن قطب الدين مودود الذى استمر حكمه حتى سنه ٥٧٦ ؛ وأخبار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود الذى خلف أخاه سيف الدين ، وقد ظل يحكم الموصل حتى وفاته سنة ٥٨٩ وكذلك أخبار نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود ، ودام حكمه إلى سنة ٦٠٧

فدون أخباراً قليلة عن علاقتهم بصلاح الدين وخلفائه ؛ وكانت علاقة تتأرجح بين الخصومة والود . ثم ذكر ملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧ .

وختم ابن الأثير أخبار كل ملك من ملوك الأسرة الزنكية بترجمة له ، فصل فيها أخلاقه ومآثره ، وما أفادته الموصل فى عهده .

كذلك ترجم ابن الأثير لبعض كبار رجال الدولة من الوزراء والقواد ؛ وأبرز فى هذه التراجم ، أثر بعضهم فى نشأة الدولة وارتقائها ، وأثر بعضهم الآخر فى إضعافها .

ملاحظات على « الباهر » :

وهناك بعض ملاحظات على ابن الأثير فى كتابه « الباهر » .

فقد ترجم لبعض الشخصيات التى لاتمس موضوع الكتاب إلا مسا خفيفا ، مثل ترجمته للطغرائى ، ونظام الملك ، وسليمان بن قتلمش ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

ولم يدون ابن الأثير أخبار الصراع بين الزنكيين — خلفاء نور الدين — وبين صلاح الدين وخلفائه ، وسبب ذلك أن أخبار هذا الصراع ، تظهر ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه ، وهزائمهم فى حروبهم معهم ، كذلك تثبت أخبار الصراع ، خضوع الزنكيين لصلاح الدين وخلفائه خضوعا تاما ، فتجنب ابن الأثير إثبات هذه الأخبار التى تجرح أصحابها ، لئلا يخدش كبرياء الملك القاهر الذى ألف له الكتاب ، واكتفى بإحالة القارىء إلى كتابه الكبير « الكامل فى التاريخ » ويسميه فى « الباهر » « المستقصى فى التاريخ » .

كذلك خرج فى بعض الحوادث على مبدأ الحيدة الذى اتبعه فى كتابه الآخر ، ففى « الكامل » فسر هذه الحوادث من واقعها وعلى وجهها الصحيح ، بينما فسرها فى « الباهر » تفسيراً مخالفا ، إرضاء للملك القاهر . مثال ذلك ، الخبر الذى ذكره فى « الباهر » عن قصد دبيس بن صدقة بغداد سنة ٥١٦ ، وخبر حصار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود — جد الملك القاهر — جزيرة ابن عمر . وخبر حصار الملك العادل الأيوبى مدينة سنجار سنة ٦٠٦ .

وضغط ابن الأثير بعض الأخبار فى « الباهر » ضغطا كبيرا ، فجاءت قليلة التفاصيل ، وإن كان قد حرص على إحالة القارىء إلى كتابه « الكامل » للإستزادة من تفاصيل الخبر .

والملاحظة الأخيرة ، وجود اختلافات فى تواريخ بعض الحوادث والأخبار بين « الباهر » و « الكامل » ، أشرنا إليها فى حواشى المخطوط .

مميزات كتاب « الباهر » :

وابن الأثير ، وإن كان ذكر أخبار الزنكيين ورجال دولتهم فى كتابه الكبير « الكامل » . إلا أنه فى كتابه « الباهر » قد أمدنا بمعلومات قيمة لم يذكرها فى « الكامل » ، فهو قد أعطانا معلومات عن مصير عماد الدين بعد مقتل والده وتنقله فى خدمة أمراء الموصل واشتراكه معهم فى حروبهم منذ صغره ، ومن ذلك عرفنا سر نجاحه الحربى والمدنى . كذلك أمدنا بمعلومات عن كيفية نجاحه فى تكوين دولته وسياسته الحازمة فى حكمه .

كذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن حياة نور الدين الخاصة والعامة لم يذكرها فى « الكامل » ، بحيث أصبحت شخصية نور الدين واضحة المعالم للباحث والدارس .

وقد تخللت تراجم الزنكيين وكبار رجال دولتهم معلومات ، لم ترد فى « الكامل » ، عن النظم الزنكية وعن جهودهم فى تحسين أحوال الموصل الداخلية ، فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

كذلك أبدع ابن الأثير فى وصفه المعارك التى دارت بين الصليبيين وبين كل من عماد الدين ونور الدين وإبراز الجهود الضخمة التى كان يبذلها كل من الزنكيين والصليبيين من ناحية الاستعداد للعمليات الحربية ، واستماتة كل من الفريقين فى القتال . والكتاب بعد ذلك ، يعد مكملا لما ينقص من أخبار الزنكيين فى كتاب « الكامل فى التاريخ » .

أسلوب ابن الأثير فى « الباهر » :

كتب ابن الأثير كتابه « الكامل » بأسلوب المؤرخ الذى تهمه المادة التاريخية أكثر مما تهمه البلاغة والأساليب البيانية ، فهو فى « الكامل » يسرد حقائق بعبارات موجزة ؛ بينما جمع فى « الباهر » بين المؤرخ والأديب فاستعمل السجع بتوسع كبير . وذلك لكى يتيسر له الوصف المؤثر فى المناسبات الخطيرة ، مثل وصفه المعارك التى دارت بين الصليبيين وبين عماد الدين ونور الدين ، وغير ذلك من المناسبات ، فنجد مثلا أنه افتتح كتابه بمقدمة مسجوعة ، وختمه أيضاً بخاتمة مسجوعة .

ويستشهد ابن الأثير بالشعر فى كثير من المناسبات وللإشادة بالزنكيين ، بعضه لشعراء معاصرين الزنكيين مثل : محمد بن نصر بن صغير بن عبد الله القيسرانى ، وسعد بن محمد المعروف بالحيص بيص ، وأحمد بن منير الطرابلسى . وبعضه لشعراء غير معاصرين كأبى تمام ، كذلك استشهد بأبيات من الشعر لم نستطع الاهتداء إلى أصحابها .

كذلك يضرب ابن الأثير الأمثال فى بعض المناسبات ، وذلك عند سخريته بالصليبيين وهزائمهم من المسلمين . ففى سنة ٥٦٥ حاصر الصليبيون دمياط للاستيلاء على مصر ؛ ولكنهم هزموا هزيمة منكرة ، ورجعوا إلى بلادهم ، فيسخر منهم ابن الأثير ، فيقول : « وهذا موضع المثل ، ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين » . وفى سنة ٥٦٧ ، استولى الصليبيون على مركبين تجاريين للمسلمين برغم

الهدنة التى بينهم وبين نور الدين ، فطلب نور الدين منهم ردهما ، فأبوا ، فأغار نور الدين على حصن عرقة — وهو لهم — وخربه ، واستولى منهم على « صافيتا » و « العريمة » ، عندئذ أعادوا المركبين وطلبوا من نور الدين تجديد الهدنة ، فقال ابن الأثير ساخرا بهم : « فكانوا فى ذلك كما يقال : اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم . وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتى هى أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها » .

مصادره :

ذكر ابن الأثير فى مقدمة الكتاب ، أنه اعتمد فى مادته على ما سمعه من والده ، وقد أكثر من الرواية عنه . غير أنه ذكر مصادر أخرى رجع إليها — وإن كان رجوعه إليها فى مناسبات قليلة — مثل : « تاريخ دمشق » لابن عساكر(١) ، « وأخبار حلب » لابن العديم(٢) ، والعماد الكاتب من بعض مصنفاته(٣) . كذلك نقل عن بعض الشخصيات المعاصرة للحوادث ذكر أسماء بعضها وأهمل ذكر بعضها الآخر فضلا عن أن مادة الكتاب ، هى نفس مادة كتاب « الكامل » مع فارق واحد هو فارق الأسلوب الذى تحدثنا عنه من قبل(٤) .

المخطوطة :

مخطوطة « التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية » نسخة وحيدة ليس لها أخت ، وهى موجودة بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٨١٨ من المجموعة العربية بعنوان : « تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » . وقد أحضرت النسخة ميكروفيلم من باريس ، فوجدت أن المخطوطة لا تحمل عنواناً ، وقد جاء عنوانها عند مؤلفها ابن الأثير — فى كتابه الآخر « الكامل فى التاريخ » ، فى عدة مواضع منه ، هكذا : « التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية » ، « الباهر » ، «الباهر فى أخبار دولتهم »(٥) ، فاعتمدنا نحن العنوان الكامل ، الذى ظهرت به الطبعة التى بين يدى القارىء . كذلك لا تحمل المخطوطة اسم المؤلف ، غير أن هذه الصعوبة أمكن التغلب عليها حيث يوجد بالمخطوطة ما يؤكد إلى أن مؤلفها هو ابن الأثير ، حيث يشير فى أماكن منها إلى والده وإلى أخيه مجد الدين أبى السعادات ، وإلى كتابه « الكامل فى التاريخ » .

وتقع المخطوطة فى ٤٦١ صفحة ، وتحتوى كل صفحة على ثلاثة عشر سطرا ، ويختلف عدد الكلمات فى السطور ، ما بين سبع وعشرة كلمات .

---

(١) س/٨٩ (من النص) . (٢) ص/١٢٦ (من النص) . (٣) ص/١٧٤ (من النص) .
(٤) يعد المحقق بحثا مستفيضا عن ابن الأثير ، مع دراسة مؤلفاته ومنها « الكامل فى التاريخ » وتحديد مصادره .
(٥) الكامل فى التاريخ ، حـ/ ٨/ص / ٣٠٩ / ٣١٠ ، حـ / ٩ / ص / ١٣ / ١٤ / ١٢٥ .

والخط الذى كتب به نسخ ظاهر جميل فى مجموعه .

والأخطاء الإملائية كثيرة ، وأكثر منها ، الأخطاء الناتجة عن عدم دقة الناسخ فى تنقيط الحروف.

ولا يعترف الناسخ بحرف « الألف » لفعل الجمع ، مثل : ضربوا ، حاصروا ، نزلوا ، إلا فى حالات قليلة جدا ، فأضفناها نحن ، ولم نشر إليها فى الحواشى لكثرتها .

وحرف « التاء » له عند الناسخ أمر عجيب ، فهو يصر على كتابتها مفتوحة فى حين يجب كتابتها مربوطة ، مثل : مدينة ، فيكتب اللفظ : مدينت . ويكتبها مربوطة ، فى حين يجب كتابتها مفتوحة ، مثل : (نهر) الفرات ، فيكتب اللفظ : الفراة .

كذلك يطيب له أحيانا أن يقلب حرف الضاد ، ظاء ، مثل : غضنفر ، فيكتب اللفظ : غظنفر . وأن يقلب حرف الظاء إلى حرف الضاد ، مثل : المظفر ، فيكتب اللفظ : المضفر .

كذلك اتبع طريقة عصره وعصر من سبقه فى إهمال إثبات الهمزة ، سواء كانت فى أول الكلمة أو وسطها أو فى آخرها ، مثل : تتضاءل ، استئصال ، دماءنا ، أعداء . فيكتبها : تتضال ، استيصال ، دمانا ، أعدا . وهو إذ يهمل الهمزة فى موضعها ، فإنه يضعها فى غير محلها ، مثل : بنو ، لا . فيكتبها : بنوء ، لاء .

فقمنا نحن على تهذيب النص من هذه العيوب ، ولكن لم نشر إليها كلها فى الحواشى لكثرتها بحيث إذا أشرنا إليها كلها تزحم النص .

كذلك لم يوحد الناسخ الرسم الهجائى لأسماء بعض الأعلام والأماكن ، مثل : بزان ، سلجق ، كربوغا ، الرهاء . فيكتبها أيضاً : بوزان ، سلجوق ، كربوقا ، الرها (بدون همزة) وقد أثبتنا الأسماء كما هى فى النص ، لأن المؤرخين القدامى ، استعملوا كلا الرسمين

وقد يسقط من الناسخ لفظ عند النسخ ثم يتنبه له فيكتبه بين السطور بخط دقيق ، أو فى هامش الصفحة ، وقد يخطىء فى كتابة كلمة فيمحوها ويكتبها صحيحة .

وفى المخطوطة بياض فى أماكن قليلة متفرقة منها ، وقد أشرنا إليه فى حواشى النص . ولا نستطيع الجزم عما إذا كان البياض من الناسخ بسبب عدم استطاعته قراءة ما فى مكانها ، أو أنه من ابن الأثير نفسه . وقد استطعنا ملء بعض هذا البياض ، ولم نوفق إلى بعضه الآخر ، برغم رجوعنا إلى مراجع أخرى .

وقد رجعنا فى تقويم النص ، إلى المراجع التى نقل أصحابها من النص الأصلى الذى لم نعثر عليه بعد ، مثل : « الروضتين فى أخبار الدولتين » لأبى شامة ، « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، « الكواكب الدرية فى السيرة النورية » لابن قاضى شهبة . غير أننا اعتمدنا اعتمادا تاماً على أبى شامة ، لأنه أكثر

من غيره نقلا من « النص » ونقوله منه أطول من غيره . وقد لاحظنا أن هناك اختلافا كبيرا بين ألفاظ مخطوطنا وبين ألفاظ أبي شامة وابن قاضي شهبة ، مما يدل على أن الناسخ تصرف تصرفا كبيرا أثناء نسخه ، ولو رمنا استبدال ألفاظ مخطوطنا بما في « الروضتين » و « الكواكب » لأصبح لدينا نسخة تختلف كثيراً عن النسخة الحالية ، وقريبة جدا من نسخة ابن الأثير الأصلية .

وقد احتاج « النص » لإضافة بعض الألفاظ وذلك لتقويم بعض العبارات ، فأضفناها من المراجع التي نقلت عن « النص » الأصلي أو من نسخة « دى سلين » — التي سوف نتحدث عنها فيما بعد — أو اجتهاداً منا ، ووضعنا اللفظ بين الحاصرتين [ ] ، للدلالة على أنه إضافة ، وأشرنا في الحاشية إلى المرجع الذي أضفنا اللفظ منه .

أما تحقيق الأخبار ، فقد رجعنا إلى كتاب المؤلف الآخر « الكامل في التاريخ » لأن مادة الأتابكة — كما ذكرنا من قبل — هي نفس مادة « الكامل » ، مع الاستعانة بالمراجع التي أشرنا إليها في الحواشي .

التاريخ الباهر والطبعة الفرنسية :

اهتم الفرنسيون بنشر المخطوطات العربية التي أرخت للحروب الصليبية في مجموعة أطلقوا عليها اسم : مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين .

Recueil Des Historiens Des Croisades. Historiens Orientaux.

وخطة المجموعة في النشر ، هي طبع النص العربي ، مع ترجمة له باللغة الفرنسية . وقد طبع « التاريخ الباهر » في هذه المجموعة — وهو الجزء الثاني منها — بعنوان : «تاريخ دولة الأتابكة ملوك الموصل» . وقام على إخراجه المستشرق الفرنسي « دى سلين » .

وقد قمنا نحن على إعداده للنشر مرة أخرى لأسباب ، أهمها :

أولا : ندرة الكتاب المطبوع في المجموعة الفرنسية . فقد طبع الكتاب في باريس سنة ١٨٧٦ م أي منذ حوالي قرن من الزمان ، ولا يوجد منه سوى نسخ قليلة جدا في دار الكتب المصرية والمكتبة العامة لجامعة القاهرة ، فهو لذلك قليل التداول بين المهتمين بدراسة الأسرة الزنكية (أو الأتابكية كما يسميها ابن الأثير) .

ثانياً : بالرغم من أن المستشرق الفرنسي « دى سلين » بذل مجهودا لا بأس به في تهذيب « النص » وتصويب ألفاظه وتحقيق أخباره ، فإننا لاحظنا — عند مقابلة نسخته على النص المخطوط — ما يلي :

١ — خطّأ « دى سلين » ألفاظاً صحيحة في النص ، واستبدلها بألفاظ أخرى ، بعضها بعيدة عن المعنى المقصود في العبارة ، وبعضها الآخر لا لضرورة لتغييرها ، مثال ذلك :

لفظ النص	:	لفظ دى سلاين		
تتضاءل	:	تتصل	.	فى عبارة النص(١) : وحاله من القرب تتضاءل (فى النص تتضال) دونها درجات المقربين (ص/١) .
شكواه	:	شكاوته	.	فى عبارة النص : فلقيه صبى ديلمى مستغيثا به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله (ص/٩) .
توضأ	:	توضؤا	.	فى عبارة النص : وكان من جملة عباداته أنه لم يُحْدِث إلا توضأ (ص/ ٩) .
وعزلتك	:	وألزمتك	.	فى عبارة النص : وإن كنت وزيرى فاسلك ما يسلكه الوزراء وإلا أطبقت دواتك وعزلتك (ص/١٠) .
المصانع	:	الصنايع	.	فى عبارة النص : وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثيرا ، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة (ص/١١) . (والمصانع هى ما يخزن فيها الماء) .
طرف	:	طريق	.	فى عبارة النص : وهو الذى بنى منارة القرون فى طرف البرمما يلى الكوفة (ص/١١) .
وأرضت	:	وعرضت	.	فى عبارة النص عن وفاة السلطان ملكشاه : ولم يجلس أصحابه للعزاء سـواه ، وأرضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدها محمود (ص/١١) .
ليملكه	:	ليملكها	.	فى عبارة النص : وكان جاولى قد عبر إلى الشام ليملكه . (ص/١٧) .
فبايعه	:	فبايعوه	.	فى عبارة النص : فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء . (ص/٢٢) .
فليكن	:	فليكون	.	فى عبارة النص : إذا أراد الإنسان أن يضع على رأسه حجرا ، فليكن من جبل كبير (ص/٢٧)
أمثالها	:	أمثالهم	.	فى عبارة النص : والتركمان تقول فى أمثالها . (ص / ٢٧) .
نازلها	:	بان لها	.	فى عبارة النص : فلما نازلها الشهيد سار حسام الدين (ص/٣٦) .

(١) الأرقام التى بين الأقواس هى أرقام صفحات النص المحقق .

لفظ النص : لفظ دى سلاين

الحصن : القصر . فى عبارة النص : وكان هذا الحصن أضر شىء على أهل حلب (ص/٣٩)

ابتغى : يبتغى . فى عبارة النص : فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملا، أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى موئلا . (ص / ٤١) .

الهواء : الهوى . فى عبارة النص . وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق حتى كادت تحجب الهواء . (فى النص أيضا : الهوى) (ص / ٦٠) .

بادى المعالم : يا ذى المعلم . فى بيت الشعر : بادى المعالم أطرقت شرفاته
إطراق منجذب القرينة عان (ص/٦٠)

الخدمة : خدمتك . فى عبارة النص : أننى بلغنى أن ولدى فارق الخدمة (ص/ ٦٥) .

شوهدت : شاهدت . فى عبارة النص: فلو شوهدت وقعاته لم تذكر وقعة الهباه (ص/٧٥)

تسلطهم : تسلطنهم . فى عبارة النص : لأنه رأى من تسلطهم على السلطان (ص/١١٥)

دبر ، وقدر : دبروا ، وقدروا . فى عبارة النص : وكان الأمر على ما دبر، والحال على ما قدر (ص/١٢٤)

الشهادة : العبادة . فى عبارة النص : وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى . (ص/١٢٧)

لتنقذهن : لتنقذهم . فى عبارة النص: هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج . (ص / ١٣٨) .

الخشوع : الخضوع . فى بيت الشعر : جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب فى المحراب (ص / ١٦٥)

للفسوق : للفسق . فى عبارة النص : وللتقى شروق ، وما للفسوق سوق (ص/١٧٤)

سالفة : سابقة . فى عبارة النص : وكان رجلا كبيرا له خدمة سالفة (ص/١٨٦)

فلم يعلم : فلم علم . فى عبارة النص : فبلغ الخبر إلى مجاهد قايماز فلم يعلم مخدومه نور الدين الخبر (ص / ١٩١)

أودعت : أوضعت . فى عبارة النص : وقد أودعت الكتب غدراتهم فهى باقية إلى يوم القيامة . (ص / ١٩٥)

لفظ النص : لفظ دى سلاين

لداته	:	لذاته	في بيت الشعر : ساد الملوك لسبع عشرة حجة
أشغال	:	الاشغال	ولداته إذ ذاك في أشغال (ص / ٢٠٢)

سحره ونحره : شجره ونجره . في عبارة النص: ولم يزل في حجره، وبين سحره ونحره .(ص/٢٠٢)

هذا قليل من كثير من ألفاظ النص التي استبدلها « دى سلاين » بغيرها من غير ضرورة تدعو لذلك ، ولم نشأ أن نذكرها في حواشي النص لئلا نثقل على المتن ، وإنما اكتفينا بإيراد الألفاظ التي أثبتناها هنا على سبيل التمثيل فقط .

٢ ـــ وقف « دى سلاين » في ضبط بيت الشعر :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فقد ورد في النص نثراً ، هكذا : هذه المكارم لاقعتا ب لين شبا بما فعادوابعد وأبوالا . فأثبته في طبعته نثراً وبأخطائه (ص/١١٨) .

وكذلك وقف في ضبط البيت :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وقد ورد الشطر الأول من البيت في « النص » : وليس الله بمتنكر . فأثبته « دى سلاين » : كما ورد في النص . (ص / ٢٠٤) .

كذلك حرف البيت :

فاسم الغمام لديه وهو كنهور آل وأسماء البحار جداول

فأثبت الشطر الأول من البيت .·. قسم الغمام لديه وهو كهور (ص / ١٥٠) .

٣ ـــ أسقط « دى سلاين » بعض المعلومات من بعض الأخبار ، كذلك أسقط نسب الخليفة المستظهر بالله كله ، وقد أشار هو إلى أنه أسقطه عن قصد ، لأنه لا يتصل بالموضوع الذي يهمه ، وهو أخبار الحروب الصليبية(١) . كذلك أسقط عن عمد خبر يتعلق بقسيم الدولة آقسنقر البرسقي(٢) .

أما العبارات التي سقطت من طبعة « دى سلاين » سواء كان عن عمد أم عن غير عمد :

١ ـــ « وقالوا [له] إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها فلم يمكنه أن يغير عليه »(٣) .

---

(١) ص/١٤ (من النص) (٢) ص / ٣١ (من النص) (٣) ص /١١٩ (من النص)

٢ — « يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »(١) .

٣ — « وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره فبلغه أن ولد السردار قد سرق » . فأسقط من هذه العبارة كلمات حرفت الخبر ، فجاءت : وكان له سردار قد سرق(٢) .

٤ — كذلك خطأ « دى سلاين » بعض التواريخ والمعلومات رغم صحتها فى النص :

(ا) ورد فى « النص » ، أن صاحب غزنة من أولاد محمود بن سبكتكين قتل أرسلان بيغو بن سلجوق . فأبدل « دى سلاين » اسم محمود ، بـ محمد(٣) . وهذا خطأ ، لأنه لم يحكم غزنة أحد من أولاد محمد ، وكان الحكم فيها لعقب غيره .

(ب) ورد فى « النص » أن مسير عز الدين مسعود لحصر جزيرة ابن عمر كان فى سنة ٥٨٧ ، فأبدل « دى سلاين » السنة ، بسنة ٥٨١(٤) .

ورد فى « النص » ، فى خبر بنى منقذ أصحاب شيزر ، « فأولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور » فأبدل « دى سلاين » اسم ، أبو سلامة ، بأبى أسامة(٥) .

وبرغم هذه الملاحظات ، فإننا لا نعنى أن مجهود « دى سلاين » كان ضئيلا ، وإنما بذل مجهودا يشكر عليه نجح فى بعضه ، وفشل فى بعضه الآخر .

وأود هنا أن أقرر ، أن « دى سلاين » وفر علىّ وقتا كان لابد أن أنفقه فى البحث عن معلومات عن ناسخ المخطوطة ، فإن الناسخ لم يذكر اسمه ولا تاريخ نسخه للمخطوطة . كذلك دلنى على المراجع التى نقلت عن « الباهر » ، والتى لابد للرجوع إليها لتهذيب ألفاظ النص ، وتوضيح ما فيه من غموض .

أما ناسخ المخطوطة ، فقد قال عنه « دى سلاين » إنه مسيحى مارونى ، ويؤيد « دى سلاين » مسيحية الناسخ ، باسقاطه عبارات التمنى المتصلة بالعقائد الإسلامية ، ويعنى « دى سلاين » ما أسقطه الناسخ من التصلية على النبى فترك مكانها بياضا (٦) . واستدل الناشر ، على أن الناسخ ، مارونى ، من جمال خطه « الذى فيه خصائص الانتظام والأناقة التى هى من مميزات الخط المارونى » . ثم يذكر الناشر ، أن الناسخ كان من رجال أواخر القرن السابع عشر الميلادى . ونحن لا نستطيع معارضة « دى سلاين » أو تأييده فيما ذكره عن الناسخ ، إلا فى حالة واحدة ، وهى مسيحيته ، فإننا نؤيده فى هذا ، لإسقاطه التصلية على النبى . أما ما عدا هذا فإننا نقف منه موقف المحايدين .

ويذكر « دى سلاين » . عن الناسخ ، إنه يجهل قواعد اللغة العربية ، ولا يفهم شيئا فى الشعر والنثر ، كذلك لا يفهم الأسلوب الصحيح للغة ، بالإضافة إلى أنه لم يكن على حظ من التعليم يمكنه من فهم

---

(١) ص/١٣٧ (من النص) . (٢) ص/١٩٩ (من النص) (٣) ص/٩ (من النص) .
(٤) ص/١٨٤ (من النص) . (٥) ص/١١٠ (من النص) (٦) ص/١ (من النص)

نص المخطوطة فهما تاما ، لذلك ارتكب كثيرا من الأخطاء عندما كان ينسخ القطع التى كان لا يفهمها ، كذلك حذف بعض الكلمات وكثيرا من العبارات من النص ، وأخطأ فى أسماء الاماكن الواردة فى النص ، فبعض هذه الأخطاء نتيجة الجهل ، وبعضها الآخر نتيجة الاهمال . وقد بالغ « دى سلين » فى تجريح الناسخ ، ونحن قد أشرنا إلى أخطائه فى حواشى النص . وهى أخطاء معظمها ناتج عن عدم دقته فى تنقيط الحروف .

ثم يذكر الناشر عمله فى إخراج النص ، والمجهود الذى بذله فى تهذيبه وتحقيقه ، فيقول ، إنه لمعرفته بخصائص قواعد اللغة العربية ، ولدراسته الأساليب الصحيحة لكبار الناشرين ، ولمعرفته بالشعر استطاع أن يعالج أخطاء النص . وهذه مبالغة من الناشر فى تقدير نفسه ، وما ذكرناه عن تصرفه بألفاظ النص ، يدل على عدم تمكنه من اللغة بالمقدار الذى يقدر به نفسه ، بالإضافة ، إلى أنه هو نفسه يقرر أنه وقف عاجزا عن معالجة بعض ألفاظ النص الغامضة أو الخاطئة ، فأثبتها كما هى ووضعها بين حاصرتين .

ثم يذكر الناشر المراجع التى رجع إليها فى تنقيح النص ، وهى :

١ ــ الروضتين فى أخبار الدولتين ، لأبى شامة .

٢ ــ الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير .

٣ ــ تاريخ ابن خلكان . (وفيات الأعيان) .

٤ ــ الموسوعات الجغرافية وكتابات المؤرخين العرب . (من غير تحديد) .

المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي النعم الباهرة والآلاء الظاهرة والمنن
الزاهرة الذي امتن على عباده بتمليك الملوك وتأمير
الأمراء فجعلهم سببا لانتصاف القوي عن الضعيف والأخذ
للمظلوم من الشريف نحمده على ما أنعم فأجزل
وأحسن وأفضل وصلى على

أما بعد فلا يخفى ما

من نعام هذه الدولة العزيزة القاهرة والأيام الزاكية
الزاهرة وشملنا من إحسانها ما ألبسنا من عز سلطانها
فقد اشتهر خبره وطاب خبره وطار ذكره في الآفاق
وتحدثت به الرفاق لعجائب بين ... ونعمة
تواليها ودرجة في العلاء يرفع نصيبنا اليها وترقية

اختيال العروس ورفلت من صفايها رايه في احسن لبوس وافتخر
به دهره على سائر الدهور

اذا نحن اثنينا عليك بصالح فانت كما نثني وفوق الذي نثني

وان جرت الالفاظ يوما بمدحة لغيرك انسانا فانت الذي نعني

هذه نبذة يسيرة من محاسنه يليق بهذا المختصر وقطرة من بحر
مكارمه تناسب هذا المعتصر لو اوردتها مفصلة لخرجنا عما
اعتمدناه وتركنا ما قصدناه ونحن ان شاء الله تعالى نأتي
على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ والله
الموفق للصواب وهو حسبنا ونعم
الوكيل والحمد لله وحده
وصلى على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه الابرار وسلم
تسليما كثيرا

ه

الإسلام والمسلمين وماحفظ من ثغورهم بجلادهم ، وما صب(١) على الفرنج من العذاب بأيديهم(٢) واستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخلد محاسن أعمالهم على مر الدهور ، وتعاقب السنين والشهور ، جزاء لإحسانهم المستمر ، وطولهم الثابت المستقر ، وكانت (٣ — أ) الأعذار تحول بينى وبين ما أؤمله من هذا الغرض ، والعوائق تحيل جواهر إمكانى إلى العرض . ولما استأثر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين — تغمده الله الكريم برضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه — وقام بالملك بعده ولده المولى المالك الملك القاهر العادل العالم المؤيد المنصور ، عز الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبو الفتح مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر ناصر أمير المؤمنين — نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ، ومن فلق الصباح غمورا(٣) ، لازالت الأقدار جارية على وفق اختياره ، ومقتضى إيثاره ، ولا برحت الحوادث عن جنابه الشريف مصروفة ، وأعين الكورات عن دولته القاهرة مطروفة — وملأ ذلك الدست ، وشرف ذلك الصدر ، وظهرت هذه الشمس بعد أفول ذلك البدر ، ولا غرو إذا أشبه الوالد الولد ، وقام الشبل (٣ — ب) فى عزيمة (٤) الأسد :

وأنت من القوم الذين هم هم ... إذا زال منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غاب كوكب ... بدا كوكب يأوى إليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وما زال منهم حيث كانت مهالك(٥) ... تسير المنايا حيث سارت كتايبه

وحيث كانت الحال هذه ، تجدد ذلك العزم ، وأحببت أن أجلو مناقب الموالى الملوك السعداء من آبائه عليه ، وأزف عقيلة محاسنهم إليه ، وأذكر من مشاهدهم(٦) فى نصرة الدين وذبهم عن حوزة المسلمين ، ماانتهى إليه علمى ، وأثبته قلمى : شعر

أخيار قوم بنوا(٧) وما نقضوا(٨) ... فالذكر يحيا(٩) وإن هم قبضوا

جادوا فما قصرت أكفهم(١٠) ... عن غرض فى الندى ولا عرضوا

وانتهزوا فرصة التمكن إذ ... تصوروا أن مكثها عرض

(٤ — أ) فى دولة القاهر الملك عز الـ ... ـدين عن كل من مضى عوض

قال . ليعلم قدر الله نعمة الله تعالى عنده أولا وآخراً ، ويقتدى بافعالهم وارداً وصادراً ،

---

(١) بالأصل : وماصبهم . (٢) بالأصل : بما يديهم . (٣) بالأصل : عمورا . (٤) بالأصل : عريمة . (٥) بالأصل : كان مهالك . (٦) بالأصل : مشاهدتهم . (والمراد فى النص ، مواقفهم فى الحروب).
(٧) بالأصل : بنو . (٨) بالأصل نقصوا . (٩) بالأصل : يحيى . (١٠) بالأصل : أكففهم .
(والبيت مكسور فى شطره الثانى . ويمكن لإبدال اللفظ : غرض ، باللفظ : غاية ، فيصح الوزن ويكون المعنى أكمل) .

وليتيقن(١) أنه لم يكن لأحد من الملوك المتقدمين والخلفاء الراشدين ، منقبة دينية ودنيوية(٢) وتجربة فى حفظ(٣) الممالك والرعايا شرعية وسياسية ، إلا وفى بيته الشريف — ثبت الله تعالى قواعده ، وشد من عزه معاقده — ما يضاهيها ، وظهر عنهم ما يماثلها ويناويها ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم(٤) » . لا بل والله من قاس غيرهم بهم قاس الثمد إلى البحر، والمخشلب(٥) إلى الدر، والهشيم بخضرة الربيع، والأرض الجرز(٦) بنضرة الروض المريع ، ولكأن القائل إياهم أراد بقوله :

لم تحمل الأرض ملوكا مثلهم	ولا أظلتها السماوات العلى
معاد كل راغب وراهب	إذا أتى ديارهم ألقى العصى
لا ينطق العوراء فى ناديهم	ولا يحلون إلى الجهل الحبى
(٤ - ب) لا يصطلى بنارهم عند اللقا	ويصطلى بنارهم عند(٧) القرى
هم النجوم طالع وآفل	يعلوهم غرس(٨) إذا غرس(٩) ذوى
هم الجبال امتنعت أن ترتقى	هم البحور ليس يعلوها القذى
إن سئلوا لم يبخلوا أو عاهدوا	لم يغدروا أوذكروا(١٠) طاب الثنا

ونقلت أكثره عن والدى رحمه الله تعالى، فإنه كان راوية(١١) حسناتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فاتنى كثير مما سمعته منه ، لأننى جمعت هذا القدر من حفظى بعد وفاته ، ولم أثبته بقلمى فى حياته ، ومع هذا فإننى تعمدت ترك الإكثار ، لميل الناس فى زماننا إلى الاختصار ، وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه ، لأنه أول من ملك منهم فيما علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده المولى الشهيد عماد الدين (٥ — أ) زنكى قدس الله روحه . ولم أذكر أحداً غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة(١٢) خليفة واستخلاف آخر ، وموت سلطان سلجق وولاية غيره ، إذا الضرورة تدعو إليه ، وبالله التوفيق وهو المستعان وهو حسبى ونعم الوكيل .

---

(١) بالأصل: وليتقين . (٢) بالأصل: وديناوية . (٣) بالأصل: حفض . (٤) سورة الحديد: ٢١ .
(٥) المخشلب :قطع الزجاج المنكسر ، وقيل الخزف . محيط المحيط (مادة: خشلب) . (٦) الأرض الجرز : الأرض التى لا نبات فيها . (مختار الصحاح) . (٧) بالأصل : عن . (٨) بالأصل : عرش .
(٩) بالأصل عرس . (١٠) بالأصل : ذكر . (١١) بالأصل : رواية . (١٢) بالأصل : وافاه .

فى ذكر ابتداء حال قسيم الدولة آقسنقر

رضى الله عنه

قال صاحب التاريخ . كان قسيم الدولة(١) تركيا(٢) من أصحاب(٣) السلطان جلال الدولة ركن الدين(٤) ملكشاه بن ألب أرسلان وأترابه ، وممن ربى معه فى صغره وصحبه إلى حين كبره ، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه ، وأفاضت تاجها عليه ، رعى لقسيم الدولة صحبته ، فجعله من أعيان أمرائه ، وأخص أوليائه ، فصادف الإحسان أهله ، فرفع قدره وأعلى محله ، واعتمد عليه السلطان فى مهماته ، وأفضى إليه بأسراره فى خلواته وجلواته ، ووثق به وثوقا حسده عليه سائر أمرائه (٥ — ب) وأجناده ، لما رأى من شجاعته وحزمه وسداده ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والإيناس(٥) ، وزاد قدره علوا إلى أن صار يتقيه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان ، وتمكنه من المملكة بعلو المنصب وكثرة الأعوان ، فأشار على السلطان بأن يوليه مدينة حلب وأعمالها ، ويحكمه فى عساكرها وأموالها ، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد الشامية ، وكان قصده أن يتخذ عند قسيم الدولة يدا ، ويبعده عن خدمة السلطان . ومن أعظم الدلائل على علو منزلته وسمو مرتبته لقبه ، وهو قسيم الدولة ، وكانت الألقاب حينئذ مصونة [لاتعطى إلا لمستحقها(٦)] حتى إن السلطان — مع جلالة قدره — لم يكن يعرف إلا بجلال الدولة ولم يكن لقبه فى الدين مشهورا . وكان قسيم الدولة أيضاً يقف إلى جانب (٦ — أ) تخت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه أحد ، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده . وهكذا كان سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى رضى الله عنهما يقف عند السلطان غياث الدين مسعود ، ولما توجه المولى السعيد شرف الدين بن المولى المعظم قطب الدين قدس الله روحهما إلى همذان — وبها حينئذ السلطان ألب أرسلان [بن] طغرل بن محمد وأتابكه البهلوان ، وهو أخو السلطان لأمه والبلاد له وبحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه — وكان البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان عن مقامه ، وقال لشرف الدين : هذا لكم

---

(١) فى زبدة الحلب (حـ/٢ / ص/١٠٣) . أن اسم أبيه « النعمان » ، وفى الحاشية (رقم : ٤) ، آل ترعان .

(٢) فى زبدة الحلب (حـ/٢ ص/١٠٣ / حاشية / ٤) ، أنه من قبيلة « ساب يو » .

(٣) فى ابن واصل (حـ / ١ / ص / ١١) ، أن قسيم الدولة كان مملوكاً للسلطان ألب أرسلان السلجوقى فربى مع ولده السلطان ملكشاه . وفى ابن خلكان (حـ/٢/ص/٢٥٢) ، أنه كان مملوكاً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان . وفى زبدة الحلب (حـ/٢/ص/١٠٣) ، « وقيل إنه كان مملوك ملكشاه ، وقيل إنه لصيق به » . وفى الكامل (حـ/٨/ص/١٤٥) ، أنه كان زوج دادة السلطان ملكشاه .

(٤) لم يلقب أحد من المؤرخين ، السلطان ملكشاه بلقب « ركن الدين » سوى ابن الأثير ، وإنما لقبه « جلال الدين » ، والسلطان السلجوقى الملقب بـ « ركن الدين » هو بركياروق بن ملكشاه . (أنظر زامباور : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/٥٢/٧٤) .

(٥) يظهر أن قسيم الدولة حجب السلطان ملكشاه . حيث يطلق كل من ابن واصل (حـ/١/ص/١١) : ابن خلكان (حـ/٢/ص/٢٥٢) : ابن كثير (حـ/١٢/ص/١٤٧) ، على قسيم الدولة لقب الحاجب ، فهو عندهم « قسيم الدولة آقسنقر الحاجب » .

(٦) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٤) .

من قديم الزمان ليس لأحد غيركم أن يقف [فيه] مع حضوركم . وكل هذا يدل على ما ذكرناه من جلالة قدر قسيم الدولة وعلو محله .

ذكر مسير قسيم الدولة

مع فخر الدولة بن جهير إلى الموصل بأمر السلطان ملكشاه

(٦ — ب) فى سنة سبع[١] وسبعين وأربعمائة ، سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة ابن جهير وزير الخليفة[٢] إلى ديار بكر ليتملكها ويجلى عنها بنى مروان[٣] على ماذكرناه فى المستقصى فى التاريخ[٤] ، وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير — وكان زوج ابنة نظام الملك — إلى الموصل ، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلى ، وسير معه جيشا عظيما ، وجعل المقدم على الجيش قسيم الدولة آقسنقر ، وتقدم إلى عميد الدولة ليكون فعله فى حروبه وحصاره برأى قسيم الدولة، لمعرفته بتدبير الجيوش وحصر البلاد وشجاعته فى حروبه كلها ، فساروا نحو الموصل ، فلقيهم فى الطريق الأمير أرتق بن أكسب التركمانى — جد ملوك الحصن[٥] وماردين يومنا هذا — ومعه خلق كثير من التركمان فاستصحبوه معهم — وكان مشهورا بالعقل والدين — فلما وصلوا إلى الموصل حصروها وضيقوا على من بها (٧ — أ) وأرسل أرتق إلى من بها يشير عليهم بالدخول فى طاعة السلطان وترك العصيان عليه ، وخوفهم عاقبة فعلهم إن امتنعوا وأصروا على الخلاف ، فقبلوا نصحه وأذعنوا له وأطاعوا وسلموا البلد[٦] ، فأخذ عميد الدولة ماكان به من مال شرف الدولة وأهله وذخائره .وكان السلطان عازما على أخذ جميع البلاد التى لشرف الدولة واستئصال ملك العرب ، فأتاه الخبر بخروج أخيه تكش عن طاعته بخراسان واجتماع العساكر عليه ، فأرسل مؤيدالملك بن نظام الملك إلىشرف الدولة فطيب قلبه ، وذكر له أن أباه نظام الملك قد شفع فيه إلى السلطان فأجاب شفاعته ،وأمره بالمسير معه إلى خدمة السلطان ، فسار صحبته ولقى السلطان بالبوازيج[٧] ، فخلع عليه ورد عليه الموصل وجميع ما أخذ له من أهل ومال ، وسار السلطان نحو خراسان فظفر بأخيه .

---

(١) فى الكامل (ﺣ/٨/ص/١٣٣) سنة ست وسبعين ، وكذلك فى ابن كثير (ﺣ/١٢/ص/١٢٤) ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/٦٩ . (٢) لم يكن فخر الدولة وزيراً للخليفة المقتدى بأمر الله حين أرسله السلطان ملكشاه إلى ديار بكر ، وإنما كان معزولا واستوزر الخليفة ابنه عميد الدولة ، ثم عزله الخليفة فى صفر سنة ٤٧٦ ، فطلب ملكشاه من الخليفة أن يرسل إليه بنى جهير — وكان ملكشاه بأصبهان — فأرسلهم إليه ، فأكرمهم ملكشاه ، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر وأرسله إليها فى نفس السنة بالعساكر . (الكامل ، ﺣ/٨/ص/١٣٣) . (٣) بالأصل : بنى مرون .

(٤) المستقصى فى التاريخ هو كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير . (٥) الحصن :هو حصن كيفا . وأرتق بن أكسب هو جد ملوك بنى أرتق ، وترجمته فى : ابن خلكان(ﺣ/١/ص/٠٧٦) . (٦) فى السلوك (ﺣ/١/ص/٣٣) ، أن السلطان ملكشاه أرسل قسيم الدولة آقسنقر — والد عماد الدين — إلى الموصل فملكها . وهذا وهم من المقريزى ، وسببه تشابه اسمه باسم آقسنقر البرسقى الذى ولى الموصل سنة ٥١٥ ، فى عهد السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه . (٧) البوازيج : فى(ياقوت) : بلد قرب تكريت على فم نهر الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك . .

(٧ — ب) ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت أنطاكية للروم قد ملكوها سنة ثمان(١) وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالوا بها إلى سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وكان صاحبها حينئذ روميا يسمى الفردروس(٢)، فسار عنها إلى بلاد الروم، فكتب أهلها(٣) إلى سليمان بن قتلمش — وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسرو(٤) صاحب قونية وغيرها — وراسلوه ليحضر عندهم ليسلموا إليه أنطاكية، فسار إليهم وتسلم البلد وملكه، وقتل من أهله خلقا كثيرا، وأخذ منهم مالا عظيما. وكان لشرف الدولة على صاحب أنطاكية الرومى جزية يأخذها منه كل سنة، فلما ملك البلد سليمان، أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ماكان يأخذه من الروم، وتهدده وخوفه عاقبة (٨ — أ) معصية السلطان، فأعاد الجواب: إننى فى طاعة السلطان وهذا الفتح بسعادته، والخطبة والسكة له فيه، ولست بكافر حتى أعطيك ماكنت تأخذه من الروم، فأعاد شرف الدولة الجواب يتهدده ويلزمه بالمال، فأخذت سليمان الحمية فسار إلى بلد شرف الدولة ونهبه، فقصده الذين نهبهم واستغاثوا إليه، فقال لهم: صاحبكم أحوجنى إلى مافعلته، وإلا فليس من عادتى أخذ مال مسلم، ورد عليهم ما أخذ منهم، فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة أبيهم وسار نحو أنطاكية، فلقيه سليمان فى أول أعمالها مما يلى حلب فى صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فاقتتلوا أشد قتال فانهزمت العرب والتركمان عن شرف الدولة(٥)، فاضطر إلى الهزيمة فقتل منهزماً وذاق عاقبة بغيه. وكان ملكه (٨ — ب) من السندية(٦) بالعراق على نهر عيسى إلى

---

(١) ذكر ابن الأثير فى «الكامل» تاريخين مختلفين عن استيلاء الروم على أنطاكية، التاريخ الأول، شهر المحرم سنة ٣٥٩ (ح/٧/ص/٣٦) والتاريخ الآخر سنة ٣٥٨ (ح/٨/ص/١٣٦) وهو التاريخ الذى ذكره هنا وبدون تحديد الشهر. وكان المسلمون قد استولوا على أنطاكية من الروم سنة ١٥ هـ، أثناء فتوح الشام.

(٢) فى ابن القلانسى (ص/١١٥)، الكامل (ح/٨/ص/١٣٦)، الفردوس.

(٣) لم يكتب أهل أنطاكية إلى سليمان ليسلموه البلد، ودليل هذا أنهم قاتلوه كما يتبين من الخبر نفسه. والخبر الذى ذكره ابن الأثير فى «الكامل» (ح/٨/ص/١٣٦) أوضح مما ذكر هنا. فهو يذكر أن الفردوس كان مسيئاً إلى أهل أنطاكية وإلى جنده، حتى أنه حبس ابنه. فانتهز الابن فرصة مسير والده الى الروم فاتفق وشحنة البلد على استدعاء سليمان بن قتلمش لتسليم البلد إليه، فسار سليمان إليها واجتمع بالشحنة فى شهر شعبان، فقاتله أهل البلد فهزمهم واستولى عليها عنوة. ومعنى هذا أن سليمان جاء على غير رضا من أهل أنطاكية.

ويعلق «دى سلين» على اسم الفردوس وعلى الخبر نفسه بقوله (ص/١٤): «من الممكن أن يكون المؤلف كتب الاسم «التدروس» (يعنى دى سلين أن ابن الأثير كتب الاسم صحيحاً، ثم حرفه ناسخ المخطوط)، وفى هذه الحالة يكون المقصود هو ابن «فيلاريت» حاكم أنطاكية، ويكون هو الذى ثار عندما علم بنية أبيه على اعتناق الإسلام، كما تقول «آن كومنين» فى كتاب «الكسياد» Alexiade (الكتاب الخامس، ص ١١٦) حتى أنه رحل إلى نيقية وحرض سليمان على المسير إلى أنطاكية للاستيلاء عليها، ويبدو أن رواية بنت ألكسيس غير محتملة، والمعقول أن نفترض أن فيلاريت أرسل ابنه إلى سليمان لكى يعقد محالفة معه». ويتضح أن فرض دى سلين، لاعلاقة بينه وبين استيلاء سليمان على أنطاكية.

(٤) كان غياث الدين صاحباً لقونية وغيرها من سنة ٥٨٨ — ٥٩٢، من سنة ٦٠١ — ٦٠٧ (زامباور).

(٥) فى الكامل (ح/٨/ص/١٣٧)، أنه كان مع شرف الدولة، أمير التركمان «جبق»، فتركه «جبق» وانضم إلى سليمان برجاله، فلما رأى العرب ذلك، انهزموا وتبعهم شرف الدولة منهزماً.

(٦) السندية: فى (ياقوت) بكسر أوله وسكون ثانيه، نسبة إلى السند. وهى قرية من قرى بغداد على نهر عيسى بين بغداد والأنبار.

منبج(١) وما بينهما من البلاد الفراتية : كهيت(٢)، والأنبار(٣) وغيرها ، وملك الموصل(٤)، وديار ربيعة(٥) ، والجزيرة(٦) بأسرها ، وملك مدينة حلب . وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة .

ولما قتل شرف الدولة قصد سليمان مدينة حلب فحصرها(٧) فأرسل إليه أهلها : إذا انفصل الأمر بينك وبين تاج الدولة تتش، سلمنا إليك البلد. وكان تاج الدولة له مدينة دمشق ونواحيها قد أقطعه(٨) إياها أخوه السلطان ملكشاه(٩) ، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليملكها ، وكان معه أرتق بن أكسب — وقد أقطعه تاج الدولة البيت المقدس(١٠) — فلما أرسل أهل حلب إلى سليمان ماذكرناه ، سار نحو تاج الدولة فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان ، وانجلت الحرب عن هزيمة (٩ — أ) عسكر سليمان ، وثبت هو فقتل . وسار تاج الدولة إلى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة، فكاتب أهلها السلطان ملكشاه ليسلموها إليه وهو بالرها(١١). وكان سبب مسيره إليها، أن ابن عطير النميرى كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلمها إليهم ، فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها(١٢) ؛ فسار ملكشاه إليها هذه السنة(١٣) فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان ، فلما أتاه رسل أهل حلب بالتسليم إليه، سار إليهم. فلما بلغ خبر مسيره إلى تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق . ووصل السلطان إلى حلب ، وبالقلعة

---

(١) منبج : فى (ياقوت) ، مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة . بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . (٢) هيت : فى (ياقوت) ، بالكسر وآخره تاء مثناة . بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار ، ذات نخل كثير وخيرات واسعة ، وهى مجاورة للبرية . (٣) الأنبار : فى (الاصطخرى ص/٥٤) تقع شرقى الفرات ، وهى ذات نخل وزرع وشجر . وفى (ياقوت) ، أنها تقع غربى بغداد ، بينهما عشرة فراسخ . (٤) الموصل : فى (الاصطخرى ص/٥٣) ، مدينة على غربى دجلة ، صحيحة التربة والهواء ، ليس لأهلها سوى ماء دجلة للشرب ، وليس لهم من دجلة زرع ولا شجر إلا الشىء اليسير فى عدوة دجلة من شرقيها، وزروعهم مباخس ،وفواكههم تحمل من سائر النواحى . وهى مدينة عامة أبنيتها بالجص والحجارة ، كبيرة غناء .

(٥) ديار ربيعة : فى (ياقوت) ، تقع بين الموصل ورأس عين نحو بقعاء الموصل ، ونصيبين ، ورأس عين ، ودينسر ، والخابور جميعه وما بين ذلك من المدن والقرى . وربما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة، وسميت كلها ديار ربيعة لأنهم كلهم (أى القبائل التى تسكنها) من ربيعة . وهذا الاسم لهذه البلاد قديم ، كانت العرب تحله قبل الإسلام فى بواديه .

(٦) الجزيرة : فى (ياقوت)، جزيرة أقور بالقاف . وهى التى بين دجلة والفرات، مجاورة للشام، وتشتمل على ديار مضر . وديار بكر. وسميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات بها مدن جليلة ، وحصون وقلاع كثيرة، ومن أمهات مدنها : حران ، والرقة ، والرها ، ورأس عين ، ونصيبين ، وسنجار ، والخابور ، وماردين ، وآمد ، وميافارقين ، والموصل .

(٧) فى الكامل (حـ / ٨ / ص / ١٣٧) ، أن سليمان قصد حلب وحاصرها فى مستهل ربيع الأول من السنة ، فأقام عليها إلى خامس ربيع الآخر فلم يبلغ منها غرضاً فرحل عنها. (٨) بالأصل : أقطعها إياها . (٩) كان ذلك سنة ٤٧١ ، (الكامل ، حـ/٨/ص/١٢٦) . (١٠) عن اقطاع تتش ، بيت المقدس ، لأرتق ، أنظر ، الكامل (حـ/٨/ص/١٣٤/ ١٣٥/ ١٤٠) . (١١) الرها : فى (ياقوت) ، الرهاء ، بضم أوله والمد والقصر ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ . وفى باركر (ص/٥٦) أنها شديدة القرب من الطريق التجارى الكبير الذى يمتد على الفرات إلى الرقة ، ومنها يتفرع إلى طريقين ، أحدهما يسير إلى أنطاكية ، والآخر يتجه إلى دمشق.

(١٢) جاء الخبر عن ابن عطير والرها فى الكامل (حـ/٨/ص/١٦ — حوادث سنة ٤٢٩) هكذا : « وفيها صالح ابن وثاب النميرى — صاحب حران — الروم الذين بالرها لعجزه عنهم ، وسلم إليهم ربض الرها : وكان تسلمه على ما ذكرناه أولا (أنظر ، ص/١١ من المرجع) فنزلوا من الحصن الذى للبلد إليه ، وكثر الروم بها ، وخاف المسلمون على حران منهم . وعمر الروم الرها العمارة الحسنة وحصنوها » . (١٣) فى الكامل (حـ/٨/ص/١٤٠) ، أن ملكشاه حصر الرها سنة ٤٧٩ ، وهو فى طريقه إلى حلب للاستيلاء عليها بدعوة من أهلها .

سالم بن مالك بن بدران العقيلي — وهو ابن عم شرف الدولة — فسلمها إلى السلطان بعدقتال ، وأعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر ،وكان قد ملكها هذه السفرة من صاحبها جعبر النميرى ، وكان شيخا كبيراً أعمى ، فبقيت (٩ — ب) بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى رضى الله عنهما ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . فلما ملك السلطان حلب،أرسل إليه الأمير نصر بن على بن المقلد بن منقذالكنانى(١) صاحب شيزر ودخل فى طاعته وسلم إليه لاذقية(٢) ، وفامية(٣)،وكفرطاب(٤) فأجابه ملكشاه إلى الصلحوترك قصده. ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها ، وحماة ، ومنبج ، ولاذقية ، وما معها إلى قسيم الدولة آقسنقر فأقطعه الجميع ، فبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغى سيان ، وهو صاحب صلاح الدين محمد الياغيسيانى (٥) الذى صار(٦) أمير حاجب المولى الشهيد عماد الدين زنكى . ولما استقر (١٠ — أ) قسيم الدولة فى الشام ، ظهرت كفايته وحمايته وهيبته فى جميع بلاده . وأن السلطان استدعاه إلى العراق(٧) فقدم إليه فى تجمل عظيم لم يكن فى عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها ، ولما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت فملكها .

معرفة حسنة

يذكر أهل التواريخ أنه ليس من مشهورى(٨) العرب من قتل هو وأبوه وجده وجد أبيه ، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد . فإن عبد الله قتله الحجاج ، والزبير رضى الله عنه قتل يوم الجمل ، وقتل العوام وخويلد فى الجاهلية . وليس من مشهورى الترك من هو هكذا ، غير(٩) قليج أرسلان [فقد] قتله جاولى سقاووا بالخابور غريقا . وهذا سليمان قتله تاج الدولة تتش كما ذكرناه . وأما أبوه قتلمش بن أرسلان بيغو (١٠ — ب) بن سلجق(١٠) فقتله صاحب مدينة

---

(١) بالأصل : الكتانى . (والتصحيح من ، الكامل ، ج/٨/ص/١٤١) . (٢) لاذقية : فى (ياقوت) ، اللاذقية ، بالذال المعجمة مكسورة وقاف مكسورة وياء مشددة . مدينة فى ساحل بحر الشام ، وهى غربى « جبلة » ، بينهما ستة فراسخ . وهى مدينة عتيقة رومية ، فيها أبنية قديمة مكينة . وهى بلد حسن فى وطاء من الأرض وله مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الربض ، والبحر على غربها وهى على ضفته .

(٣) فامية : فى (ياقوت) ، أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص ويسميها بعضهم ، فامية . (٤) كفرطاب : فى (ياقوت) ، بالطاء المهملة وبعد الألف باء موحدة . بلدة بين المعرة (معرة النعمان) ومدينة حلب فى برية معطشة ، ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار فى الصهاريج .

(٥) بالأصل : الياغيسانى ، (والتصحيح من اسم ياغى سيان، الوارد فى النص نفسه ، ومن الكامل ، ج/٨/ص/١٨٦) .

(٦) بالأصل : الذى كان . وما بالأصل خطأ ، لأن صلاح الدين صار حاجباً لعماد الدين بعد أن ولى الموصل سنة ٥٢١ بينما الكلام هنا عن سنة ٤٨٧ . (٧) فى الكامل (ج/٨/ص/١٥٩) أن ذلك كان فى سنة ٤٨٤ ، للإحتفال بالميلاد ببغداد . (٨) بالأصل : مشهور . (٩) بالأصل : غيرة . (١٠) يرد هذا الاسم أيضاً فى النص ، هكذا: سلجوق . وكل من الرسمين يستعمله المؤرخون القدامى .

أستوا(١) لأنه جمع خلقا كثيرا من الأتراك وخرج على السلطان ألب أرسلان (٢)، فلقيه صاحب أستوا(٣) فقاتله، فانهزم قتلمش وسقط عن فرسه فمات. وأما أبوه أرسلان بيغو بن سلجق، فإن صاحب غزنة من أولاد محمود(٤) بن سبكتكين أخذه فقتله، وأخذ ابنه قتلمش حتى خلصه الملك داود والد السلطان ألب أرسلان لما ملك خراسان.

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، قتل الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق، قتله صبي ديلمي بعد الإفطار، وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقيه صبي ديلمي مستغيثا به فقربه (١١ — أ) منه ليسمع شكواه فقتله، وقتل الصبي أيضاً، فعدمت الدنيا واحدها الذي لم تر مثله. وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين، إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته، فاستبشر نظام الملك بذلك، وأظهر السرور به، وقال: هذا أبغي وإياه أطلب. وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره.

وكان عالما، فقيها، دينا، خيرا، متواضعا، عادلا يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم. وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبحث عن غوامض المسائل، لأنه اشتغل بالفقه في حداثته مدة.

وأما صدقاته ووقوفه فلا حد لها، ومدارسه في العالم مشهورة، لم يخل بلد من شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر(٥) — التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها — بني فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي الآن تعرف بمدرسة رضي الدين.

وأعماله (١١ — ب) الحسنة، وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده، رحمه الله ورضي عنه.

وكان من جملة عباداته أنه لم يحدث إلا توضأ، ولا توضأ(٦) إلا وصلى. وكان يقرأ القرآن حفظا، ويحافظ على أوقات(٧) الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة، حتى إنه كان إذا أغفل المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة.

وأما ابتداء أمره، فإنه كان يحب التصرف، فاتصل بأمير كان صاحب بلخ يعرف بالأمير ياخر

---

(١) أستوا: في (ياقوت): بالضم ثم السكون وضم التاء المثناة وواو وألف. كورة من نواحي نيسابور.

(٢) بالأصل: ارب ألب أرسلان. (٣) بالأصل: استوى. (٤) خطأ «دي سلين» ما في النص واستبدل الاسم بمحمد بن سبكتكين. وهذا خطأ من «دي سلين» لأن محمداً لم يحكم أولاده في غزنة، وإنما كان الحكم فيها لعقب غيره من أبناء سبكتكين. (أنظر، زامباور). (٥) جزيرة ابن عمر: (في ياقوت): (ح/٢/ص/٧٩، ح/٣/ص/١٠٢)، بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق خصب واسع الخيرات. وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال. ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ونصبت عليه رحى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق.

(٦) بالأصل: توضيء. (٧) بالأصل: الأوقات.

— وكان مقدم عسكر الملك جغرى بك داود جد السلطان ملكشاه — وكان ياخر لا يعطيه إلا ما يقوم به حسب، وفى آخر كل سنة يصادره بما يفضل معه، فضجر من هذه الحال، وأخفى أولاده — وكان له فخر الملك ومؤيد الملك — وركب فرسه وهرب. وكان فرسه (١٢ — أ) بطيئا، فدعا الله تعالى أن يرزقه فرسا يخلصه عليه، فلم يسر إلا قليلا حتى لقيه تركمانى تحته فرس جيد فسلمه إليه وأخذ فرسه عوضه، وقال له: ياحسن أذكر هذه. قال نظام الملك: فلما ركبت الفرس قويت نفسى، وعلمت أن السعادة قد جاءت، ووصلت إلى مرو، ودخلت على الملك داود فأخذ بيدى وسلمنى إلى ولده الملك عضد الدولة ألب أرسلان وقال: تسلمه واتخذه والدا لا تخالفه. ثم إن الأمير ياخر سأل عنى فلم يجدنى وأخبر بهربى، فسار بنفسه فى طلبى حتى دخل على الملك داود فطلبنى منه، وقال: إنه أخذ مالى وهرب، فقال له داود: حديثك مع ولدى ألب أرسلان، فلم يجسر يخاطبه فيه. ووزر(١) نظام الملك للسلطان ألب أرسلان قبل أن يلى السلطنة فى حياة عمه السلطان طغرلبك. فلما توفى طغرلبك سعى نظام (١٢ — ب) الملك فى أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذى تعجز عنه الجيوش والكثرة، واستقرت السلطنة له، وبقى معه إلى أن توفى. ثم وزر بعده لابنه السلطان ملكشاه إلى أن قتل. وكان قد تحكم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه لكثرة مما ليكه ومحبة الأمراء والعساكر له، وميل عامة الناس وخاصتهم إليه بحسن سيرته وعدله.

ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان رضى الله عنه

فى منتصف شوال سنة خمس(٢) وثمانين [وأربعمائة] توفى السلطان ركن الدين ملكشاه رضى الله عنه. وسبب وفاته أنه أكل لحم صيد فأكثر منه، فأخذته حمى حادة فتوفى منها. وكان مولده [فى] جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأربعمائة، فكان عمره ثمانياً(٣) وثلاثين سنة وستة أشهر. وكان ملكه نحو عشرين سنة.

وكان أحسن الناس صورة ومعنى (١٣ — أ) ويكفيه أن من جملة حسناته، نظام الملك، وكانت سعادتهما متقارنة(٤). حكى لى والدى رحمه الله تعالى — ثم إنى(٥) رأيت ما حكاه بعد ذلك مذكوراً فى كتب التواريخ(٦) — قال: إن السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك فى شىء فعله بعض أولاده، وقال له فى جملة عتبه: إن كنت شريكى فى الملك فعرفنى، وإن كنت وزيرى فاسلك ما يسلكه الوزراء وإلا أطبقت دواتك وعزلتك. فقال للرسول: قل للسلطان عنى، إن كنت ما تعلم أننى شريكك فاعلم، واذكر ما فعلت معك حين خرج عليك أعمامك وإخوتك ونازعوك فى الملك وكادوا يقهرونك، فتوليت ردهم بنفسى، وقمت المقام الذى تعلمه حتى صفا لك الملك والسلطنة، وذكر له عدة مواقف جزع فيها ملكشاه وخاف، فردها نظام

---

(١) بالأصل: وزر. (٢) بالأصل: خمسة. (٣) بالأصل: ثمانية. (٤) بالأصل: متقاربة.
(٥) بالأصل: إن. (٦) لعل ابن الأثير يقصد كتاب «المنتظم» لابن الجوزى. فخبر مقتل ملكشاه، كما جاء فى الكامل (ح/٨/ص/١٦٣) يطابق خبر ابن الجوزى (ح/٩/ص/٦٩) ويتفق معه فى كثير من المعلومات والألفاظ.

الملك بالرأى والحرب، فأين كان هذا [من] كلامه ذلك الوقت. وأما قوله إنه يطبق (١٣ — ب) الوقت دواتى(١)، فقل له : إعلم أن هذه الدواة متعلقة بزر قلنسوته التى على رأسه ، فمتى أطبق هذه سقطت تلك. فيقال إن هذا كان سبب قتل نظام الملك، وأن السطان وضع ذلك الديلمى حتى قتله ، وصح قول نظام الملك، لما طبقت دواته لم يعش السلطان غير خمسة وثلاثين يوماً ومات. وكان هذا كالكرامة لنظام الملك.

وكانت(٢) مملكة السلطان ملكشاه قد(٣) اتسعت [اتساعا] عظيما ، أطاعته(٤) البلاد جميعها وملكها ، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام ، وأطاعه اليمن والحجاز ، وكان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة ، وأطاعه صاحب طراز(٥)، وأسبيجاب(٦) ، وكاشغر(٧) ، وبلاساغون(٨) وغيرها من الممالك البعيدة ، وملك(٩) سمرقند(١٠) وجميع ما وراء النهر(١١) . ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه ، فلما قارب كاشغر (١٤ — أ) هرب صاحبها منه فسار فى طلبه ، ولم يزل حتى ظفر به وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان .

وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثيرا ، منها ماأصلحه وعمله من المصانع(١٢) بطريق مكة ، وحفر من الأنهار ، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وبنى الجامع الذى بظاهر بغداد عند دار السلطنة . وهو الذى بنى منارة القرون (١٣) فى طرف البر مما يلى الكوفة بمكان يعرف بالسبيع(١٤)، وبنى مثلها بسمرقند أيضاً . ولما مات ضبطت زوجته [تركان(١٥)] خاتون العسكر ، وكتمت موته فلم يلطم أحد وجها ، ولم يشق عليه ثوب ، ولم يسمع بسلطان مثله توفى فلم يصل أحد عليه . ولم يجلس أصحابه للعزاء سواه . وأرضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدهما محمود ، وعمره أربع سنين ، وسارت إلى أصفهان .

---

(١) بالأصل : دوآى . (٢) بالأصل : فكانت . (٣) بالأصل : وقد . (٤) بالأصل : اطاعة . (٥) : طراز : فى (ياقوت) : قال أبو سعد ، بالفتح ، ورواه غيره بالكسر وآخره زاى إجماعاً ، بلد قريب من أسبيجاب من ثغور الترك . (٦) أسبيجاب : فى (ياقوت) : أسفيجاب ، بالفتح ثم السكون وكسر الفاء (نلاحظ أنه ذكرها فى « طراز » بالباء) وياء ساكنة وجيم وألف وباء موحدة . اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ماوراء النهر فى حدود تركستان ، ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة . (٧) كاشغر : فى (ياقوت) : مدينة وقرى ورساتيق ، يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحى . وهى فى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون .

(٨) بلاساغون : فى (ياقوت) : السين مهملة والغين معجمة . بلد عظيم فى ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر . (٩) بالأصل : والملك . (١٠) سمرقند : فى (ياقوت) : بفتح أوله وثانيه . ويقال لها بالعربية «سمران» . بلد معروف مشهور بما وراء النهر، وهو قصبة الصغد ، مبنية على جنوبى وادى الصغد مرتفعة عليه . وينقل ياقوت عن الأزهرى : بناها شمر أبو كرب ، فسميت « شمركنت » ، فأعربت فقيل : سمرقند ، هكذا تلفظ به العرب فى كلامها وأشعارها . (١١) ما وراء النهر : فى (ياقوت) : يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان . فما كان فى شرقيه يقال له بلاد الهياطلة ، وفى الإسلام سموه ما وراء النهر . وما كان فى غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم . وخوارزم ليست من خراسان إنما هى إقليم برأسه . وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأكثرها خيراً . (١٢) المصانع : هى الصهاريج التى يخزن فيها الماء . ففى الكامل (ﺣ/٩/ص/٨٨) أن جمال الدين وزير الموصل ، المتوفى سنة ٥٥٩ ، «عمل بعرفات مصانع للماء وأجرى إليها الماء من نعمان ...» (١٣) منارة القرون : سميت هكذا لأن السلطان ملكشاه وضع فيها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى صادها فى هذه المنطقة عندما خرج لتوديع الحجاج فى إحدى السنين . (الروضتين ، ﺣ/١/ص/٥٦) . (١٤) بالأصل : السبيعى . والتصحيح من (ياقوت) ، حيث يذكر : محلة السبيع . بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء وآخره عين مهملة . وهى المحلة التى كان يسكنها الحجاج بن يوسف الثقفى . وهى مسماة بقبيلة السبيع ، رهط أبى إسحاق السبيعى . (١٥) الإضافة من (الكامل ﺣ/٨/ص/١٦٢) .

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه — وهو الأكبر — فطلب السلطنة فأخذها (١٤ — ب) وتوفى محمود. ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاه، فنازع أخاه بركياروق، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت نحو اثنتي عشرة سنة، إلى أن توفى بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد(١).

وفى مدة تلك الحروب ظهر الفرنج إلى الساحل، وملكوا أنطاكية(٢) أولا ثم غيرها من البلاد، وقد استوفينا ذلك فى المستقصى فى التاريخ.

ذكر صلح قسيم الدولة آقسنقر

وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان وما شهده من الحروب معه(٣)

قد ذكرنا أن السلطان ملكشاه كان قد أقطع أخاه تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس وغيرها، فلما توفى ملكشاه واختلف أولاده وهم صغار، جمع تاج الدولة العساكر وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة آقسنقر، فعلم قسيم الدولة أن أولاد صاحبه صغار، وأن الملك لا يستقيم لهم لصغرهم (١٥ — أ) وللخلف الواقع بينهم، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة فصالحه وخطب له بحلب، وراسل نور الدين [بوزان(٤)] صاحب حران وياغى سيان صاحب أنطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة حتى ينظروا ما يكون من أولاد ملكشاه، ففعلوا ذلك، وساروا معه نحو الرحبة فملكها، وخطب لنفسه بالسلطنة فى محرم سنة ست وثمانين وأربعمائة.

ثم سار إلى نصيبين فحصرها، فسبه أهلها ففتحها عنوة وقهراً، وقتل بها خلقاً كثيراً، واستناب [بها] محمد بن شرف الدولة العقيلي.

وراسل ناصر الدولة إبراهيم بن قريش بن بدران — وهو صاحب الموصل حينئذ — يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد، فامتنع عليه، وسار كل واحد منهما إلى صاحبه، فالتقيا بالمضيع من بلد الموصل، وكان على ميمنة تاج الدولة، قسيم الدولة آقسنقر، وعلى ميسرته بوزان، فحملت العرب على بزان فانهزم، وحمل قسيم الدولة (١٥ — ب) على العرب مما يليه فهزمهم، وأسر إبراهيم وجماعة من أمراء العرب، فقتلهم تاج الدولة صبراً وملك بلادهم جميعها، الموصل وغيرها.

وسار فى ربيع الآخر من هذه السنة إلى ميافارقين(٥) فملكها وسائر بلاد ديار بكر.

---

(١) عن خلاف البيت السلجوقى بعد وفاة السلطان ملكشاه، أنظر، الكامل، (ح/٨/ص/١٦٤، وما بعدها).

(٢) كانت إغارة الصليبيين على الشام سنة ٤٩١، واستولوا على أنطاكية فى نفس السنة.

(٣) لم يذكر ابن الأثير خبر الخصومة بين قسيم الدولة وتاج الدولة تتش فى هذا الكتاب، وإنما ذكره فى الكامل (ح/٨/ص/١٦٠) فى أخبار سنة ٤٨٥، تحت عنوان: «ذكر استيلاء تتش على حمص وغيرها من ساحل الشام».

(٤) الإضافة من الكامل (ح/٨/ص/١٦٧). وصلة قسيم الدولة ببوزان صلة قديمة، فقد كان كل منهما من مماليك السلطان ملكشاه. (ابن خلكان، ح/١/ص/٢٥٢ — طبعة محمد فريد رفاعى). ولقب بوزان عند ابن واصل (ح/١/ص/١٩): مجاهد الدولة.

(٥) ميافارقين: فى (ياقوت): بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء، وبعد الألف راء وقاف مكسورة وياء ونون. أنها بالقرب من آمد، وأشهر مدينة بديار بكر. (ح/٨/ص/٢١٤ / ٢١٦).

ثم سار منها إلى أذربيجان(١) فقصده الملك ركن الدين بركياروق — وكان قد ملك كثيراً من البلاد منها :الرى وهمذان وما بينهما — فلما تقارب العسكران ، قال قسيم الدولة لبوزان : إنما أطعنا هذا الرجل لننظر ما يكون من أولاد(٢) صاحبنا ، والآن فقد ظهر بركياروق ، والرأى والمروءة تقتضى بأننا نقصده ونكون معه ، ففارقا(٣) تاج الدولة وسارا إلى بركياروق وصارا معه ، فلما رأى تاج الدولة ذلك ، رجع إلى الشام ، وأقام قسيم الدولة عند بركياروق ، فخرج عليه خاله إسماعيل بن ياقوتى ثم أطاعه ، فخلا به قسيم الدولة وبوزان وبسطوه فى الحديث (١٦ — أ) فأعلمهم أنه يريد السلطنة وقتل بركياروق ، فوثبا عليه فقتلاه محافظة على صاحبهما ، ثم أمرهما ركن الدين بالعود إلى الشام ليمنعا(٤) تاج الدولة عن البلاد إن قصدها فعادا .

ذكر وفاة أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله وولاية ابنه المستظهر بالله

فى المحرم(٥) من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، توفى الإمام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين رضى الله عنه فجأة . واسمه أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله . وعمره تسع(٦) وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام .

وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة(٧) أشهر .

وأنشأ ببغداد عدة محال ، منها : البصلية ، والبساتين التى كانت بباب الأزج ، والحلبة ، والأجمة ، ودرب القيار ، والمقتدية ، وخرابة ابن جردة ، والخاتونية(٨) .

وهو استوزر فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جهير ، وهو من الموصل .

وكانت(٩) خلافته بعهد من جده القائم بأمر الله (١٦ — ب) أمير المؤمنين ، وأمه تركية . وكان لين الجانب ، كثير الحلم . وعاش وادعا مرفها .

وتوفى وقد علم على منشور السلطان بركياروق بالسلطنة(١٠) . وكتمت القهرمانة شمس النهار موته ، وأحضرت الوزير وأعيان الدولة وجددت البيعة لولده أبى العباس أحمد المستظهر بالله أمير المؤمنين ، فلما بايعوا أظهرت وفاة المقتدى .

ولما بويع المستظهر بالله أرسل إلى السلطان بركياروق لأخذ البيعة — وكان ببغداد — فأنفذ بركياروق وزيره عز الملك(١١) بن نظام الملك والأمير برسق(١٢) وكوهرائين شحنة بغداد ، فبايعوا ،

---

(١) بالأصل : ادربجان . (والاسم محرف فى النص باستمرار) . (٢) بالأصل : اولاده .

(٣) فى ابن العديم (ح/٢/ص/١٠٨) ، أن سبب انفصال قسيم الدولة وبوزان عن تاج الدولة هو تقريبه ياغيسيان وميله إليه . وقيل إنه لم يولهما شيئاً من البلاد التى فتحها . فتركاه لهذا السبب . (٤) بالأصل : ليمنعا .

(٥) فى الكامل (ح/٨/ص/١٧٠) ، أن وفاته كانت فى يوم السبت خامس عشر المحرم . (٦) فى الكامل (ح/٧/ص/١٧٠) ، ثمان وثلاثون . (٧) فى الكامل (ح/٨/ص/١٧٠) ، وثمانية أشهر غير يومين . وما فى النص أصح لأن المقتدى بويع بالخلافة يوم الخميس ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ ، وتوفى يوم السبت ١٥ محرم سنة ٤٨٧ . (٨) فى الكامل (ج/٨/ص/١٧٠) والخاتونيتين . (٩) بالأصل : وكانة .

(١٠) بالأصل : وبالسلطنة. (١١) بالأصل: وعز الملك . (١٢) بالأصل : يرسق ، (والتصحيح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/٦٥) .

ثم بايع هو ، فلما تمت بيعة السلطان أحضر الغزالى(١) والشاشى(٢) وغيرهما من العلماء فبايعوا . ثم أرسل إلى غزنة ، وما وراء النهر ، وكرمان ، والشام لأخذ البيعة .

ولما استخلف(٣) أقر عميد الدولة بن جهير على وزارته .

ذكر نسب المستظهر بالله(٤)

هو المستظهر بالله (١٧ — أ) أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبى جعفر عبدالله بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الأمير أبى أحمد الموفق بن المتوكل على الله أبى الفضل جعفر بن المعتصم أبى إسحاق بن محمد الرشيد أبى جعفر هارون بن المهدى أبى عبد الله محمد بن المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم ، بينه وبين العباس عشر خلفاء ووليا عهد ، وأربعة لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد .

فأما الخلفاء : فالمقتدى ، والقائم ، والقادر ، والمقتدر ، والمعتضد ، والمتوكل ، والمعتصم ، والرشيد ، والمهدى ، والمنصور .

وأما وليا(٥) العهد : فالذخيرة محمد بن القائم — وهو والد المقتدى بأمر الله — (١٧ — ب) والموفق الناصر لدين الله أبو أحمد بن المتوكل — وهو جد المقتدر بالله — .

وأما الذين لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد : فإسحاق ـ والد القادر بالله ـ ، ومحمد — والد المنصور — ، وأبوه على ، وعبدالله بن العباس .

وقد ولى الخلافة من بنى العباس من غير آباء المستظهر سبعة عشر(٦) خليفة ، وهم : أبو العباس عبدالله بن محمد السفاح(٧) — أول خلفاء بنى العباس — ، والهادى موسى بن المهدى ، والأمين محمد والمأمون عبد الله ابنا الرشيد ، والواثق — وهو أخو المتوكل — . ثم المنتصر والمعتز والمعتمد أولاد المتوكل . ثم المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم — وهو ابن أخى المتوكل — . ثم المهتدى محمد بن الواثق ابن المعتصم . وولى المكتفى على بن المعتضد بالله وأخوه القاهر بالله . ثم ولى الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وأخوه المتقى بالله أبو إسحاق إبراهيم . ثم ولى المستكفى بالله عبد الله (١٨ — أ) ابن المكتفى بالله بن المعتضد بالله . ثم ولى المطيع لله أبو القاسم الفضل ، وولده الطائع لله أبو بكر عبد الله .

---

(١) هو الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الشافعى ، توفى سنة ٥٠٥ . (أنظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ح/٤/ص/١٠) . (٢) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين شيخ الشافعية ، المعروف بالمستظهرى . توفى سنة ٥٠٧ . (أنظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ح/٤/ص/١٦). (٣) بالأصل : استخلف .

(٤) : أسقط « دى سلين » نسب الخليفة المستظهر بالله فى طبعته . وقد أشار فى (ص/٢٨) أنه حذفه لأنه لاجديد فيه ، ولا يتصل فى شىء بتاريخ الحروب الصليبية . (٥) بالأصل : ولى . (٦) بالأصل : سبع عشرة .

(٧) بالأصل : ابن السفاح (والتصحيح من شذرات الذهب ، ح/١/ص/١٩٤) .

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه

فى جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتل قسيم الدولة آقسنقر وبوزان صاحب حران . وكان سبب قتلهما ، أن تاج الدولة تتش لم يزل يجمع العساكر بعد عوده من أذربيجان إلى الآن، فكثر جمعه، وعظم حشده ، وسار عن دمشق نحو حلب ، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوغا(١) — وهو الذى صار فيما بعد صاحب الموصل — فلما أجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق ، تقدموا نحوه والتقوا برويان [على] نهر سبعين(٢) بالقرب من تل السلطان ، بينه وبين حلب نحو ستة فراسخ ، واقتتلوا واشتد القتال ، فخامر بعض عسكر قسيم الدولة وانهزموا (١٨ — ب) وتبعهم الباقون، وثبت قسيم الدولة فأخـــذ أسيرا وأحضر عند تاج الدولة ، فقال له : لو ظفرت بى ما كنت صنعت . قال : كنت أقتلك . قال : فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم على فقتله صبرا . وسار نحو حلب ، وكان قد دخل إليها الأمير كربوقا وبوزان لحفظها(٣) منه ، ولج فى قتالها حتى ملكها وأخذهما أسيرين ، وأرسل إلى حران والرها ليملكهما — وكانتا لبزان — فامتنع من بهما(٤) من التسليم إليه ، فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين . وأما كربوقا فإنه أرسله إلى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة .

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظا لهم . وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وأمن(٥) واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية فى بلاده ، متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس ، غرم أهلها جميع (١٩ — أ) ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته .

وأما وفاؤه وحسن عهده فكفاه(٦) فخرا أنه قتل فى حفظ بيت صاحبه وولى نعمته .

ذكر حال عماد الدين(٧) زنكى بعد [قتل] والده رضى الله عنهما

لما قتل قسيم الدولة آقسنقر ، لم يخلف من الأولاد غير ولد واحد،وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكى ، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين ، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه ، وفيهم زين الدين على ، وهو صبى أيضا .

ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بحمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتوجه إلى حران — وقد اجتمع معه عسكر صالح — فملكها . ثم صار إلى نصيبين فملكها أيضا .

---

(١) جاء رسمه أيضاً فى النص : كربوقا. وكل من الرسمين مستعمل عند المؤرخين القدامى .
(٢) بالأصل : برويان ونهر سبعين . (٣) بالأصل : لحفظها . (٤) بالأصل بها .
(٥) بالأصل : أمر . (والتصحيح من الكامل ، حـ/٨/ص/١٧١) . (٦) بالأصل : فكفيه .
(٧) بالأصل : ذكر حال ولده عماد الدين ... (وقد حذف المحقق اللفظ: ولده ، لعدم ضرورته فى العنوان) .

ثم إلى الموصل فملكها(١) وأزال عنها على بن شرف الدولة العقيلى، (١٩ — ب) فإنه كان مالكا لها. وسار نحو ماردين فملكها أيضا .

وعظم شأنه وهو فى طاعة ركن الدين بركياروق ، فلما ملك البلاد أحضر مماليك(٢) قسيم الدولة آقسنقر، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكى . وقال : هو ابن أخى وأنا أولى الناس بتربيته ، فأحضروه عنده ، فأقطعهم الإقطاعات السنية وجمعهم على عماد الدين زنكى ، واستعان بهم فى حروبه ، وكانوا من الشجاعة فى أعلى درجاتها ، فلم يزالوا معه .

ثم أن كربوقا(٣) توجه إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان ، فاستنجد صاحبها بمعين الدولة سقمان بن أرتق(٤) — جد صاحب الحصن يومناهذا(٥) — ، فجمع من التركمان خلقا كثيرا وسار نحو آمد وتصاف هو وقوام الدولة كربوقا ، فرأى كثرة التركمان فخافهم ، فأخذ عماد الدين زنكى وألقاه بين مماليك والده ، وقال لهم : قاتلوا عن ابن صاحبكم ، فحينئذ اشتد قتالهم وحمى الوطيس(٦) فهزموا سقمان وأسروا ياقوتى (٢٠ — أ) ابن أخيه ، فحبسه كربوقا ثم أطلقه . وكان هذا أول مصاف حضره الشهيد عماد الدين بعد قتل والده .ولم يزل عماد الدين [مع] كربوقا إلى أن توفى(٧) سنة أربع وتسعين وأربعمائة(٨) .

وملك بعده موسى التركمانى(٩) من أصحابه ، فلم تطل أيامه وقتل .

وملك الموصل شمس الدولة جكرمش(١٠) — وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه — وأخذ الشهيد عماد الدين وقربه وأحبه ، واتخذه ولدا لمعرفته بمكانة والده ، فبقى معه إلى أن قتل سنة خمسمائة .ولاجرم أن الشهيد قدس الله روحه ، رعى هذا لجكرمش(١١) لما ملك الموصل وغيرها من البلاد ، فانه أخذ ولده ناصر الدين كورى(١٢) ، فأكرمه وقدمه وأقطعه إقطاعا كثيرا ، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهرا .

ثم ملك الموصل بعد جكرمش، جاولى سقاووا(١٣) فاتصل به عماد الدين زنكى، وقد كبر فظهرت عليه أمارات السعادة (٢٠ — ب) والشهامة ، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد ، وكان

---

(١) فى الكامل (حـ/٨/ص/١٨٠) ، أنه ملكها فى ذى القعدة سنة ٤٨٩ . (٢) بالأصل : مماليك .
(٣) بالأصل : أمر . (٤) كان سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وآمد من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٤٩٨ (زامباور) . وقد توفى سنة ٤٩٨ . (انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ج / ٣ / ص ٤٠٩) . (٥) كان صاحب حصن كيفا فى سنة ٦٠٧ — وهى السنة التى ألف فيها ابن الاثير كتابه هذا — هو ناصر الدين محمود بن محمد الأرتق (٥٩٧ — ٦١٩ (زامباور) . (٦) . بالأصل : القطيس . (٧) بالأصل توفا . (٨) فى الكامل (ج / ٨ / ص / ٢١٠) أن كربوقا توفى فى ذى القعدة سنة ٤٩٥ . (٩) : كان موسى التركمانى نائبا عن كربوقا بحصن كيفا ، فلما مات كربوقا كاتبه أعيان الموصل ليسلموا إليه البلد ، فسار إليها وقتل سنقرجه الذى عهد إليه كربوقا بالموصل عند وفاته ، وتسلم البلد . وقد قتل موسى فى نفس السنة (الكامل ، ج / ٨ / ص / ٢١٠) .
(١٠) كان جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر ، فقاتل موسى التركمانى وهزمه ، واستولى على الموصل بعد أن قتل موسى بيد بعض الغلمان القوامية . (الكامل ، ج / ٨ / ص / ٢١١) . (١١) بالأصل : الجكرمش .
(١٢) بالأصل : السورى . (والتصحيح من الروضتين ، ج/ ١/ص / ٢٧) . (١٣) ملك جاولى الموصل من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٠٢ .

جاولى قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك رضوان . فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود [بن التونتكين(١)] وأقطعه إياها سنة ثنتين(٢) وخمسمائة ، فلما اتصل الخبر بجاولى فارقه الشهيد وغيره من الأمراء ، وفيهم الأمير التونتاش الأبرى ، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك أكرمه وأعظمه وأكثر إقطاعه . فحكى لى والدى قال : كنت أراه إلى جانب المولى الشهيد لا يتقدم عليه أحد من الأمراء ، وله عقب بالموصل إلى الآن فى خدمة الدولة القاهرة(٣).

فلما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له ذلك ، مضافاً إلى منزلة أبيه ، ولما رأى منه من العقل والشجاعة ، فزاد فى إقطاعه وشهد معه حروبه . فمما بلغنى منها ، أن الأمير مودوداً سار إلى الغزاة بالشام(٤) ففتح فى طريقه قلاعاً من شبختان(٥) كانت للفرنج (٢١ — أ) وقتل من بها منهم ، ثم سار إلى الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها ، وكانت عقيلة ومكرمة وفضيلة قد ادخرها الله سبحانه وتعالى للمولى الشهيد .

فاستوضحت سبل الآمال حايدة ... عن الملوك إلى أعلاهم حسبا
أبهرهم(٦) فضلا، أغمرهم(٧) بذلا ... أفخرهم(٨) [أبداً] فعلا ومنتسبا
أشم(٩) أشوس مضروباً(١٠) سرادقه ... على الممالك مرخى(١١) دونها الحجبا
ممتنع(١٢) العز ، معمور الفناء [به] ... مظفر العزم ، والآراء منتخبا
من معشر طالما شبوا(١٣) بكل وغى ... ناراً يظل(١٤) أعاديهم لها حطبا

ثم إن الأمير مودودا رحل عنها وعبر الفرات(١٥) إلى الشام ، فحصر تل باشر(١٦) خمسة وأربعين يوماً ولم يبلغ منها غرضاً . ثم سار عنها إلى معرة النعمان(١٧) فحصرها ، وجاء إليه الأمير طغدكين(١٨) صاحب دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره خاف أن يأخذ منه دمشق(١٩) ، فشرع فى

---

(١) الإضافة من « الكامل (ح/٨/ص/٢٥٢) (٢) بالأصل : ستين .
(٣) أى دولة الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل (٦٠٧ — ٦١٥) .
(٤) سنة ٥٠٥ (الكامل ، ح/٨/ص/٢٦٢) (٥) بالأصل : شختان (والاسم محرف بالأصل باستمرار)
(٦) بالأصل : ثم أبهرهم . (٧) بالأصل : واغمرهم . (٨) بالأصل : وأفخرهم . (٩) بالأصل : اشم .
(١٠) بالأصل : مصروبا . (١١) بالأصل : مرخ . (١٢) بالأصل : ممتع . (١٣) بالأصل : شبق .
(١٤) بالأصل : بطل . (١٥) بالأصل : الفراة . (ويرد الاسم بالأصل بالتاء المربوطة باستمرار) .
(١٦) تل باشر : فى (ياقوت) : قلعة حصينة ، وكورة واسعة فى شمالى حلب ، بينها وبين حلب يومان ، وأهلها نصارى وأرمن ، ولها ربض وأسواق ، وهى عامرة آهلة . (١٧) معرة النعمان : فى (ياقوت) : « مدينة كبيرة قديمة مشهوره من أعمال حمص ، وتقع بين حلب وحماة » . وكان حصار تل باشر ومعرة النعمان سنة ٥٠٥ . (الكامل ، ح/٨/ص/٢٦٢) . (١٨) هو ظهير الدين طغدكين . كان من أمراء تاج الدولة تتش السلجوقى صاحب دمشق ، وزوجه تتش بأم ولده دقاق ، ثم صار أتابكا لدقاق . ولما مرض دقاق مرض الموت أوصى بولاية طغدكين على دمشق وحضانة ابنه الصغير تتش (الثانى) وتوفى طغدكين سنة ٥٢٢ . (مرآة الزمان ، ج/٨/ص/١١) ، (شذرات الذهب ، ح/٤/ص/٦٥) . ويرسم ابن الأثير وغيره من المؤرخين اسم طغدكين : طغتكين (بالتاء المثناة) وكل من الرسمين مستعمل عند المؤرخين . (١٩) فى الكامل (ح/٨/ص/٢٦٣) : « ونزل على الأمير مودود ، فاطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق » .

صلح الفرنج سراً من مودود فصالحوه ، وكانوا قد ضعفوا (٢١ — ب) عن قتال المسلمين لكثرتهم فإن السلطان محمداً ، كان قد أمد الأمير مودوداً بعسكر مقدمهم الأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وغيرها ، فمرض سكمان واشتد مرضه فعاد ، فأدركه الموت ببالس(١)، فأخذ أصحابه تابوته وقصدوا بلاده ، فاعترضهم إيلغازى(٢) بن أرتق ليأخذهم ، فصافوه(٣) وجعلوا تابوت سكمان فى القلب كما كان حياً ، وقاتلوا فظفروا ، وانهزم إيلغازى وعادوا إلى بلادهم .

فلما رأى مودود تفرق العساكر ، وصلح طغدكين [للفرنج] ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج ، ولم يكن فى عسكره من ظهر اسمه غير الشهيد ، وأذن لعسكره فى العود والإستراحة ثم الإجتماع لقتال الفرنج فتفرقوا .

وراسل(٤) [مودود] طغدكين وأصلحه وجمع العساكر وعاد إلى الشام ، وحضر عنده أتابك طغدكين وساروا جميعاً إلى طبرية(٥) وحصروها وقاتلوها قتالا شديداً(٦) . وظهر(٧) من أتابك(٨) الشهيد رضى الله عنه شجاعة لم يسمع بمثلها (٢٢ — أ) فمنها : أنه كان فى نفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده ، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه ، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ويتقدم باقى العسكر فيملكون البلد ، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالما ، فعجب الناس من إقدامه أولا ومن سلامته آخراً ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج .

وجمع الفرنج فرسانهم ورجالتهم وملوكهم وقمامصتهم ، فيهم الملك بردويل(٩) صاحب القدس، وعكا(١٠) ، وصور(١١) وغيرها ، وجوسلين صاحب تل باشر والرها وغيرها ، فتصافوا ثالث

---

(١) بالس : فى (ياقوت) : بلدة بالشام بين حلب والرقة ، بينها وبين الفرات أربعة أميال . (٢) هو إيلغازى ابن أرتق بن أكسب ، صاحب ماردين . توفى سنة ٥١٦ . وكان له جهاد مشكور فى قتال الصليبيين . ترجمته فى شذرات الذهب (ح/٤/ص/٤٨ ، الكامل ح/٨) وأخباره فى الكامل موزعة على السنين . (٣) بالأصل : فصافقوه .

(٤) بالأصل : وأرسل . (٥) طبرية : فى (ياقوت) : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية ، وهى فى طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها . وهى من أعمال الأردن فى طرف الغور . بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس ، وبينها وبين عكا يومان . وهى مستطيلة على البحيرة ، عرضها قليل حتى تنتهى إلى جبل صغير ، فعنده آخر العمارة . (٦) كانت موقعة طبرية سنة ٥٠٧ (الكامل ، ح/٨/ص/٢٦٦)

(٧) بالأصل : ظهر . (٨) المقصود به عماد الدين زنكى . وقد لقب بهذا اللقب ، لقيامه على تربية الملك ألب أرسلان بن السلطان محمد السلجوقى ، وذلك حين ولاه السلطان محمود إمرة الموصل سنة ٥٢١ . وأتابك . لفظ تركى مركب من مقطعين : « آتا » أو « آطا » ومعناه « أب » و« بك » ومعناه « أمير » (صبح الأعشى، ح/٤/ص١٨) فاللقب معناه « الأب الأمير » . (٩) بردويل : ذكره ابن الأثير فى الكامل (ح/٨/ص/٢٦٦) ، بغدوين.

(١٠) عكا : فى (ياقوت) : عكة . بفتح أوله وتشديد ثانيه . اسم بلد على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) من عمل الأردن . وينقل ياقوت عن البشارى : أنها مدينة حصينة ، ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون — وقد رأى « صور » واستدارة الحائط على مينائها — فأحب أن يتخذ لعكة مثل تلك الميناء . (١١) صور : فى (ياقوت) : بضم أوله وسكون ثانيه وآخره راء . مدينة مشهورة ، كانت من ثغور المسلمين . وهى مشرفة على بحر =

[عشر(١)] محرم [سنة ٥٠٧(١)] عند بحيرة طبرية ، فظفر المسلمون وانهزم الفرنج لعنهم الله ، ووصلوا إلى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به ولم يكن فيه سعة ، فتبعهم(٢) (٢٢—ب) المسلمون. فلما كان من الغد وصل إلى الفرنج عسكر قوى من أنطاكية وغيرها ، فقويت نفوسهم واحتموا ، وحصرهم المسلمون وهم على رأس جبل [غرب طبرية(٣)] والمسلمون فى الغور ، وصابروهم ستة وعشرين يوماً ، واشتد الحر على المسلمين لمقامهم فى الغور ، فرحلوا نحو بيسان(٤) ، فنزل إليهم الفرنج وتواقفوا خمسة أيام ، وانقطعت المادة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا إلى مرج الصفر ، وأذن الأمير مودود للعسكر فى الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه فى الربيع ، فلما تفرقوا دخل دمشق(٥) ، وأقام بها ، فخرج يوماً يصلى الجمعة ، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طغدكين ، وثب عليه إنسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات(٦) ، وكان صائماً فحمل إلى دار طغدكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لا لقيت الله إلا صائماً ، فإننى ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت . وتوفى(٧) فى بقية (٢٣ — أ) يومه رحمه الله . فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغدكين فوضع عليه من يقتله .

وكان خيراً عادلا حسن السيرة . فحدثنى والدى رحمه الله تعالى قال : كتب ملك الفرنج إلى طغدكين يقول له : إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها فى بيت معبودها ، لحقيق(٨) على الله أن يبيدها(٩).

فلما قتل الأمير مودود ، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعوداً إلى الموصل ، ثم إنه جهز آقسنقر البرسقى فى العساكر وسيره إلى قتال الفرنج . وكتب [إلى] عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه ، فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين زنكى ، وكان يعرف فى عساكر العجم بزنكى الشامى(١٠) ، وكان قد ظهر عنه من الشجاعة ما لا يوصف ، لاسيما بعد ما فعله بطبرية ، فلما اجتمعت العساكر على البرسقى ، سار إلى الرها فى خمسة عشر ألف فارس ، فحصرها(١١) وقاتل من بها من الفرنج (٢٣ — ب) والأرمن ، فضاقت الميرة عن العسكر ، فرحل إلى سميساط(١٢) ، وهى أيضاً للفرنج ، فأخرب بلدها وبلد

= الشام داخلة فى البحر مثل الكف على الساعد ، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الجانب الرابع ، الذى منه شروع بابها . وهى حصينة جداً ركينة ، لا سبيل إليها إلا بالخذلان . وهى معدودة فى أعمال الأردن ، بينها وبين عكة ستة فراسخ ، وهى شرقى عكة .　(١) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٢٦٦) .

(٢) بالأصل : تتبعهم .　(٣) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٢٦٦) .　(٤) بالأصل : نيسان .

(٥) فى الكامل (ج/٨/ص/٢٦٦) أن مودودا دخل دمشق فى الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٠٧ .

(٦) بالأصل : جرحات .　(٧) فى ابن القلانسى (ص/١٨٧) أنه توفى فى يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر من السنة .　(٨) بالأصل : الحقيق .　(٩) بالأصل : يبدها .

(١٠) عرف عماد الدين زنكى بذلك ، تمييزا له عن سمى له ، هو زنكى بن برسق صاحب همذان . (الكامل ح/٨/ص/٢٦٢)　(١١) كان ذلك فى ذى الحجة سنة ٥٠٨ . (الكامل ، ح/٨/ص/٢٦٩).　(١٢) سميساط: فى (ياقوت) : بضم أوله وفتح ثانيه ثم ياء مثناة من تحت ساكنة وسين أخرى ثم بعد الألف طاء مهملة ، مدينة على شاطىء الفرات فى طرف بلاد الروم على غربى الفرات ، ولها قلعة فى شق منها ، يسكنها الأرمن ،

سروج(١) ، وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكى فى هذه المواقف كلها بلاء حسناً ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وما ظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقى إلى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة [ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله(٢)]

قال : وفيها غرقت سنجار(٣) من سيل(٤) المطر وهلك منها خلق كثير . ومن أعجب ما يحكى أن السيل(٥) حمل مهداً فيه طفل ، فعلق المهد فى شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها أيضاً زلزلت إربل(٦) وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

(٢٤ — أ) ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه

وجلوس ولده مغيث الدين محمود فى السلطنة

فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة(٧) وخمسمائة ، توفى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه . وكان مرضه فى شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه السل . فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلدا ، وكانت الأراجيف(٨) قد كثرت عليه ، وأكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك . فلما كان فى اليوم الثالث والعشرين من ذى الحجة أيس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محمودا — وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة — فلما رآه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره أن يجلس على تخت السلطنة وينظر فى أمور الناس ، فقال : إنه يوم غير مبارك — يعنى من طريق النجوم — . فقال : صدقت ، ولكن على أبيك ، وأما عليك فمبارك هو (٢٤ — ب) بالسلطنة . فخرج وجلس على التخت ، ولبس التاج . وتوفى السلطان محمد من ليلته ، وأظهرت وفاته من الغد ، وقرئت وصيته على ولده يأمره بالعدل والإحسان . وكان مولد السلطان محمد

---

(١) سروج : فى (ياقوت) : بلدة قريبة من حران من ديار مضر . (٢) الإضافة من الروضتين (ح/١/ص/٢٨). وأبو شامة نقل حرفياً من النص خبر مقتل مودود حتى خبر الزلزلة . (٣) سنجار : فى (ياقوت) : مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وهى فى لحف جبل عال . وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام .

(٤) بالأصل : سبيل . (٥) بالأصل : السبيل . (٦) إربل : فى (ياقوت) : قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى فضاء من الأرض واسع بسيط . ولقلعتها خندق عميق ، وهى فى طرف من المدينة ، وسور المدينة ينقطع فى نصفها . وهى على تل عال من التراب عظيم واسع الرأس . وفى هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة . وهى شبيهة بقلعة حلب إلا أنها أكبر وأوسع . وهى بين الزابين . وتعد من أعمال الموصل ، وبينهما مسيرة يومين .

(٧) بالأصل : أحد عشرة . (٨) بالأصل : الأراجف .

ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمائة. وكان عمره سبعا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام.

وأول ما خطب له بالسلطنة ببغداد فى ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقطعت خطبته عدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار مالم يلقه أحد، إلى أن توفى أخوه السلطان ركن الدين بركيارق(١)، فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتمع الناس عليه بعد موت أخيه إثنتى(٢) عشرة سنة وستة أشهر.

وكان عادلا حسن السيرة، شجاعا. وأطلق المكوس والضرائب فى جميع البلاد. ومن عدله أنه اشترى عدة مماليك من بعض التجار (٢٥ — أ) وأمر أن يوفى الثمن من عامل خوزستان، فأوصل البعض ومطل بالباقى، فحضر التاجر مجلس الحكم، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حاله، فلما سأله عن حاجته ذكرها له، وأعلمه أنه قد حضر مجلس الحكم(٣)، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان ليطالب بماله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فعظم عليه وضاق صدره، وأمر فى الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجر، وألزمه مصادرة على ذلك لئلا يمطل هو ولا غيره بمال يحال عليهم. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركى الحضور بمجلس الحكم، ولو فعلته لاقتدى(٤) بى غيرى، ولم يمتنع أحد عن أداء الحق. وهذه الفضيلة أيضاً مما دخرها الله تعالى لهذا البيت الشريف الأتابكى، فإن الملك العادل نور الدين (٢٥ — ب) محمود بن زنكى، فعل ما ندم السلطان محمد على تركه. ولما علم الأمراء وغيرهم [أن] من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهة الظلم ومعاقبة من يفعله، إقتدوا(٥) [به]. وأمن(٦) الناس، وظهر العدل.

ثم إن السلطان محمودا أقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر(٧) حرب، انهزم فيها السلطان محمود وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، وهى من الممالك: همذان، وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق، وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل، والجزيرة، وديار مضر(٨)، وديار ربيعة، والشام، وبلد الروم الذى بيد أولاد قلج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد، ورأيت منشوره بذلك.

ولم يكن لعماد الدين فى هذه الحرب أثر، ولا شهدها ليستقصى ذكرها (٢٦ — أ) فلهذا أعرضنا عن شرحها وأشرنا إليها لتعرف.

---

(١) توفى السلطان بركيارق سنة ٤٩٨. (الكامل، ح/٨/ص/٢٣٣) (٢) بالأصل: اثنى عشر.
(٣) بالأصل: قد أحضر غلام مجلس الحكم. (والتصحيح من الروضتين ح/١/ص/٢٨). (٤) بالأصل: لاقدى.
(٥) بالأصل: اقتدو. (٦) بالأصل: من. (٧) هو السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، واسمه العربى أحمد. وقد ولى سلطنة فارس سنة ٥١٢؛ وتوفى فى ربيع الأول سنة ٥٥٢. (شذرات الذهب، ح/٤/ص/١٦١). (٨) بالأصل: ديار مصر.

ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله

وخلافة المسترشد بالله

قال . وفى سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، توفى الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله من تراقى(١) ظهرت به .

وكان عمره إحدى(٢) وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام .

وخلافته أربعا(٣) وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً .

ومضى فى أيامه ثلاثة سلاطين [من السلجوقية(٤)] خطب لهم ببغداد ، وهم : تاج الدولة تتش ، وركن الدين بركيارق بن ملكشاه ، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه .

وكان رضى الله عنه كريم الأخلاق ، لين الجانب ، مشكور المساعى ، يحب العلم والعلماء . وصنفت له التصانيف الكثيرة فى الفقه والأصول وغيرهما .

وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات ، لا يرد مكرمة تطلب منه ، كثير الوثوق إلى من يوليه الأعمال ، لا يصغى إلى (٢٦ — ب) سعاية ساع .

وكانت أيامه أيام سرور وأمن للرعية ، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره ، وإذا تعرض سلطان أو غيره إلى أذى أحدهم بالغ فى إنكار ذلك والزجر(٥) عنه .

وكان حسن الخط ، جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد ، تدل على فضل غزير(٦) وعلم واسع .

ولما توفى صلى عليه ابنه المسترشد بالله ، ودفن فى حجرة كانت له يألفها . ولما فرغ من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة ، فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية. وكان المتولى لأخذ البيعة قاضى القضاة على بن محمد الدامغانى ، وممن بايعه الشيخ أبو النجيب السهروردى ، ووعظه موعظة بليغة تتضمن العدل والإحسان .

ذكر الحرب بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود

وما أثر [عن] عماد الدين فيها

قال . لما ولى السلطان محمود السلطنة، أقر أخاه الملك مسعودا على (٢٧ — أ) الموصل مع أتابكه جيوش بك ، فبقى مطيعاً لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة ، فحينئذ خرج عن طاعته . وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة الأسدى كان فى عسكر السلطان محمد ، وقد أخذ بلد الحلة(٧) منه . فلما ملك السلطان محمود أقطعه الحلة وأعاده إليها ، فلما وصل إلى الحلة ، كاتب الأمير جيوش بك

---

(١) بالأصل : نزاف . والتراقى ، دمل يطلم فى الحلق . (النجوم الزاهرة ، حـ/٥/ص/٢١٦) (٢) بالأصل : احدا .
(٣) بالأصل : أربعة . (٤) الإضافة من الروضتين (حـ/١/ص/٢٨) . (٥) بالأصل : وانزجر .
(٦) بالأصل : غريز . (٧) الحلة : فى (ياقوت) : أنها علم على عدة مواضع ، وأشهرها حلة بنى مزيد ، وهى مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد .

وحسن له العصيان على السلطان محمود ، ووعده المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود ، وكان غرضه أن يختلفوا ، فينال من التمكن والجاه، ماناله أبوه سيف الدولة صدقة باختلاف السلطانين بركيارق ومحمد — وقد ذكرناه فى المستقصى — . وكان الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن على(١) الطغرائى(٢) الأصفهانى قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وأشار بذلك أيضاً . وكان لجيوش بك مع الموصل ، ولاية أذربيجان ، فلما شرع فى جمع الجيوش بلغ ذلك إلى السلطان محمود ، فأرسل إليه وإلى أخيه مسعود يرغبهما ويعدهما الإحسان (٢٧ — ب) إن عاودا الطاعة ، ويتهددهما إن أصرا على المعصية ، فلم يرجعا ، وقوى طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود، وأظهرا العصيان ، وخطب للملك مسعود بالسلطنة . وكان عماد الدين زنكى يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ، ويحذرهم عاقبة العصيان ، فلم يرجعا إلى قوله ، وبلغ قوله إلى السلطان فعرفه له .

ثم إن الملك مسعودا(٣) وجيوش بك سارا فى العساكر نحو السلطان ، ينتهزان الفرصة بقلة عسكره وتفرقهم ، فجمع من قرب إليه من عساكره فبلغت عدتهم نحو خمسة عشر ألف فارس ، والتقوا عند عقبة أسد آباد(٤) فى ربيع الأول ، فدام القتال بينهم إلى الليل ، ثم انهزم الملك مسعود وجيوش بك ومن معهما ، وأسر جماعة من أمراء عسكرهما والأعيان ، منهم الأستاذ أبو اسماعيل الطغرائى وزير مسعود ، فقتله السلطان وقال : قد صح عندى (٢٨ — أ) فساد اعتقاده ودينه ، وكان قد جاوز ستين سنة . وكان حسن الكتابة جيد الشعر ، فمن شعره :

تمنيت أن ألقاك فى الدهر مرة ... فلم أك فى هذا التمنى بمرزوق
سوى ساعة التوديع دامت فكم منى ... أنالت وما قامت بها آملا سوقى (٥)
فياليت أن الدهر كل زمانه ... وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود ، فإنه سار منهزما إلى مكان(٦) بينه وبين الوقعة اثنى عشر(٧) فرسخا فاختفى فيه ، وأرسل ركابيا كان معه إلى أخيه يطلب الأمان . فأرسل إليه البرسقى بأمانه وتطييب(٨) قلبه فأحضره معه عند السلطان ، فأمر الناس كلهم بلقائه وأكرمه وأحسن إليه ، ولما لقيه بكى(٩) كل واحد منهما إلى صاحبه ، واعتذر مسعود فقبل عذره وخلطه بنفسه فى كل أموره .

وأما جيوش بك فإنه سار وانتظر الملك مسعودا فلم يره ، فسار إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليمتنع بها (٢٨ — ب) فلما بلغه خبر اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود علم أنه لا مقام له ، فسار جريدة إلى السلطان فأمنه وأكرمه ، وأخذ الموصل منه وأقره على أذربيجان .

---

(١) بالأصل : الحسين ابن اسماعيل . (والتصحيح من الكامل ، شذرات الذهب ، ح/٤/ص/٤١) .
(٢) بالأصل : الطغراى . (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٨/ص/٢٩٢) . (٣) بالأصل : مسعود .
(٤) بالأصل : سد اباد . (٥) بالأصل : شوقى . (٦) فى الكامل (ح/٨/ص/٢٩٢) جبل .
(٧) بالأصل : اثنا عشره . (٨) بالأصل : ويطيب (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٨/ص/٢٩٢)
(٩) بالأصل : ابكى .

ذكر ولاية البرسقى الموصل

ثم إن السلطان أقطع آقسنقر البرسقى بلد الموصل وأعمالها ، كالجزيرة ، وسنجار ، ونصيبين وغيرها فى صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة وسيره إليها ، وأمره بحفظ عماد الدين زنكى وتقديمه والوقوف عند إشارته ، فسار إلى الموصل ، وفعل مع عماد الدين ما أمره به السلطان ، وزاد على ذلك لمكانه من العقل والشجاعة ، وتقدم(١) والده فى الأيام الركنية(٢) وكانت سيرة ملكشاه عندهم(٣) كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته .

ذكر إقطاع عماد الدين زنكى مدينة واسط (٤)

فى سنة ست عشرة وخمسمائة ، أقطع أتابك عماد الدين زنكى مدينة واسط وولى شحنكية(٥) البصرة . وكان سبب ذلك أن الأمير (٢٩ — أ) دبيس بن صدقة الأسدى صاحب الحلة ، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والأمير جيوش بك ماذكرناه ، فبلغ ذلك السلطان [محمودا(٦)] وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه إلى السلطان ، فأرسل إلى البرسقى يأمره بالإنحدار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة دبيس ، فانحدر إليها فى عساكره ومعه عماد الدين زنكى ، وسار عن بغداد نحو الحلة فلقيه دبيس عند نهر بشير ، فانهزم عسكر البرسقى من غير قتال . وسبب ذلك أنه رأى خللا فى ميسرته وبها(٧) الأمراء البكجية ، فأمر أن تلق خيمته وتنصب عند الميسرة لتقوى قلوبهم ، فحين ألقيت الخيمة رأت الميسرة ذلك فظنت الهزيمة ، فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقى . وقيل بل أعطى رقعة فيها أن جماعة [من(٨)] العسكر يريدون الفتك به ، فخاف على نفسه وساء ظنه ، وانصرف من مكانه وانهزم الناس ، وعاد إلى بغداد ثانى ربيع الآخر ، فلما انهزم البرسقى (٢٩ — ب) لم يعرض دبيس لنهر ملك ولا غيره ، وأرسل إلى الخليفة أنه على الطاعة ، ويطلب أن يخرج النواب إلى الأعمال .

---

(١) بالأصل : واتقدم (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٢٩) . (٢) الإشارة هنا إلى السلطان ملكشاه ، (انظر عن تلقيب ابن الأثير ، لملكشاه بركن الدين ، فيما سبق ص/٤/حاشية/٤) . (٣) أى عند السلاطين السلاجقة خلفاء ملكشاه .

(٤) واسط : فى الاصطخرى (ص/٥٨) : أنها نصفان على شط دجلة متقابلان ، بينهما جسر من سفن فى كل جانب وفى كل جانب مسجد جامع ، وهى محدثة فى الإسلام ، أحدثها الحجاج بن يوسف (الثقفى) وبها خضراء الحجاج . وهى مدينة يحيط بحدها الغربى البادية بعد مزارع يسيرة ، وهى خصبة كثيرة الشجر والنخيل والزروع ، وهى أصح هواء من البصرة ، وليس لها بطائح ، وأراضى رساتيقها متصلة معمورة . (٥) الشحنة : لفظ فارسى ، معناه : محافظ المدينة ، نائب الملك ، رئيس البوليس (المعجم فى اللغة الفارسية) . وفى (القاموس المحيط) ، الشحنة ، جمعها شحن . وهى فى الأصل ما يقام للدواب من العلف الذى يكفيها يومها وليلتها ، وفى البلد ، من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان . (٦) الإضافة من ، الكامل (حـ/٨/ص/٣٠٧) . (٧) بالأصل : وبهاء .
(٨) الإضافة من ، الكامل (حـ/٨/ص/٣٠٧) .

ثم إن السلطان ولى البرسقى شحنكية العراق جميعه ، وزوجه خاتون بهشت(١) جهان والدة أخيه الملك مسعود ، وأقام البرسقى ببغداد إلى شعبان من هذه السنة ، وترددت الرسل بينه وبين دبيس فى الصلح فلم يتم ذلك . فأرسل دبيس عسكرا إلى واسط — وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقى فصاروا معه — فلما سمع من بها بمسير عسكر دبيس إليهم ، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقى ، فأمدهم بالأمير التونتاش الأبرى وبعماد الدين زنكى وأقطعه البلد ، وأمرهم بطاعته ، فصافوا عسكر دبيس فهزموهم وأسروا أكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين إلى دبيس .

وأقام عماد الدين زنكى بواسط . وأرسل البرسقى إليه أيضاً فولاه شحنكية البصرة وأمره بحمايتها ، فوليها (٣٠ — أ) وحماها ، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب إليها والإغارة عليها مرة بعد أخرى . فلما سكنها(٢) لم يتعرض إليها أحد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته فى البلدين ما لم يظنه أحد ، فازداد شأنه عظما(٣) .

وتجنب دبيس قصد ولايته لعلمه أنه لاينال منها غرضاً(٤) ، وأنفذ عسكراً نحو المدائن ، فخاف أهل بغداد ، وعبر البرسقى إلى الجانب الغربى عازماً على قصد بيس ، وناهيك هذا شرفاً لعماد الدين ، حيث يترك دبيس ولايته مع بعدها عن بغداد ويقصد المدائن وهى إلى جانب بغداد والبرسقى فى العساكر قريب منها(٥) .

وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب .

ذكر هزيمة دبيس وعسكر بغداد

وما ظهر لعماد الدين زنكى من الشجاعة

لما ورد دبيس وعساكره إلى المدائن وعبر البرسقى إلى الجانب الغربى (٣٠ — ب) ليسير إليه ، أرسل الخليفة المسترشد بالله إلى دبيس ينهاه عن العصيان ، ويتهدده إن أصر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب دبيس وحلف ليقصدن بغداد وليخربنها ويقتل أهلها ، وجمع العرب وأطمعهم فى نهب بغداد فكثر جمعه . فلما علم الخليفة بما كان منه ، سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحة ، وعلى كتفه بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب ، وعبر فى الزبزب(٦) ومعه وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء(٧) ، وشيخ

---

(١) بالأصل : بهست . (والتصحيح من « دى سلاين » ، ص/٤٦) . (٢) بالأصل : سكنها .

(٣) بالأصل : عظيما . (٤) بالأصل : غرض . (٥) هذا تمجيد من ابن الأثير لعماد الدين كعادته . فهو هنا يفسر مجرى الحوادث تفسيراً آخر يختلف عن تفسيره فى «الكامل» حيث يذكر فى «الكامل» (حـ/٨/ص/٣١٠ — حوادث سنة ٥١٧) أن دبيسا سار إلى بغداد للإنتقام من الخليفة والسلطان .

(٦) الزبزب ، نوع من السفن . (لسان العرب) . (٧) هو على بن طراد الزينبى ، (الكامل . حـ/٨/ص/٣١٠) . وترجمته فى ، شذرات الذهب (حـ/٤/ص/١١٧ — وفيات سنة ٥٣٨) .

الشيوخ صدر الدين إسماعيل(١) ، وقاضى القضاة الزينبى(٢) وغيرهم . فلما سمع البرسقى بمسير الخليفة ركب وعاد إلى لقائه ، فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الأرض . فلما نزل الخليفة فى الخيمة ، أحضر البرسقى والأمراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة ـ وقد تأخر دبيس عن المدائن ـ فالتقوا بالمباركة من أعمال النيل(٣) ، ورتب البرسقى عسكره (٣١ — أ) ، فجعل فى الميمنة عماد الدين زنكى فى عسكره ، والأمير أبا بكر إلياس البكجى(٤) ، ووقف الخليفة فى موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقراء(٥) بين يديه ، والمصاحف منشورة ، وتقدم إلى أهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم ألف ختمة ودعوا له بالنصر .

فلما توافقت العساكر ، حملت ميسرة دبيس ـ ومقدمها عنتر بن أبى العسكر ـ على الأمير أبى بكر إلياس ومن معه ، فتراجعوا على أعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر أيضاً حملة ثانية ، فكان حالها كالأولى ، وأشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكى ذلك ، حمل فى عسكر واسط على عنتر وأصحابه ، وأطبقوا(٦) [عليه] من خلفه ، وعاد الأمير أبو بكر ، فبقى عنتر ومن معه فى الوسط ؛ فأخذوا باليد ، وقتل منهم الكثير . وكان البرسقى قد جعل له كميناً ، فلما اشتدت الحرب ، ظهر الكمين من وراء عسكر دبيس ، فانهزمت العرب ومن معهم ودبيس ، فألقوا نفوسهم (٣١ — ب) فى النيل ، فغرق منهم خلق(٧) كثير سوى من قتل وأسر .

ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بميمنة البرسقى ، وأن من بها قد أشرف على الهزيمة ، جرد سيفه وتقدم وهو يكبر ، وقد عزم على أن يباشر الحرب بنفسه ، فكفاه عماد الدين زنكى ، فلما تم الظفر ، قدمت الأسرى إلى المسترشد بالله ، فأمر بقتلهم صبراً .

وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس وإثنى عشر [ألف(٨)] راجل ، وعسكر(٩) الخليفة والبرسقى ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل ، ولم يقتل من عسكرهما غير عشرين فارساً . ووقع نساء دبيس وسراريه(١٠) فى الأسر ، غير زوجته إبنة إيلغازى بن أرتق وإبنة عميد الدولة ابن جهير ، فإنهما كانتا بمشهد الحسين عليه السلام .

وكانت الوقعة فى أول المحرم سنة سبع عشرة وخمسماية . وعاد المسترشد إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء .

---

(١) هو شيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل بن أبى سعيد الصوفى ، مات ببغداد سنة ٥٤١ ، ترجمته فى ، شذرات الذهب (حـ/٤/ص/١٢٨ — وفيات سنة ٥٤١) . (٢) هو قاضى العراق ، أبو القاسم على بن نور الهدى أبى طالب الحسين بن محمد بن على العباسى . توفى سنة ٥٤٣ . ترجمته فى ، شذرات الذهب (حـ/٤/ص/١٣٥ — وفيات سنة ٥٤٣) . (٣) النيل : فى (ياقوت) : نهر من أنهار الرقة ، حفره (هارون) الرشيد على ضفة نيل الرقة . (٤) فى ، الكامل (حـ/٨/ص/٣١١) ، أبا بكر بن إلياس البكجى . (٥) بالأصل : والقرايين.
(٦) بالأصل : ولطبقوا . (٧) بالأصل : خلقاً . (٨) الإضافة من ، الكامل (حـ/٨/ص/٣١١) .
(٩) بالأصل : والعسكر . (١٠) بالأصل : وسرايره .

وثار العامة ببغداد ، فنهبوا مشهد باب التين وما عند الضريحين ، وقلعوا أبواب المشهد ، فشكى العلويون(١) ذلك (٣٢ — أ) إلى الخليفة فأنكره ، وسير نظراً الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل ذلك والتنكيل(٢) به ، ففعل بهم ما أمر ، واسترد من النهيب ما أمكنه ورده على أصحابه .

وأما دبيس فإنه لما انهزم ، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصياً على أخيه السلطان محمود .

ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقى

واتصاله بالسلطان محمود

قال . ولما فارق دبيس العراق ولحق بطغرل ، أمنت البلاد ، فأرسل السلطان محمود إلى البرسقى يأمره بالعود إلى الموصل والاشتغال بجهاد الإفرنج ، وولى شحنكية بغداد يرنقش(٣) الزكوى ، فعاد البرسقى فى سنة سبع(٤) عشرة وخمسمائة .

وكان أتابك عماد الدين زنكى حينئذ بالبصرة ، فأرسل البرسقى إليه يعلمه الحال ، ويستدعيه ليسير معه إلى الموصل . فحدثنى والدى قال : حدثنى جماعة ممن كان مع الشهيد ، قالوا : جمع الشهيد أصحابه (٣٢ — ب) وقال لهم : قد ضجرنا مما نحن فيه . كل يوم قد يملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، ثم تارة بالعراق ، وتارة بالموصل ، وتارة(٥) ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام ، فبم تشيرون أصنع . فقال له زين الدين على بن بكتكين — وكان أوثق أصحابه عنده وأكثرهم صحبة له — فقال : يا مولانا ، التركمان تقول فى أمثالها ، إذا أراد الإنسان [أن] يضع على رأسه حجراً فليكن من جبل كبير ، ولكن نحن إذا كنا لا بد وأن نخدم الناس ، فلأن نخدم السلطان أولى ، فقبل رأيه ، وسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فلم ير منه ما كان يرجوه ، وأنفق ما كان معه من مال . وكان كلما ضاق به الأمر ، يقول لزين الدين : يا على ، قد وضعنا على رءوسنا حجراً عظيما كما أردت . إلا أنه كان يقف إلى جانب تخت السلطان لا يتقدمه أحد . فلما كان بعض الأيام ، ركب السلطان ليلعب بالكرة ، فدخل الميدان فأخذ الجوكان(٦) (٣٣ — أ) بيده ، واستدعى عماد الدين زنكى وناوله إياه ، وقال له : إلعب معنا . ثم قال السلطان للأمراء معاتباً لهم وموبخا : أما تستحيون ، يجىء إليكم فلان — وهو من قد عرفتموه وعرفتم محل والده فى الدولة — فلم يكن فيكم من يحمل له شيئاً ولا يعمل له دعوة ، والله لقد

---

(١) بالأصل : العليون . (٢) بالأصل : والتكيل . (٣) بالأصل : برنقش . (والتصحيح من : الكامل (ح/٨/ص/٣١٦ ؛ تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/١٤٦) . (٤) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٢٣٧) أن عزله عن شحنكية العراق كان سنة ٥١٨ . (٥) بالأصل : تار .

(٦) الجوكان : هو المحجن الذى تضرب به الكرة ، ويعبر عنه بالصولجان أيضا ، وكانت الجوكان عصا مدهونة ، طولها نحو أربعة أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد عن نصف ذراع . (السلوك ، ح/١/ق/١/ص/١٣٥ حاشية /١) .

تركته لم أرسل إليه نفقة ولا أعطيته إقطاعاً لأنظر فعلكم . وبالغ فى لومهم ، ثم قال له : قد زوجتك إمرأة الأمير كندغدى ، وأمر له بمال . وكان هذا كندغدى من أكابر أمراء السلطان محمد والسلطان محمود ، فجعله [السلطان محمود] مع أخيه الملك طغرل أتابكا له ومدبراً لدولته ، فحسن له العصيان على أخيه السلطان محمود ، وجمع له العساكر الكثيرة وعظم شأنه ، فاتفق أنه مات فى تلك السنة ، وخلف ولداً صغيراً وزوجة ، ومن الأموال والبرك[1] والسلاح مالا يقدر عليه إلا سلطان ، فلما كان الآن ، وقال لعماد (٣٣ — ب) الدين ليتزوجها ، أرسل إليها يقول لها : إننى قد زوجتك بعماد الدين زنكى . فامتنعت ثم أجابت . فقال. فركب زنكى من غد دخوله بها ومعه ولد كندغدى[2] ، وهو فى موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كندغدى ، وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ما ليس لأحد فى العسكر مثله .

ذكر إقطاعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه فى ذلك الوقت الخبر بأن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فأمر أتابك عماد الدين بالمسير إليها ، وأقطعه إياها[3] لما كان بلغه عنه من الحماية لها فى العام الماضى — وقت اختلاف العساكر والحروب — وأمره بالحفظ والإحتياط .

وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة قد باشر الحرب ، وأحب جمع العساكر ، وخوف [من] ناحيته[4] ، فتقدم[5] إلى عماد الدين بمراعاة أحوال واسط والتطلع إلى معرفة حالها ، فإن قصدها عسكر (٣٤ — أ) من الخليفة يسير إليها ويحفظها ، فسار إلى العراق وأقام بالبصرة ، وأحسن السياسة لأهلها والحماية لهم من العرب وغيرهم ، وصار يرسل طوائف من عسكره فيوقعون بالأعراب ، فأمنت البلاد والطرق ، وواصل السلطان بأخبار العراق حتى لم يخف عليه منها شىء ، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده .

ذكر ولايته شحنكية بغداد

كان قد جرى بين[6] يرنقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ؛ فتهدده المسترشد ، فسار[7] عن بغداد إلى السلطان فى رجب سنة تسع عشرة[8] وخمسمائة ، شاكياً من المسترشد بالله ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق ،

(١) البرك : هو المتاع الخاص من ثياب وقماش . (السلوك ، حـ/١/ق/١/ص/١٣٤ — حاشية / ٦) .

(٢) هو خاصبك بن كندغدى وقد جعل السلطان محمود ، جمال الدين الجواد محمد بن على بن أبى منصور وزيراً لخاصبك وأرسله مع عماد الدين . (تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/١٩٢) .

(٣) كان ذلك فى سنة ٥١٨ . (الكامل ، حـ/٨/ص/٣١٦) .

(٤) بالأصل : ناحية .

(٥) بالأصل : فقدم .

(٦) بالأصل : من .

(٧) بالأصل : وسار .

(٨) فى ، الكامل (حـ/٨/ص/٣٢١) ، سنة عشرين .

وقال له : إن تأخرت عن العراق إزداد قوة ومنعك عن البلاد . فتجهز السلطان إلى العراق ، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لا يأتى بغداد هذه الدفعة لخراب (٣٤—ب) البلاد والغلاء(١) الذى بها ، وبذل له على تأخره مالا كثيراً . فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر عن العراق وصمم العزم على الحركة .

فلما بلغ الخبر إلى الخليفة عبر هو وأهله وحرمه وأرباب المناصب إلى الجانب الغربى فى ذى القعدة . مظهراً للغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان . فلما خرج من داره بكى(٢) الناس بكاء عظيما ، واتصل الخبر بالسلطان(٣) فعظم عليه ، وأرسل إليه يستعطفه ويسأله العود إلى داره ، فأعاد الجواب : إننى أمرتك بالتأخر لخراب البلاد وهلاك الناس وعدم الأقوات ، ويقول له : إن قصدت العراق فنحن راحلون عنه بالأهل والمال . فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل إلى بغداد ، فلما كان عيد النحر(٤) ، أمر المسترشد بالله بأن تنصب السرادقات والمنبر ، وأحضر خواصه وأرباب المناصب وأعيان الدولة ، وصلى هو بالناس يوم العيد (٣٥ — أ) وخطبهم ، فبكى الناس لخطبته بكاء عظيما .

ثم إنه أرسل عفيفاً الخادم فى عسكر [إلى] واسط ، وبها عماد الدين زنكى ، [وكان] قد سار من البصرة لحفظها والذب عنها ، فلما وصل عفيف ، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعود ، فلم يلتفت [إليه] ، وجاء حتى نزل بالجانب الغربى من واسط ، فعبر إليه الشهيد وقاتله قتالا شديداً ، فانهزم عسكر عفيف ، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ، وتجاوز عن عفيف حتى نجا(٥) ، ولو شاء لأخذه .

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعاً إليه ، وسد أبواب دار الخلافة سوى باب النوبى(٦) ، وأمر حاجب الباب ، ابن الصاحب ، بالمقام فيه يحفظ الدار ، ولم يبق من حواشى الخليفة بالجانب الشرقى سواه .

ووصل السلطان إلى بغداد فى عشرين من ذى الحجة ، ونزل بالشماسية(٧) ، ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا فى دور الناس ، ولم يزل السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح (٣٥ - ب) وهو يمتنع ، وكان يجرى بين العسكرين مناوشة(٨) ، والعامة من الجانب الغربى يسبون السلطان أفحش سب .

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة فى المحرم سنة عشرين وخمسمائة(٩) ونهبوا

---

(١) بالأصل : الغلى . (٢) بالأصل : بكاء . (٣) بالأصل : السلطان . (٤) بالأصل : النحره .
(٥) بالأصل : نجى . وفى الكامل (حـ/٨/ص/٣٢١) ، أن عماد الدين تجاوز عن عفيف «لمودة كانت بينهما» .
(٦) بالأصل : باب النوبة . والتصحيح من الكامل (حـ/٨/ص/٣٢١) . (٧) بالأصل : الشماسه ، (والتصحيح من الكامل ، حـ/٨/ص/٣٢٠) . (٨) بالأصل : بين العسكريين منها مناوشة . (٩) فى الكامل (حـ/٨/ص/٣٢١) ، سنة إحدى وعشرين .

التاج وحجر الخليفة ، وضج أهل بغداد . فلما رآهم الخليفة ينهبون داره ، خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى [بأعلى(١)] صوته : يآل هاشم ، وأمر بتقديم السفن [ونصب الجسر(٢)] وعبر العسكر دفعة واحدة . وكان فى الدار ألف رجل مختفين فى السراديب فظهروا — وعسكر السلطان قد اشتغلوا بالنهب — فأسروا جماعة من الأمراء . ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الأمراء ، ودار عزيز الدين المستوفى ، ودار حكيم أوحد الزمان الطبيب ، وقتل منهم خلق(٣) كثير فى الدروب .

ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقى ومعه ثلاثون ألف مقاتل (٣٦ — أ) من أهل بغداد والسواد ، وحفروا الخنادق(٤) فى الليل ، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ، واشتد الغلاء عند العسكر ، وعظم القتال كل يوم على أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة .

وعزم عسكر(٥) الخليفة على تبييت(٦) عسكر السلطان ، فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردى الهذبانى صاحب إربل ، وخرج كأنه يريد القتال والتحق هو وعسكره بالسلطان .

وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين زنكى يأمره أن يحضر بنفسه(٧) ومعه المقاتلة فى البر والماء ، وأن يكثر من السفن مهما أمكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة إلا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، وأصعد فى البر والسفن سائرة فى الماء ، فلما قارب بغداد نشر الأعلام ، وأظهر السلاح ، وأخرج بعض من فى السفن إلى البر (٣٦ — ب) فامتلأت الأرض والماء رجالا وسلاحاً ، فرأى الناس منظراً عجيباً وعظم ذلك فى أعينهم ، وركب السلطان والعساكر فرأوا ما ملأ قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة ، واستدل على كفايته ونهضته وحسن سياسته ، لأن البلاد التى كانت بيده لم يكن عسكرها(٨) يقدر يفارقها ليحفظوها ، فأخرج منها هذا الخلق الكثير ، ولم يتعرض إليها أحد بأذى .

وكان الخليفة — لما هرب الأمير أبو الهيجاء وبلغه مجىء عماد الدين — قد ضعفت نفسه ، وعلم أن عماد الدين يجىء ويقاتلهم فى الماء ويمنع الميرة عنهم ، ويقاتلهم السلطان فى البر فيعظم عليه الخطب ، فحينئذ راسل السلطان طلباً فى الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه ، واعتذر السلطان(٩) مما جرى . وكان حليما يسمع سبه بأذنه ولا يعاقب عليه . وعفا عن (٣٧ — أ) أهل بغداد جميعهم . وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار بإحراق بغداد فلم يفعل ، وقال : لا تساوى العراق بعض هذا .

---

(١) الإضافة من الكامل (حـ/٨/ص/٣٢١) . (٢) : الإضافة من ، الكامل (حـ / ٨ / ص ٣٢١)
(٣) بالأصل : خلقاً . (٤) بالأصل : الخناديق . (٥) بالأصل : عكر . (٦) بالأصل : تثبيت . وقد صحح المحقق اللفظ على ضوء ما جاء فى الكامل (حـ/٨/ص/٣٢٢) : « وعزم عسكر الخليفة أن يكبسوا عسكر السلطان » . (٧) فى الكامل (حـ/٨/ص/٣٢٢) أن عماد الدين كان بواسط . (٨) بالأصل : عسكره .
(٩) بالأصل : للسلطان . (والتصحيح من الكامل ، حـ/٨/ص/٣٢٢) . (١٠) : بالأصل : عفى .

ولما تم الصلح ، أقام السلطان ببغداد إلى عاشر(١) ربيع الآخر ، وحمل الخليفة [إليه(٢)] كل ما استقرت القاعدة [عليه(٢)] من المال ، والسلاح ، والخيل وغير ذلك .

فلما أراد السلطان الرحيل ، نظر فى من يصلح أن يلى شحنكية بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور ، فلم ير فى(٣) أمرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه عن الإتساع ، وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكى ، فولاه شحنكية العراق(٤) مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع ، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث أسنده إلى الكافى القيم بأمره .

ذكر قتل البرسقى وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

فى سنة عشرين وخمسمائة(٥) ، قتل آقسنقر البرسقى بالجامع العتيق (٣٧ — ب) [بمدينة(٦)] الموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية . وكان رأى تلك الليلة فى منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه(٧) الباقون أذى شديداً ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال : لا أترك الجمعة لشيء أبداً ، وكان يشهدها فى الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته ، فثار به من الباطنية(٨) ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة ، وقتل رحمه الله .

وكان خيراً عادلا ، لين الأخلاق ، حسن العشرة مع أصحابه . حكى(٩) لى والدى رحمه الله تعالى ، قال : حكى بعض الغلمان الذين يخدمون البرسقى ، قال : كان يصلى كل ليلة صلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد . قال : فرأيته بعض ليالى الشتاء بالموصل ، وقد قام من فراشه ، وعليه فرجية وبر صغيرة وبيده إبريق نحاس وقد قصد دجلة (٣٨ — أ) ليأخذ ماء يتوضأ به ، فلما رأيته قمت إليه لآخذ الإبريق من يده ، فمنعنى وقال : يامسكين إرجع إلى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لآخذ الإبريق من يده فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردنى إلى مكانى . ثم توضأ ووقف يصلى(١٠) . وذكر لى من أحواله الحسنة أشياء لم أطول بذكرها .

---

(١) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٢٢) ، رابع شهر ربيع الآخر . (٢) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٣٢٢) .
(٣) بالأصل : فلم يراق . (٤) فى الكامل (ح/٨/ص/٣٢٣) أن عماد الدين ولى شحنكية بغداد فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ . (٥) فى الكامل (ح/٨/ص/ ٣٢٠) أن البرسقى قتل يوم الجمعة ثامن ذى العقدة من السنة . (٦) الإضافة من الكامل (ح/٨/ص/ ٣٢٠) . (٧) بالأصل : منها . (والتصحيح من الكامل ، ح/٨/ص/ ٣٢٠) .
(٨) بالأصل : الباطنة . (٩) بالأصل: حكا . (١٠) أسقط « دى سلين » قصة الغلام من نسخته ، وقد ذكر أنه أسقطها عمداً ، لأنه من غير المعقول حدوثها .

ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لما قتل البرسقى ، قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود[١] ، وأرسل[٢] إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليه ، فأجابه إلى ذلك وأقره على ما كان لأبيه من الأعمال ، فضبط البلاد وقام فيها المقام المرضى ، وكان شاباً عاقلا ، فجمع عساكر أبيه وأحسن إليهم ، وكان يدبر الأمر بين يديه الأمير جاولى — وهو مملوك تركى من مماليك أبيه — وكان أيضاً عاقلا حسن السيرة ، فجرت الأمور على أحسن نظام ، فلم تطل أيامه ، وأدركه فى عنفوان شبابه حمامه (٣٨ — ب) وتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة[٣] . فولى بعده أخوه الأصغر ، وقام بتدبير دولته جاولى أيضاً ، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليهم ، وبذل أموالا كثيرة .

ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكى الموصل

وسائر بلاد الجزيرة[٤]

نبتدىء قبل ذكر ملكه للبلاد ، بذكر الحال التى كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الإسلام أيديهم ، وضعف أهلها من كف عاديتهم[٥] ، وتتابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب ، واستطار فى البلاد شرر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم[٦] وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكدرة ، وسماء (٣٩ — أ) عزهم منفطرة ، وشمس إقبالهم مكورة ، ورايات المشركين خلال ديار الإسلام منشورة ، وأنصارهم على أهل الإيمان منصورة .

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين[٧] وشبختان إلى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماة ، ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد[٨] ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد . ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين[٩]

---

(١) فى الكامل (ح/٨/ص/٣٢٠) ، أن مسعوداً كان بحلب ليحفظها من الفرنج حين قتل أبوه . فلما بلغه خبر مقتله سار إلى الموصل ودخلها فى أول ذى الحجة سنة ٥٢٠ .

(٢) بالأصل : أرسل .

(٣) فى الكامل (ح/٨/ص/٣٢٣) أن مسعوداً طمع فى التغلب على بلاد الشام وسار بعساكره يريد دمشق ، فابتدأ بالرحبة وحاصرها ، فمرض أثناء الحصار ، ومات بعد أن تسلم قلعتها بساعة واحدة .

(٤) بالأصل : وسائر البلاد جزيرة العرب .

(٥) بالأصل : أعاديهم . (واللفظ المثبت هنا أصوب من لفظ النص . والعادية : الظلم والشر — مختار الصحاح) .

(٦) بالأصل : حفهم .

(٧) ماردين : فى (ياقوت) : قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة ، مشرفة على دنيسر ، ودارا ، ونصيبين وذلك الفضاء الواسع ، وقدامها ربض عظيم .

(٨) آمد : فى (ياقوت) : هى أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً . وهى بلد قديم حصين ركين مبنى بالحجارة السود . وعلى نشزه دجلة محيطة بأكثره ، مستديرة كالهلال ، وفى وسطه عيون ماء وآبار قريبة نحو الذراعين يتناول ماءها باليد ، وفيها بساتين ونهر ، يحيط بها السور .

(٩) : نصيبين : فى (ياقوت) : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة ، على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . بينها وبين سنجار تسعة فراسخ ، وبين الموصل ستة أيام ، وبين دنيسر يومان .

ورأس العين(١) ، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين .

وأما (٢) الرقة (٣) وحران (٤) ، فقد كان أهلها (٥) معهم فى ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكنى القبور .

وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة (٦) والبر ، فكان التجار والمسافرون(٧) يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا ، ويخاطرون بالقرب (٣٩ — ب) من العرب بأموالهم وأنفسهم .

ثم زاد الأمر ، وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا وإتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقنعوا بذلك ، حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود إلى أوطانهم ، والرجوع إلى أهليهم وإخوانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا ، وللكافرين قدرة واقتساراً .

وأما حلب فإنهم أخذوا مناصفة (٨) أعمالها حتى فى الرحا التى(٩) على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة .

وأما باقى بلاد الشام ، فكان حالها أشد من هذين البلدين .

فلما نظر الله تعالى إلى ملوك البلاد الإسلامية وأمراء (١٠) الملة(١١) الحنيفية ، وماهم فيه من العجز عن نصرة الدين ، والوهن فى (٤٠ — أ) حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله ، إرتاح(١٢) للإسلام وأهله ، وأنف لهم من إذلال عدوهم لهم وأسره وقتله ، فحينئذ أراد أن يسلط على الفرنج من بسوء أفعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصلبان رجوما منه تهلكها وتفنيها ، فنظر فى جريدة شجعان أوليائه ، وذوى الرأى

---

(١) رأس العين : فى (ياقوت) : رأس عين ، والعامة تقول : رأس العين . وهى مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة ، حران ونصيبين ودنيسر . وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً ، وقريب من ذلك بينها وبين حران . وهى إلى دنيسر أقرب ، بينهما نحو عشرة فراسخ . وفى رأس عين ، عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها فى موضع فتصير نهر الخابور .

(٢) بالأصل : وأما أهل . (وقد أسقط المحقق اللفظ : أهل ، لعدم ضرورته ، وهو تكرار لما بعده) .

(٣) الرقة : فى (ياقوت) : بفتح أوله وثانيه وتشديده . مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام . معدودة فى بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقى .

(٤) حران : فى (ياقوت) : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور . وهى قصبة ديار مضر . بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان ، وهى على طريق الموصل والشام والروم .

(٥) بالأصل : أهلها .

(٦) الرحبة : فى (ياقوت) : رحبة مالك بن طوق . بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، ومن حلب خمسة أيام ، وإلى بغداد مائة فرسخ ، وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً . وهى بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات ، أسفل من قرقيسيا .

(٧) بالأصل : المسافرين .

(٨) بالأصل : مباضعه.

(٩) بالأصل : الذى .

(١٠) بالأصل : وأمر .

(١١) بالأصل : لملة .

(١٢) هكذا بالأصل .

والنجده والشهامة من أصفيائه ، فلم ير (١) فيها أقوى على هذا الأمر من المولى الشهيد عماد الدين زنكى ولاأثبت جنانا ، ولاأمضى عزما ، ولا أنفذ سنانا ، فولاه الثغور ، ورعاية الجمهور ، كما يقول [القائل] :

رماها بحرب منه حتى كأنما بدعوة نوح فى العصاة رماها
أخى الحرب يصليها بنفس كأنما تزاحم فى ضنــك الوغى بسواها
كتائب تزهى بالفتوح كأنما تبارى النجوم الطالعات قناها

فغزا الفرنج فى عقر ديارهم ، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم (٤٠ — ب) فأصبحت أهلة الإسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الإيمان منيرة بعد طموس أنوارها ، وماس المسلمون فى حلل من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل (٢) من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهل التثليث حصونا ومعاقل ، وجازوهم بما أسلفوا من الدخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالديار الجزرية والشامية جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال ، ياأهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصارى ولا وزر . فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة مزقت من الشرك شمله ، وسترى(٣) ما أجملناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا . هذا(٤) سوى مكارم أخلاق إدرع جلبابها ، وحسن سياسة اعتلق بمحكم أسبابها ، يرد ذكرها عند قتله قدس الله روحه ونور ضريحه .

وأما ملكه البلاد ، ففى شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . قال : تولى عمادالدين زنكى بن آقسنقر (٤١ — أ) الموصل ، وديار الجزيرة ، ونصيبين وما كان بيد البرسقى . وكان سبب ذلك أن عز الدين مسعود [بن البرسقى] لما توفى وقام بالبلاد بعده أخوه ، وتولى أمره جاولى ، أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلاد عليه ، كما ذكرنا . وكان واسطة ذلك القاضى بهاء الدين أبا الحسن على بن الشهرزورى وصلاح الدين محمد الياغيسيانى(٥) ، فحضرا [إلى] بغداد ليخاطبا السلطان فى ذلك ، وكانا(٦) يخافان جاولى ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه ، فاجتمع [صلاح(٧)] الدين ونصيرالدين جقر — الذى(٨) كان أعظم أصحاب أتابك زنكى منزلة — وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة ، فذكر له صلاح الدين ما قدم له ، فخوفه نصير الدين(٩) من جاولى وتحكمه على صاحبه ، وقال له : إن رأيت أن تطلب البلاد لعماد الدين فهو الرأى ، لأن السلطان صورة وأنا وأنت معنى ، فأجابه إلى ذلك وأخذه إلى القاضى بهاء الدين

---

(١) بالأصل : يرى . (٢) بالأصل : مناهيل. (٣) بالأصل : وسرى. (٤) بالأصل : هذاى.
(٥) كان صلاح الدين أمير حاجب البرسقى . (الكامل ، ﺣ/٨/ص/٣٢٤) . (٦) بالأصل : أيام .
(٧) بياض بالأصل . (والإضافة من الكامل ، ﺣ/٨/ص/٣٢٤) . (٨) بالأصل : الدين.
(٩) بالأصل : زين الدين . (والتصحيح من النص نفسه) .

ابن الشهرزورى وتحدثا معه ووعده (٤١ — ب) نصير الدين ومناه ، وضمن له عن عماد الدين من الأملاك والإقطاع والوقوف على اختياره ما جاوز أمله ، فأجاب بهاء الدين أيضاً ، وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير — وهو حينئذ أنوشروان بن خالد — فقال له : قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قداستولى الفرنج [عليها] وتمكنوا منها وقويت شوكتهم ، وقد كان البرسقى يكف بعض عاديتهم(١) ، فمذ قتل إزداد طمعهم ، وهذا ولده طفل ، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها ، وقد أنهينا الحال إليك ، لئلا(٢) يجرى خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين ، فنحصل نحن بالإثم من الله ، واللوم من السلطان . فأنهى(٣) الوزير ذلك إلى السلطان ، فقال : من تريان يصلح لهذه البلاد ، فقد نصحتما(٤) لله تعالى وللمسلمين، فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكى وعظما محله أكثر من غيره(٥) ، فمال السلطان إلى توليته ، لما(٦) علم من شهامته وكفايته وعقله لما تولاه ، (٤٢ — أ) وأمره(٧) بالحضور عنده ، وفصل الحال فى خدمة يحملها ، واستقر الحال وولاه(٨) البلاد جميعها(٩)، وكتب منشوره إلى بغداد(١٠).

وسار [زنكى] إلى البوازيج ليملكها ويتقوى بها ، ويجعلها ظهره إن [صده(١١)] جاولى عن البلاد . فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل ، فحين أن [اتصل خبر] وصوله بجاولى ، خرج إلى لقائه ومعه العسكر جميعه ، فلما رأى الشهيد ، نزل عن فرسه وقبل الأرض ، ثم قبل يده وعاد فى خدمته ، فأقطعه الشهيد الرحبة وأعمالها وسيره إليها . وأقام هو [بالموصل(١٢)] إلى أن يصلح أمورها ويقرر قواعدها ، فولى نصير الدين دزدارية(١٣) قلعة [الموصل(١٤)] وفوض إليه أمر الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية(١٥) فى [قلاع(١٦)] البلاد لنصير الدين [أيضاً] . وجعل صلاح الدين الياغيسيانى أمير حاجب ، وجعل بهاء الدين قاضى قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد ، ووفى لهم بما وعدهم . وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم (٤٢ — ب) انبساطاً معه وقرباً منه ، ورتب الأمور على أحسن حال وأحكم قاعدة .

---

(١) بالأصل : قد علم عاداتهم (والتصحيح من ، الكامل ، حـ/٨/ص/٣٢٤) . (٢) بالأصل : لا
(٣) بالأصل : فانها . (٤) بالأصل : نصحتها . (٥) بالأصل : غير . (٦) بالأصل : ولما .
(٧) بالأصل : وأمرهما . (٨) بالأصل : وولى . (٩) فى ابن واصل (حـ/١/ص/٣٣) ، أن السلطان محموداً عهد إلى عماد الدين بتربية ابنه الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجى ، فأخذه عماد الدين معه إلى الموصل. وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك فيما يلى ، فى خبر مقتل نصير الدين جقر سنة ٥٣٩ . (١٠) فى ابن خلكان (حـ/٦/ص/٣٣ ترجمة عماد الدين زنكى — نشر محمد فريد رفاعى) . أنه لما توفى عز الدين مسعود ، عزم السلطان محمود على تسليم الموصل إلى دبيس بن صدقة الأسدى صاحب « الحلة » ، فأنكر الخليفة المسترشد عليه ذلك ، واستدعى رسولى الموصل وقرر معهما تولية عماد الدين عليها ، وبذل الخليفة للسلطان مائة ألف دينار ترضية له ، ومن ثم أصدر السلطان مرسوماً بتولية عماد الدين على الموصل . (١١) الإضافة من الكامل (حـ/٨/ص/٣٢٤) .
(١٢) الإضافة من الكامل (حـ/٨/ص/٣٢٤) (١٣) الدزدار : (بضم الدال وسكون الزاى وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء) . لفظ أعجمى معناه : حافظ القلعة ، وهو الوالى . (ابن خلكان، ترجمة صلاح الدين الأيوبى).
(١٤) بياض بالأصل . (والإضافة من ، الكامل ، حـ/٨/ص/٣٢٤) . (١٥) بالأصل الدزددارية .

ذكر ملكه جزيرة ابن عمر(١)

لما فرغ الشهيد رضى الله عنه من أمر الموصل ، وتقرير قواعد(٢) الجنود وأقطع العساكر ، سار(٣) نحو جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها بعض(٤) [مماليك(٥)] البرسقى ، فامتنع بها ثقة بحصانتها وظناً منه أنها تحميه ، فراسله عماد الدين(٦) وبذل له ورغبه فلم يصغ إلى ذلك ، فحينئذ جد الشهيد فى قتالها ، وبينه وبين البلد الدجلة ، فأمر الناس فألقوا أنفسهم فى دجلة ، بعضهم سباحة(٧) ، وبعضهم فى السفن ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين البلد وبين دجلة تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فاقتتلوا هم والعساكر قد عبروا الماء ، فانهزم عسكر الجزيرة ، وملك عسكر عماد الدين ، فلما رأى من بالبلد ذلك ، أيقنوا أن البلد يؤخذ عنوة إن لم يأمنوهم ، فأرسلوا (٤٣ — أ) إلى عماد الدين — وكان قد عبر دجلة أيضاً مع عسكر — وطلبوا منه الأمان وقاعدة تقرر(٨) بينهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وتسلم البلد ودخله هو وعسكره ، فاتفق أن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة ، حتى التصق(٩) الماء بسور البلد وصعد(١٠) فيه أكثر من قامة ، وامتلأت(١١) الزلاقة بالماء ، فلو تأخر دخول الشهيد إلى البلد يومهم ذلك ، لغرقهم الماء عن آخرهم ولم ينج منهم أحد . فلما رأى ذلك الناس ، أيقنوا بسعادته ، وعلموا أن أموراً — هذه بدايتها — لعظيمة .

ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار(١٢)

قال : فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر ، سار عنها إلى نصيبين — وكانت لحسام الدين تمرتاش ابن إيلغازى [بن أرتق] صاحب ماردين وغيرها — فلما نازلها الشهيد ، سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان [بن أرتق ،] صاحب حصن كيفا(١٣) يستنجده على دفع أتابك (٤٣ — ب) عن نصيبين ، فوعده النجدة وجمع عساكره ، وعاد حسام الدين إلى ماردين ، وسير رقاعاً(١٤) على أجنحة الطيور إلى نصيبين ، يعلم من بها من الأجناد أنه وابن عمه ركن الدولة سائران [إليهم(١٥)] فى العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ثلاثة(١٦) أيام ، فبينما أتابك الشهيد فى خيمته إذ رأى طائراً قد سقط على خيمة تجاورها ، فأمر بصيده فاصطيد ، فرأى فيه رقعة ففتحها ،

(١) بالأصل : جزيرة ابن عمر بن الخطاب . (٢) بالأصل : قواعدها . (٣) بالأصل : ساير .
(٤) بالأصل : بعد . (٥) الإضافة من ، الكامل ، (حـ/٨/ص/٣٢٤) . (٦) بالأصل : زين الدين .
(٧) بالأصل : بسباحه . (٨) بالأصل : تقررت . (٩) بالأصل : التصقت . (١٠) بالأصل : وصعدت . (١١) بالأصل : واستمرت الزلاقة بالماء . واللفظ : استمرت ، لا معنى له فى الجملة ، واللفظ المثبت هنا أقرب الألفاظ للمعنى الذى يعنيه ابن الأثير .
(١٢) بالأصل : واقتدارا . (١٣) حصن كيفا : فى (ياقوت) : ويقال حصن كيبا . وهى بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . (١٤) بالأصل : رقاقا . (١٥) الإضافة من الكامل (حـ/٨/ص/٣٢٥) . (١٦) فى الكامل (حـ/٨/ص/٣٢٥) : خمسة أيام .

وإذا هى الرقعة المذكورة ، فأمر فكتب غيرها ، يقول فيها : من حسام الدين ، إننى قد قصدت ابن عمى ، وقد وعدنى بالنصرة والمسير فى العساكر ، وما يتأخر وصوله إلينا أكثر من عشرين يوماً ، ويأمرهم بحفظ البلد فى هـذه المدة ، وشدها على جناح الطائر وأرسله ، فلما رأى من فيه الرقعة ، خافوا على نفوسهم ، وعلموا أنهم يعجزون عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعوه وسلموا إليه القلعة ، فبطل على داود وتمرتاش ما كانا عزما عليه . وقد جرى مثلها (٤٤ — أ) للمولى السعيد نور الدين أرسلان شاه على نصيبين أيضاً سنة أربع وتسعين وخمسمائة، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى فى موضعها(١) .

قال . فلما تسلم الشهيد نصيبين ، سار عنها إلى سنجار ، فامتنعت عليه وقاتله من بها ، ثم إنهم سلموها إليه واتصلوا بخدمته ، وسير منها الشحن(٢) إلى الخابور(٣) فملكه جميعه . ثم سار إلى حران — وكانت الرها وسروج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله — وأهل حران معهم فى ضيق عظيم ، لخلو البلاد من حام يذب عنها(٤) أو سلطان يمنعها(٥) ، فلما سمعوا بملك الشهيد البلاد واستيلائه عليها ، وإذعان من بها إليه ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد أتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فراسلوه (٦) بالطاعة ، واستحثوه على الوصول إليهم ، فسار نحوهم (٧) مجدا حتى نزل بساحتهم ، فاستبشروا بقدومه ، وخرجوا إلى لقائه ، فوعدهم ومناهم .

(٤٤ — ب) وأرسل إلى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التى بيد الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة ، يعلم أنه يفرغ فيها من الإستيلاء على ما بقى له من البلاد الشامية والجزرية وإصلاح شأنها ، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم .

وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية ، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسلين على ما اختاره .

ذكر ملكه مدينة حلب وحماة

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الإسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها وقصدوها محاصرين لها لخلوها من حام ومانع ، وقد قوى طمعهم فى ملك ما بقى فى يد المسلمين

---

(١) بالرجوع إلى خبر استيلاء نور الدين أرسلان شاه على نصيبين سنة ٥٩٤ ، فى « النص » و « الكامل » لم نجد فيه ذكر مكيدة من نوع ما صنع عماد الدين أو غيرها من المكائد .

(٢) الشحن : جماعات من الفرسان. وفى (لسان العرب) : بالبلد شحنة من الخيل ، أى رابطة . (٣) الخابور : فى (ياقوت) : إسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة . والخابور أيضاً ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها إسمه فنسبت إليه من بلاد قرقيسياء ، وما كسين ، والمجدل ، وعربان . والخابور ، خابور الحسنية من أعمال الموصل فى شرقى دجلة ، وهو نهر من الجبال عليه عمل واسع وقرى فى شمال الموصل فى الجبال، له نهر عظيم يسقى عمله ، ثم يصب فى دجلة ، ومخرجه من أرض الزوزان . (ولعل ابن الأثير يقصد أن عماد الدين استولى على خابور الحسينية ، وهو الأقرب إلى الواقع) . (٤) بالأصل : عنهما . (٥) بالأصل : يمنعهما . (٦) بالأصل : فراسلوا .
(٧) بالأصل : نحواهم .

من البلاد، لا يعلمون ما أعده الله سبحانه فى سر الغيب، وماقدره من الإنتقام منهم وإدالة المسلمين عليهم، ليذهب غيظ (٤٥ — أ) قلوبهم. ويشف صدور قوم مؤمنين.

وكان الفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان، بينها وبين المدينة أذرع يسيرة. فلما سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم، راسلوه يستغيثون به ويستنصرونه، وأذعنوا له بالطاعة، فسار إليهم فلما عبر الفرات، ملك مدينة منبج، وحصن بزاعة (١) وسار إلى حلب، فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به مالا يعلمه [إلا] الله سبحانه وتعالى، وكان ملكه لها سنة اثنين وعشرين وخمسمائة (٢).

ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه، فإنهم كانوا الهم من أتابك طغدكين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم، وكانوا متى حصروا حلب وغيرها جمع طغدكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون، فقدر الله تعالى أنه توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمرة، وصح قول النبي صلى الله عليه وسلم: لم تخل البلاد من قائم (٤٥ — ب) لله بنصر دينه، ولطف الله بالمسلمين بعده، وولى الشهيد قدس الله روحه. ولما ملكها أقام بها ليقرر (٣) قواعدها، ويصلح أمورها، ويعمر ما خرب من بلدها بتوالى غارات الفرنج عليها (٤) ففرغ من جميع ما أراده (٥).

وفى سنة ثلاث وعشرين [وخمسمائة]. سار إلى حماة فملكها (٦).

ذكر الحرب بين الشهيد أتابك وبين الملوك الأرتقية (٧)

وملك مدينة سرجة ودارا وما إليهما

فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، إجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره (٨) وحسام الدين تمرتاش بن إيلغازى — وهو ابن عم داود — وانضم إليهما (٩) صاحب آمد (١٠) وغير من ذكرنا، وجمعوا من الأمراء من انتهت قدرتهم إلى جمعه ومن (١١) العساكر والتركمان، وكان داود مطاعا فى التركمان، حتى أن نشابته كانت إذا وصلت حلة منهم، تبرك بها رجالهم ونساؤهم فاستمدهم واستنجدهم، فجاءوه على الصعب والذلول، فاجتمعوا فى نحو عشرين ألف مقاتل،

---

(١) بزاعة: فى (ياقوت): سمعت من أهل حلب من يقوله بالضم والكسر. ومنهم من يقول: بزاعا، بالقصر. وهى بلدة من أعمال حلب فى وادى بطنان، بين منبج وحلب، وبين كل واحدة منهما مرحلة. وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة. (٢) فى، الكامل (ح/٨/ص/٣٢٦) أنه ملكها فى أول المحرم من السنة.
(٣) بالأصل: ليقررر. (٤) بالأصل: عليه. (٥) فى ابن واصل (ح/١/ص/٤٠) أن عماد الدين، بعد أن استولى على حلب، سار منها إلى خدمة السلطان محمود فى تجمل عظيم، ثم عاد إلى الموصل ومعه منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما، بعد أن يحمل للسلطان وأصحابه ما يزيد على مائة وعشرين ألف دينار. وفى ابن العديم (ح/٢/ص٢٤٣)، أن عماد الدين سار إلى السلطان بعد استيلائه على حماة، ثم عاد «بالتواقيع السلطانية بملك الغرب». (٦) فى الكامل (ح/٨/ص/٣٢٩) تفاصيل استيلاء عماد الدين عليها غدراً. (٧) بالأصل الاراتقية. (٨) بالأصل: وغيرها. (٩) بالأصل: اليهم. (١٠) هو سعد الدولة أبو منصور إيكلدى بن فخر الدولة إبراهيم. (ابن واصل، ح/١/ص/٥٤). (١١) بالأصل: من.

(٤٦ — أ) وسار إليهم الشهيد ولقيهم بالقرب من دارا (١) — وهى لهم أيضا — فاقتتلوا قتالا شديدا ، صبر [فيه] عسكر الشهيد — وهم نحو أربعة آلاف فارس — لشجاعتهم ، وصبر عسكر الأرتقية لكثرتهم ، ثم انجلت الوقعة عن هزيمة الأرتقية ، فلما انهزموا حصر سرجة (٢) فملكها وانتقل إلى دارا فملكها أيضا . فحكى لى والدى ، قال : لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومعه من سلم من عسكره ، فقصد بلد جزيرة ابن عمر فنهبه وأخربه ، وبلغ الخبر إلى أتابك فسار نحو الجزيرة ، وأراد أن يتبعه إلى ديار بكر ، فلم يمكنه لضيق المسالك وخشونة الطريق بها ، ومع هذا فجميعها لداود ، فخاف أن يمسك عليه المضايق ويناله أذى . ثم إنه صالح القوم وعاد عنهم.

ذكر فتح حصن الأثارب من الفرنج(٣)

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه ، من أمر الملوك الأرتقية وصالحهم وأمن ناحيتهم ، سار إلى الشام ، وقد جمع واحتشد ، وأعد واستعد ، وصمم العزم على الجهاد ، وإجلاء أهل الزيغ والعناد ، وإعلاء كلمة (٤٦ — ب) الله تعالى ، وإدحاض كلمة الشيطان ، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الصلبان ، وقصد إلى حصن الأثارب(٤) ونازله ، وأنزل بأهله التثريب ، وعم بلادهم بالنهب والإحراق والتخريب . وكان هذا الحصن أضر شىء على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج ما بين حرب وخرب(٥) . وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوى البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هو من أخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين فى نحورهم ، فتابع الشهيد قتالهم ، وأدمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب من كل مكان ، ولاذ ربه من سطوته وبأسه بالجدران(٦) ، وعمهم الرعب فصاروا يحسبون كل صيحة أنى تسلكون ، وسقط فى أيديهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم وأحسنوا الذب عنهم وعنه . فلما علم ملك(٧) الفرنج الحال ، جمع الفرسان الفرنجية واستشارهم فى الذى يصنعون ، وبأى حيلة فى دفعه عن بلادهم يدافعون (٤٧ — أ) فأما أهل الغرة والجهل فهونوا حاله ، وبذلوا من أنفسهم قتاله ، ظناً منهم أنه كمن تقدم من الملوك ، لا يستعملون غير الفرار من الزحوف ، والاحتماء بعريض

---

(١) دارا : فى (ياقوت) : تقع بين نصيبين وماردين فى لحف جبل . (٢) سرجة : فى (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه وجيم . يشبه أن تكون كلمة فارسية من « سروجة » ومعناه « رأس البئر » وهو حصن بين نصيبين ودنيسر ودارا ، من بناء الروم القديم ، وهو باق إلى الآن (أى إلى زمن ياقوت) يسكنه الفلاحون ، رأيته . فى طوله ستة أبراج ، وفى عرضه مما يلى الطريق أربعة أبراج . (٣) فى ، الكامل (حـ/٨/ص/٣٣١) أن فتح حصن الأثارب ، كان قبل حرب الأرتقية . (٤) حصن الأثارب : فى (ياقوت) : الأثارب ، قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ . (٥) بالأصل : بين حرب وحرب . ولعل اللفظ : خرب ، الذى اثبتناه هو الذى أراده ابن الأثير . (٦) بالأصل : الجداران . (٧) كان ملك الفرنج فى ذلك الوقت ، الملك فولك ، ملك بيت المقدس . (حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص/٢٤) .

الأسوار لا بحداد الأسنة ورقاق السيوف ، فعارضهم بعض من حضر من شياطينهم وذوى(١) الرأى والتجربة من طواغيهم ، وقال : إنى أرى(٢) شرراً سيكون له ضرام ، ودخاناً تحته شواظ ، أليس هذا الغضنفر(٣) الذى أثر فى طبرية بمفرده ما أثر ، فكيف به اليوم وهو فى عدة وعديد ، ومتطوعة وجنود ، فالقوا قناع التوانى ، ولا تسيروا إلى دفعه سير السوانى(٤) ، فلابد لهذا العارض(٥) أن يملأ بسيله الوادى ، ولهذه النار أن تعم بشررها النادى ، ولهذا الإقدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبادى ، ولئن لم نلقه(٦) بجموع ننتصف منه بها ، ونلحقه بمن تقدمه من مقدمى الجيوش ، ليكونن لنا منه يوم عصيب ، وليأخذن للمسلمين منا بأوفر نصيب . فحينئذ (٤٧ — ب) إهتموا بجمع الفرسان والأجناد ، وأحضروا من فى أطراف(٧) البلاد ، وجمعوا الدانى والقاصى ، والمطيع والعاصى ، وأقبلوا فى جموعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبنودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم(٨) ، وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها ، وامتلأ منهم شمالها وجنوبها ، هذا والرعب قد ألقاه الله فى قلوبهم فهم منه وجلون ، والخوف قد عم رئيسهم ومرءوسهم فهم منه خائفون ، يقدمون فى مسيرهم رجلا ويؤخرون أخرى ، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأحرى(٩) ، لكن آجالهم تسوقهم إلى مصارعهم(١٠) فهم نحوها يبرزون ، وكأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

فلما تدانى الزحفان استشار المولى(١١) الشهيد وزراءه وأمراءه ، فأشار أكثرهم بالعود إلى حلب ، ومطاولة الفرنج إلى أن يتفرقوا ، فقال : هذه خطة (٤٨ — أ) خسف تجرئهم علينا ، وتطمعهم فيما لدينا ، لكن الرأى أن نستعين بالله عليهم ونلقاهم ، فإما لنا وإما علينا(١٢) ، وتأهب للقائهم ، وسار إلى تلقائهم ، فلم يبعد حتى وافاهم ، ولم يغب الحصن عنه حتى أتاهم ، ونشبت(١٣) الحرب بين الفريقين ، واشتد الطعن والضرب بين الطائفتين ، وحمى الشهيد للإسلام وانتصر ، ولبس لأعدائه جلد النمر ، وصال عليهم وزأر ، وقال لهم ذوقوا من سقر ، وظل يوسعهم بحملاته حطماً ، ويستأصل أركانهم هدماً ، ويحرض أصحابه ويدمنهم(١٤) ويتابع الحملات عليهم يأمرهم .

فحيث رأى الفرنج ما قد أحاط بهم من البلاء ، وعمهم من الشدة واللأواء ، علموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب ، وأنى لهم ذلك وقد علقت معالقها وصر الجندب(١٥) ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، وكثر فيهم الأسر والقتل .

---

(١) بالأصل : وذووا . (٢) بالأصل : أرا . (٣) بالأصل : الغظنفر .

(٤) السوانى : جمع سانية . والسانية ، الناضحة وهى الناقة التى يستقى عليها . وفى المثل : سير السوانى : سفر لا ينقطع . (مختار الصحاح) . والمراد هنا فى النص ، السير المتمهل . (٥) العارض : السحاب .

(٦) بالأصل : نلقيه . (٧) بالأصل : الأطراف . (٨) أنظر الصفحة التالية ، حاشية / ٤ .

(٩) بالأصل : واجراى . (١٠) بالأصل : مصارعتهم . (١١) بالأصل : المولاى .

(١٢) بالأصل : إلينا . (١٣) بالأصل : ونشت . (١٤) يدمنهم : أى يحرضهم على مداومة القتال .

(١٥) الجندب : ضرب من الجراد . (مختار الصحاح) .

فلما تعذرت(١) عليهم الهزيمة ، حموا أنفسهم اللئيمة(٢) ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ، والجلاد (٤٨ — ب) عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات ، والإخوان والأخوات(٣) ، فحينئذ صدقوا القراع ، وأحسنوا المصاع ،وصال ملوكهم وقامصتهم(٤)، وفرسانهم وداويتهم(٥)، وقاتلوا قتال من أيس من النجاة بالإنهزام ، فطلبهم(٦) [زنكى] بصدق القتال والإقدام ، ولقيهم الشهيد لقاء محتسب للآخرة :

فأثبت(٧) فى مستنقع الموت رجله   وقال لها من تحت أخمصك الحشر(٨)

ففلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام ، وأجلت الوقعة عن رءوس بلا غلاصم ، وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغماداً ، وأدركت خيله منهم ثأراً وأحسنت جلاداً ، وأمر الشهيد فيهم بالإثخان ، ومنع من الأسر وإعطاء الأمان ، فملأت جثث القتلى تلك الصحراء فى الطول والعرض ، وتأول قوله تعالى ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض(٩) ﴾ وقصد أن يملأ قلوبهم رعباً ، ويذعرهم عن البلاد سرباً سرباً ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملا (٤٩ — أ) أو ابتغى بالإختفاء بين القتلى موئلا(١٠)، فلما

---

(١) بالأصل : تعذر .   (٢) بالأصل : الليمة .   (٣) بالأصل : الحوات .   (٤) القامصة ، جمع قومص . والقومص تعريب حرفى للفظة اللاتينية (Comes) أى الأمير . ومعناها الأصلى فى اللاتينية « الرفيق » ، لأنه كان فى بادىء الأمر يرافق الملك فى حروبه وتنقلاته . ولفظة (Comes) اللاتينية ، هى التى حورت فى اللغة الفرنسية إلى Comte . واعتادت المراجع العربية أن تعربها إلى : « كد » و « كند » و « قند » ، ويجمعونه على كنود . (ابن واصل ، ح/١/ص/٧٣/حاشية/١) .   (٥) نسبة إلى الديوية ، وهم قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ، ويمنعون أنفسهم عن النكاح وغيره . ولهم أموال وسلاح ، ولا طاعة عليهم لأحد . (النجوم الزاهرة ، ح/٦/ص/٣٣/حاشية/٣) . وفى (السلوك ، ح/١/ص/٦٨/حاشية/٤) ، أن إسمهم الإفرنجى Templiers . وأن المسلمين أطلقوا عليهم إسم « جمعية فرسان المعبد » . وقد أسس هذه الجمعية Hugh de payns سنة ١١١٩ . م ، لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ، ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية . وكان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير فى تاريخ الإمارات الإسلامية . ويقول ابن الأثير (الكامل ،ح/٩/ص/٢١٤) ، إن المسلمين كانوا يثقون بعهود الديوية وذلك « لأنهم أهل دين يرون الوفاء » .

وهناك جماعة حربية دينية مسيحية أخرى تعرف عند المؤرخين العرب ، بالإسبتارية — وسيرد ذكرهم فيما يلى من النص — وعند الغربيين باسم Hospefellers . وهم أيضاً فرسان مثل الديوية . وفى (السلوك ، ح/١/ص/٦٨/حاشية /١) ، أن الإسبتارية تأسست سنة ١٠٩٩ . م ، على يد Blessed Girrard ، بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكان لهم دار ببيت المقدس قبل ذلك بزمن طويل ، مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين ، ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية . وكان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير فى تاريخ الإمارات بالشام . وفى (النجوم الزاهرة ، ح/٦/ص/٣٣/حاشية/ ٢) ، أن الإسبتارية طائفة من رجال الدين ، كان مبدأ أمرهم فى القرن التاسع الميلادى فى إيطاليا ، وتعرف باسم : Notre-Dame de la Scale ، ثم زاد عددهم فى الحروب الصليبية لمساعدة الصليبيين من جهة ، والدعاية لنشر الدين من جهة أخرى ، وهم فرق كثيرة مختلفة .

وكان للديوية عدة معاقل وحصون بالشام منها : غزة — وهى معقلهم — وصفد ، وبيت الأحزان ، وبيت جبريل . (الروضتين ، ح/١/ص/١٩٣ ؛ ح/٢/ص/١١/١٢١) . كذلك كان للإسبتارية عدة معاقل وحصون ، منها : حصن الأكراد ، والمرقب . (السلوك ، ح/١/ص/١٦١)   (٦) بالأصل : فطلبها .   (٧) بالأصل : واثبت .

(٨) بالأصل : الحشرة . والبيت ورد بالأصل نثرا ، وهو من قصيدة للشاعر أبى تمام ، رثى بها محمد بن حميد الطائى .

(٩) سورة الأنفال : ٦٧ .   (١٠) بالأصل : مؤيلا .

استقر له(١) النصر ، وآل به إلى الظفر الصبر ، رجع إلى الحصن فملكه عنوة وقهراً ، وعم كل من فيه قتلا وسبيا وأسرا. ولقد سمعت من يحكى أن عظام القتلى لم تزل بتلك الأرض مدة طويلة. ولما ملك الحصن أخرب به ومحا(٢) أثره ، وأزال من تلك الأرض ضرره ، كما قال فيه الشاعر(٣) حيث يقول :

ما ربع مية معموراً يطيف به   غيلان أبهى ربى من ربعها الخرب(٤)
ولا الخدود وإن أدمين من خجل   أشهى إلى ناظر من خدها الترب

قال . ثم رحل إلى حصن حارم(٥) فحصره ، فأنفذ من لم يحضر المعركتين من الفرنج ومن نجا منهما(٦) يسألون الصلح ، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم ، فأجابهم إلى ذلك ، لأن عسكره كان قد كثر فيهم الجراحات والقتل ، فأراد أن يستريحوا ويريحوا ، فهادنهم وعاد عنهم . وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر ، وسيرت البشائر إلى البلاد ، وأعلنت فى الحاضر والباد .

(٤٩ — ب) ذكر وفاة السلطان الملك مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه

فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة(٧) ، توفى السلطان محمود بهمذان ، وكان عمره نحو ثمانية وعشرين سنة(٨) . وكانت ولايته ماتقارب أربع عشرة سنة(٩) . وكان حليما ، كريماً ، عاقلا ، عادلا ، كثير الإحتمال . ووزر له أبو القاسم الأنساباذى(١٠) ، وهو الذى سعى بالعزيز المستوفى(١١) حتى قبض [عليه] وسلم إلى بهروز شحنة العراق فسجنه بتكريت(١٢) ، ثم قتل سنة ست وعشرين .

ولما توفى السلطان محمود ، طلب السلطان مسعود بن محمد السلطنة ، وطلبها [أيضاً] أخوه

---

(١) بالأصل: استمر . (٢) بالأصل : محى . (٣) الشاعر هو أبو تمام ، والبيتان من قصيدة له فى وصف عمورية — وكانت للروم — بعد أن أخربها الخليفة العباسى المعتصم بالله سنة ٢٢٣ ، بعد حرب طاحنة . (٤) بالأصل : الحرب . (٥) حارم : فى (ياقوت) : بكسر الراء . حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية . (٦) بالأصل : منها . (٧) فى (الكامل ، ج/٨/ص/٣٣٣) أنه توفى فى شوال من السنة . (٨) فى (الكامل ، ج/٨/ص/٣٣٣) ، كان عمره سبعا وعشرين سنة . (٩) فى الكامل (ج/٨/ص/٣٣٣) ، كانت مدة ولايته اثنى عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً . وما هنا أصح ، لأنه ولى السلطنة — كما فى الكامل — فى ٢٤ ذى الحجة سنة ٥١١ ، وتوفى فى شوال سنة ٥٢٥ . (١٠) ذكره العماد الكاتب فى «تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/١٠٨ ، وما بعدها ،» أبو القاسم الدركزينى أيضاً . وأخباره مفصلة عند العماد . وتوفى أبو القاسم سنة ٥٢٧ . (١١) هو أحمد بن حامد ابن محمد أبو نصر . (الكامل ، ج/٨/ص/٢٣٨) ، وهو عم العماد الكاتب الأصفهانى صاحب « تاريخ دولة آل سلجوق » وغيره ، وقد ذكر العماد محنة عمه فى كتابه المذكور . (١٢) تكريت: فى (ياقوت) : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب ، وبينها وبين بغداد ثلاثون فرسخا . ولها قلعة حصينة فى طرفها الأعلى ، راكبة على دجلة . وهى غربى دجلة .

سلجوق شاه بن محمد ، والملك داود بن السلطان محمود(١) ، وكان بينهم حروب كثيرة ، نذكر منها ما كان للشهيد عماد الدين — قدس الله روحه — فيها أثر وفعل ، ونترك الباقى إذ هو خارج عن غرضنا .

ذكر ملك السلطان الملك العادل مسعود

والحروب الحادثة إلى أن ملك

لما مات السلطان محمود ، اتفق الوزير (٥٠ — أ) الأنساباذى(٢) وأتابك سنقر الأحمديلى على [تولية] ولده الملك داود بن محمود ، وخطبوا له فى جميع بلاد الجبل وآذربيجان ، وساروا إلى زنجان.

وكان السلطان مسعود بكنجة — وهى له — فلما بلغه موت أخيه سار إلى تبريز فملكها ، فسار إليه الملك داود فحصره بها ، ثم أفرج عنه حتى خرج منها وقصد(٣) بلاد الأمير قفجاق(٤)، فاجتمعت العساكر عليه بها سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وسار إلى بغداد وهو فى عشرة آلاف فارس ، وسار قراجة الساقى صاحب خوزستان وفارس إلى بغداد ، ومعه الملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد ، وقراجة يريد أن يأخذ السلطنة لسلجوق شاه ، وقد اجتمع معه عسكر عظيم ، وأتاه جماعة من الأمراء الكبار ، منهم يوسف جاووش وغيره ، فسبق سلجوق شاه أخاه السلطان مسعوداً إلى بغداذ ونزل بدار السلطنة ، وأرسل السلطان مسعود إلى الشهيد عماد الدين — قدس الله روحه — يستميله ويستنجده ، فأجابه إلى ما طلب (٥٠ — ب) منه ، وسار عن الموصل إلى بغداد ، فبلغ تكريت ليجتمع بالسلطان مسعود ، وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية الخالص قريب بغداد .

فلما سمع قراجة وسلجوق شاه بوصول الشهيد إلى تكريت ، عبر قراجة إلى الجانب الغربى ، وأسرى إلى تكريت فى عسكره جميعه ، ولم يخلف ببغداد مع سلجوق شاه غير عدد يسير ، ولم يزل يسير حتى وصل إلى تكريت فى يوم وليلة ، فواقعه(٥) الشهيد فهزمه قراجة وأسر أكثر أصحابه ، وعاد إلى بغداد .

وأما الشهيد ، فإنه عاد من الهزيمة إلى الموصل(٦) ، فجمع العساكر وأنفق الأموال فعادوا كأنهم لم يصابوا .

---

(١) فى ابن واصل (ح/١/ص/٤٦) ، أن عماد الدين أرسل أيضاً إلى الخليفة المسترشد بالله يسومه أن يخطب ببغداد للملك ألب أرسلان بن السلطان محمد الذى يشرف على تربيته . فاعتذر الخليفة بأن ألب أرسلان ما زال صبياً ، وأن السلطان محمودا عهد بالسلطنة لداود ، وأنه — أى الخليفة — منتظر رأى السلطان سنجر لأنه عم القوم .

(٢) بالأصل : الإنساء بادى (أنظر ما سبق ، ص/٤٢) . (٣) بالأصل : وقصدها . (٤) هو الأمير قفجاق بن أرسلان تاش التركمانى ، وكانت له شهرزور وأعمالها . (الكامل ، ح/٨/ص/٣٦٨) .

(٥) بالأصل : فواقم . وفى الكامل (ح/٨/ص/٣٣٦) ، أن الموقعة كانت فى مكان يقال له « المعشوق » .

(٦) ذكر ابن الأثير فيما يلى من النص ، فى خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ، فى المرة الأولى ، وكذلك فى الكامل =

وأما السلطان مسعود ، فإنه تقدم من العباسية(١) ، وجرى بينه وبين أخيه سلجوق [شاه] مناوشة ، فلما بلغه خبر الهزيمة الكائنة على الشهيد ، فت ذلك فى عضده ، وأضعف نفسه فعاد إلى ورائه.

وكان قد وصل الخبر بوصول السلطان سنجر إلى نواحى همذان — وكان قد خرج فى عساكر لا تحصى من خراسان ، ومعه (٥١ — أ) الملك طغرل بن السلطان محمد ليرتبه فى السلطنة — فلما اتصل خبر وصوله [بغداد] ، أرسل الخليفة المسترشد بالله إلى السلطان مسعود يأمره بالتوقف، ليقرر الصلح بينه وبين أخيه سلجوق شاه ، ليتفقا على قتال عمهما السلطان سنجر ، فأقام. وترددت الرسل ، واستقر الصلح على أن تكون السلطنة لمسعود ويكون سلجوق شاه ولى عهده ، وعاد السلطان مسعود إلى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وحضر أخوه سلجوق شاه فى خدمته .

وسارا جميعاً إلى قتال عمهما(٢) السلطان سنجر ، وألزما المسترشد بالله بالمسير معهما فامتنع ، فتهدده قراجة الساقى ، فخرج مكرها منها وسار بعدهما .

وأرسل السلطان سنجر إلى الشهيد يأمره أن يقصد بغداد هو ودبيس بن صدقة ملك العرب ، — وكان [دبيس] عند الشهيد على ما نذكره إن شاء الله تعالى — ويستوليا عليها ، ويخطبا له ببغداد وبعده للملك طغرل .

(٥١ — ب) ذكر الحرب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود

لما سار السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه إبنا محمد إلى حرب عمهما السلطان سنجر ، جعلا على المقدمة يرنقش بازدار ، ويوسف جاووش ، وحسين أوزبك ، وهم من أكابر الأمراء ، فلقيتهم طلائع السلطان سنجر بداى مرك(٣)، فرجعوا إلى كرمان شاه ، وكان على مقدمة السلطان سنجر ، الملك طغرل بن محمد ، وخوارزمشاه ، والأمير قماج . ورحل السلطان سنجر من همذان يريد السلطان مسعوداً ، فعاد مسعود عن طريقه ، فتبعه السلطان سنجر ، فالتقيا قرب الدينور ، وكان العسكران كالبحرين كثرة(٤) . وكان على ميمنة السلطان سنجر طغرل وقماج ، وعلى ميسرته

=(ح/٨/ص/٣٣٦) مساعدة نجم الدين أيوب — والد صلاح الدين — الذى كان دزدار تكريت ، لعماد الدين بعد هزيمته . وفى الروضتين (ح/١/ص/٢١٠ — نقلا عن العماد الكاتب) معلومات أكثر مما فى النص و « الكامل » عن هذه المساعدة . حيث يذكر أن عماد الدين انهزم وبه عدة جراحات ، فلما علم به نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه حملاه إلى قلعة تكريت بالحبال ، وداويا جراحاته ، وخدماه أحسن خدمة وتقربا إليه . فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما ، ثم سار إلى الموصل ، وأعوزه الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر ، حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم من أمتعته. فكان عماد الدين يرى لأيوب هذه اليد ، ويعرف له هذه الصنيعة ، ويواصله بالهدايا والألطاف مدة مقامه فى تكريت . فلما انفصل أيوب عن تكريت وسار إلى عماد الدين ، تلقاه بالرحب والسعة واحترمه احتراماً عظيماً ، وأقطعه عدة قطائع .

(١) بالأصل : العباسة . (والتصحيح من الكامل، ح/٨/ص/٣٣٦).

(٢) بالأصل : عمها .

(٣) بالأصل : دامرج . (والتصحيح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ص / ١٦٢ . ولم يعرف بها ياقوت فى معجمه) .

(٤) بالأصل : كثيرة .

خوارزمشاه . وعلى ميمنة السلطان مسعود ، قراجة الساقى ، والأمير قزل ، [وكان قزل(١)] قد واطأ خوارزمشاه على الهزيمة بين يديه ، ليقع الوهن فى عسكر السلطان مسعود . فلما التقى العسكران ، حمل خوارزمشاه على قزل فانهزم ، واختلطت العسكر ، وارتفع العجاج ، وكان يوماً فامشهوداً ، وحمل قراجة الساقى على القلب — وفيه السلطان سنجر فى عشرين ألف(٢) (٥٢ — أ) رس ، هم أعيان العسكر وشجعانهم ، وبين يديه الأفيلة — فلما تقدم إلى القلب ، حمل طغرل وخوارزمشاه فيمن معهما ، فأتوه من وراء ظهره فصار فى الوسط ، فقاتل إلى أن جرح ، وقتل كثير من أصحابه وأخذ أسيراً ، وانهزم السلطان مسعود ، وقتل يوسف جاووش ، وحسين أوزبك فى المصاف ، وكان ذلك ثامن رجب .

ونزل السلطان سنجر ، وأرسل بعض خواصه إلى السلطان مسعود ، وقد بلغ خونج ، وأمنه واستدعاه إليه ، لحضر عنده وعاتبه على إقدامه عليه ، فاعتذر وأنسب ذلك إلى ايتكين الخادم ، فأمر به فضربت عنقه .

وأمر السلطان بالمسير إلى كنجة . فحكى لى والدى عن جماعة حضروا ذلك المصاف ، قال : أحضر السلطان سنجر قراجة الساقى وعاتبه على فعله ووبخه ، وقال له : إذا حاربنى أولاد أخى فليس يبعد(٣) أن يطلبوا السلطنة ، وأما أنت ، فما كنت تريد حتى تجمع العساكر وتوكب الناس على قتالى ، أكان(٤) يصير لك (٥٢ — ب) من الملك أكثر من بلاد فارس وخوزستان . قال : كنت أرجو أن أظفر بك وأقتلك ويكون أولاد أخيك بحكمى ، أقيم من أريد وأعزل من أريد . فغضب السلطان سنجر منه وأمر بقتله ، فقتل ، وأمر أن يشق صدره عن فؤاده فما رأى أكبر منه ، فألقى عليه حجرا كبيرا فلم يبعجه ، فقال: من يكون هذا فؤاده يحدث نفسه بما قال .

وخطب لطغرل ابن أخيه بالسلطنة فى همذان ، وأصفهان ، والرى ، وسائر بلاد الجبل .

وجعل فى وزارته(٥) أبا القاسم الأنساباذى(٦) وزير السلطان محمود .

ذكر وصول الشهيد إلى بغداد وهزيمته

لما سار المسترشد بالله عن بغداد مع السلطان مسعود ، أقام بخانقين ينظر مايكون من مسعود ، فلما سمع بهزيمته وقتل قراجة ، رجع إلى الدسكرة ، فأتاه الخبر بوصول أتابك الشهيد عماد الدين زنكى ودبيس بن صدقة إلى بغداد ، فأسرع العود إليها ، وعبر إلى الجانب الغربى فيمن معه من العساكر ، وكان فيهم (٥٣ — أ) كثرة ، فالتقوا لثلاث بقين من رجب سنة ست وعشرين

(١) الإضافة ، من الكامل (ح/٨/ص/٣٣٧) . (٢) فى الكامل(ح/٨/ص/٣٣٨) : عشرة آلاف .
(٣) بالأصل : بعد . (٤) بالأصل : لكان . (٥) بالأصل : وزراته . (٦) بالأصل : الاستراباذى . (انظر ، ما سبق ، ص/٤٢) .

وخمسمائة . فحكى لى والدى عن جماعة من أصحاب الشهيد ممن حضر المصاف ،قالوا : إشتد القتال وظهرنا على عسكر الخليفة ، ولم يبق غير أن ينهزموا ، فرأينا خيمة سوداء قد نصبت عند المعركة ، وخرج المسترشد بالله منها راكباً بسواده وبيده سيف مسلول ، فكلهم قالوا لما رأيناه : لحقنا دهشة ورعدة حتى كاد السلاح يسقط من أيدينا ، فكانت الهزيمة علينا ، ولم نطق الثبات فانهزمنا ونحن لانعقل . وكان ابتداء الهزيمة من دبيس فإنه انهزم أولا ، وعاد الشهيد إلى الموصل . وعاد المسترشد بالله إلى بغداد . وأما دبيس فإنه قصد نحو الحلة ، وجمع جمعاً وسار إليها ، وبها جمال الدولة إقبال المسترشدى ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم دبيس أيضاً .

ذكر السبب فى مصير دبيس[1] عند الشهيد

رضى الله عنه

كان دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن على بن مزيد (٥٣ — ب) ملك العرب صاحب الحلة ، قد جرى بينه وبين المسترشد بالله نفرة ووحشة غير مرة ، أوجبت شكوى المسترشد بالله منه إلى السلطان محمود والسلطان سنجر ، وجرى له أقاصيص طويلة اقتضت الحال أخيراً[2] إبعاده عن العراق .

وكان شريراً خبيث الطوية . وكان من أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين وأكثرهم وقيعة فيه . فسار عن العراق سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، عازما على قصد الشام ، إلى حصن صرخد ليملكه . وسبب ذلك أن صرخد كانت بيد أمير اسمه أكن ، فتوفى وخلف زوجة حدثت نفسها أنها تملك الحصن ، فقال لها بعض أصحابها : إن هذا لا يتم لك إلا برجل يتزوجك من الأمراء الأكابر ، وحسن لها الإتصال بدبيس ، فأرسلت إليه تدعوه ليتزوجها وتسلم إليه صرخد . فسار إلى الشام فلقيه سوء نيته ، فضل فى البر فأسره قوم من بنى كلب ، وسلموه إلى تاج الملوك [بورى] ابن طغدكين أتابك ، صاحب (٥٤ — أ) دمشق . فلما حصل عنده ، أرسل إليه الشهيد يطلبه منه وبذل فيه مالا ، فامتنع من تسليمه ، فتهدده أتابك بقصد بلاده ومحاصرتها ، فسلمه إليه[3] . فلما صار عنده ، جازى إساءته بإحسان ، وأنعم عليه وخوله[4] ، وأعطاه المال والخيام والسلاح والخيل وكل ما يحتاج إليه الملوك ، وبالغ فى إكرامه إلى غاية لا مزيد عليها .

ولما اتصل خبر مصير دبيس إلى دمشق بالمسترشد بالله ، أرسل إلى تاج الملوك مع سديد الدولة بن الأنبارى صاحب ديوان الإنشاء ببغداد ، يطلب منه أن يسلم دبيساً إليه . فلما وصل

---

(١) الاسم مكرر بالأصل . (٢) بالأصل : اخيرة . (٣) فى « الكامل (ح/٨/ص/٣٣٣) ، أن عماد الدين عرض على تاج الملوك أن يسلمه دبيسا ، فى مقابل إطلاق سراح ابنه سونج والأمراء الذين قبض عليهم فى حماة ، فأجابه إلى ذلك . (٤) فى (مختار الصحاح) : خوله الله الشيء : ملكه إياه . وخول الرجل : حشمه .

دمشق وعلم بمصير دبيس عند الشهيد ، تسمج وذكره بما يكرهه ، فاتصل ذلك بالشهيد — وكان له فى كل بلد من يطالعه بالأخبار — فامتعض لذلك ، وأرسل الإلى بزية وجهزها بالرجال ، وأمرهم بأخذ ابن الأنبارى وحمله ، فلما عاد أخذ بنواحى الرحبة وحمل إلى الشهيد فحبسه بالموصل ، فأرسل الخليفة (٥٤ — ب) المسترشد بالله يشفع فيه ، فأطلقه وأحسن إليه .

وهذه كانت عادة الشهيد فى حزمه واحتياطه ، لا يمكن رسول ملك يعبر فى بلاده بغير أمره ، وإذا استأذنه رسول فى العبور فى بلاده ، أرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول إليه يدخل بلاده ويخرج منها ، ولم يعلم من أحواله شيئاً ألبتة .

وفى هذه السنة — أعنى سنة ست وعشرين وخمسمائة — ملك الشهيد قلعة بهمرد(١) من ديار بكر . فانظر إلى هذه الهمة ، قد كان فى هذه السنة من الأمور العظيمة ، واختلاف السلاطين ، وانهزامه دفعتين ، ولم يشغله ذلك عن زيادة فى ملكه ، بمثل هذا الحصن العسير(٢) .

ذكر حصر المسترشد بالله(٣) أمير المؤمنين الموصل

فى ربيع الأول من سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، برز المسترشد بالله من بغداد إلى الرملة ، فنزلها وجمع العساكر . وكان قد قصده (٥٥ — أ) عدة أمراء من العساكر السلطانية للخلف الواقع بينهم ، فقوى بهم المسترشد واستبد بالعراق وجبى الأموال ، وأرسل الإمام أبا الفتوح الإسفرائينى(٤) الواعظ إلى الشهيد ، فاغلظ له فى القول ، فأهانه الشهيد غاية الإهانة(٥) وعاد [إلى] المسترشد بالله ، فعند ذلك سار إلى الموصل فى ثلاثين ألفا ، فلما بلغ الخبر إلى الشهيد ، رحل عن الموصل فى بعض عسكره ، وترك الباقى بالموصل مع نائبه بها نصير الدين جقر ، ونزل أتابك الشهيد بظاهر سنجار . فحدثنى والدى ، قال : نزل المسترشد بالله على الموصل فى عسكر عظيم ؛ وحفظها نصير الدين أحسن حفظ ، وقام فيها المقام المرضى . وكان الشهيد يرسل السرايا يقطع الميرة عن عسكر الخليفة من كل ناحية ، فقلت الميرة ، وعزت الأقوات عنهم وصاروا شبه المحصورين ، فأقام الخليفة محاصرا لها نحو ثلاثة أشهر فلم يظفر منها بشىء ، ولم يظهر له من العسكر (٥٥ — ب) بالبلد مايدل على وهن وضعف ، فعاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضا . فقيل كان سبب عوده أن السلطان

---

(١) فى ، الكامل (ﺣ/٨/ص/٣٦٧) ، أن عماد الدين استولى عليها سنة ٥٣٥ . وهى لداود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا . وقد استولى عليها عماد الدين بعد حرب شديدة بينه وبين صاحبها .

(٢) بالأصل : اليسير . وهو تصحيف من الناسخ . وما أثبته المحقق أصح ، إذ أن اليسر فى الاستيلاء عليها ، يجعل إشادة ابن الأثير بعماد الدين غير ذات موضوع .

(٣) بالأصل : بالله .

(٤) بالأصل : الإسفرايينى . (والتصحيح من ، الكامل ، ﺣ/٨/ص/٣٤٠) .

(٥) فى الكامل (ﺣ/٨/ص/٣٤٠) ، أن الخليفة «أرسل أبا الفتوح الى عماد الدين برسالة فيها خشونة زادها أبو الفتوح ، ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة ، فقبض عليه عماد الدين وناله بما يكره» ، فسار الخليفة إلى الموصل وحاصرها .

مسعودا أرسل إليه معنظر(١)الخادم ـ أمير الحاج ـيشير بالعود ، فعاد ؛ وقيل بلغه عزم السلطان على قصد العراق ، فعاد . وقيل غير ذلك . وبالجملة فلو رأى أمارة ظفر وفتح لم يرحل . وكان عوده فى الشبارة(٢) ، وراسل أتابك الشهيد فصالحه وسير إليه الشهيد الخدم والهدايا .

ذكر ملك الشهيد قلاع [الأكراد](٣) الحميدية(٤)

وفى هذه السنة ، وهى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، إستولى الشهيد رضى الله عنه على سائر قلاع الأكراد الحميدية وولاياتهم ، منها قلعة العقر(٥) وقلعة شوش(٦) ، وغير ذلك . وسبب قصدها ، أنه لما ملك الموصل وأعمالها ، أقر الأمير عيسى الحميدى على ولايته ، ولم يعترضه فى شئ مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل ، حضر الأمير عيسى عنده فى جنده وجموعه ، وأمده بالأقوات (٥٦ ـ أ) وغيرها مما يحتاج إليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل ، أمر الشهيد بحصر قلاع الحميدية ، فحوصرت مدة طويلة ، وقوتلت قتالا شديدا إلى أن فتحت فى هذه السنة ، واطمأن أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم ، فإنهم كانوا معهم فى خطة خسف .

وفى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، سار الشهيد إلى مدينة آمد فحصرها وضيق عليها (٧) .

واستوزر ضياء الدين بن الكفرتوثى .

ثم رحل عن آمد إلى الشام فحصر مدينة دمشق(٨) .

وفيها توفيت والدة الشهيد بالموصل .

فى ذكر قتل أمير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد(٩)

كان السلطان مسعود سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ببغداد ، وقدضعف أمره وقوى أمر(١٠)

---

(١) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٤٠) : نصر . (٢) الشبارة : نوع من السفن . (٣) الإضافةمن، الكامل (ح/٨/ص/٣٤٣) . (٤) بالأصل : الحونية . (والتصحيح من النص نفسه ، ومن الكامل ، ح/٨/ص/٣٤٣) . (٥) قلعة العقر : فى (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه . قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد ، وهى شرقى الموصل ، تعرف بعقر الحميدية . (٦) قلعة شوش : فى (ياقوت) : بتكرار الشين وسكون الواو . موضع قرب جزيرة ابن عمر من نواحى الجزيرة . والشوش قلعة عظيمة عالية جدا قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل . قيل هى أعلى من العقر وأكبر ، ولكنها فى القدر دونها .

(٧) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٤٣) أن حصار آمد كان فى جمادى الآخرة من السنة ، ولما عجز عماد الدين عنها استولى على قلعة « الصور » . (٨) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٤٦) ، أن حصار دمشق كان سنة ٥٢٩ . وفى « المنتظم » (ح/١٠/ص/٤٣) ، أنه لما حاصر عماد الدين دمشق ، بعث أصحابها إلى الخليفة « حملا كثيرا وخطا بخمسين ألف دينار ، وقالوا : إدفع عنا زنكى ونحن نحمل هذا فى كل عام . فبعث إليه : تنح عنهم واخطب للصبى (أى للملك ألب أرسلان الذى يشرف عماد الدين على تربيته) وتعال معه إلى العراق حتى أخطب له ونتساعد على مسعود . فقال : السمع والطاعة ، وخطب للصبى » . (٩) بالأصل : الراشدة . (١٠) بالأصل : أمره .

أخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل . فراسل السلطان مسعود ، المسترشد بالله يستميله ويطلب منه المساعدة على أخيه طغرل ، فأجيب إلى ذلك ، وأمده بالأموال والرجال (٥٦ — ب) فضعفت نفس السلطان مسعود عن المسير ، لأن عمه السلطان سنجر ، كان يقوى أمر الملك طغرل ويشد منه . فلما رأى الخليفة تأخر السلطان مسعود عن المسير ، أرسل إليه يأمره بتعجيل الحركة ودفع أخيه عن البلاد ، فلم يفعل . فأعاد الأمر ثانيا وكرر ذلك ، فلم يتحرك . فأرسل إليه أخيراً جاولى القسيمى ، شحنة بغداد ، مضايقا له على المسير إلى بلد الجبل وإزاحة أخيه عن البلاد ، وأمره إن رأى من السلطان مدافعة أن يلقى خيمه . فلما علم السلطان حقيقة الأمر ، عظم عليه ونادى فى العسكر ليتجهزوا للرحيل . فبينما هم فى التجهيز ليرحلوا ، وإذا قد ورد الخبر بوفاة السلطان طغرل . وكانت (١) وفاته فى المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة . فأسرع السير إلى همذان ، واجتمعت عليه العساكر . واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد . ثم وقع الخلف فى عسكره واستوحش منه جماعة من الأمراء منهم الأمير قزل آخر ، ويرنقش بازدار ، وسنقر الخمارتكينى (٥٧ — أ) والى همذان ، وعبد الرحمن [بن(٢)] طغايرك وغيرهم ، وانفردوا عنه فى عدد كثير وساروا نحو البشير لموافقة كانت بينهم وبين برسق بن برسق صاحب خوزستان ، وأقاموا ينتظرونه وكانوا فى سبعة آلاف فارس ، فسار إليهم السلطان مسعود جريدة فى ثلاثة آلاف وكبسهم وهزمهم وفرق شملهم ، وولوا مدبرين نحو بغداد ، فوصلها منهم يرنقش بازدار ، وقزل آخر ، وسنقر الخمارتكينى ، وأخبروا المسترشد بالله عن سوء ضمير السلطان له ، ووعدوه(٣) النصر والمساعدة عن أنفسهم وعن جماعة من أكابر الأمراء ، وحسنوا له قتال السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وقطع خطبة السلطان ببغداد ، وسار عنها فى شعبان من هذه السنة . وأتاه فى الطريق برسق بن برسق ، فاجتمعوا فى سبعة آلاف فارس ، واستخلف فى بغداد جمال الدولة إقبال فى ثلاثة آلاف فارس ، وراسل أصحاب الأطراف ، المسترشد بالله يبذلون(٤) له الطاعة ، فتريث(٥) فى (٥٧ — ب) الطريق ، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم فمالوا إليه وساروا نحوه . وكان قبل إصلاحهم فى نحو ثلاثة آلاف فارس ، فصار فى خمسة عشر ألفا ، وأرسل إليه أتابك الشهيد نجدة فوصلت بعد المصاف .

وسار الخليفة إلى داى مرك ، فلما علم السلطان وصوله ، استعد لقتاله وسار إليه فعبأ الخليفة عسكره ، وكان فى الميمنة يرنقش بازدار(٦) ، وسنقر الخمارتكينى ، وبرسق ابن برسق والغلمان الدارية . وكان فى ميسرته جاولى وغيره . ووقف الخليفة فى القلب ، والتقوا عاشر رمضان ، والتحم القتال ، فغدرت ميسرة الخليفة ومالت إلى السلطان ، وأحاطت عساكر السلطان بالخليفة وعساكره ، وكثر القتل والأسر(٧) فى عسكر الخليفة ، وأفضى الأمر إلى أن

(١) بالأصل : وكان . (٢) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٣٤٧) . (٣) بالأصل : ووعده .
(٤) بالأصل : يتبدلون . (٥) بالأصل : فرتب . (والتصحيح من الكامل ، ح/٨/ص/٣٤٨) .
(٦) بالأصل : وبازدار . (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٨/ص/٣٤٨) . (٧) بالأصل : والاسر .

أخذ بعنان فرسه وأنزل وقبض عليه ، وقبض أيضاً الوزير شرف الدين الزينبي(١) ، وقاضي القضاة(٢) ، وكمال الدين بن طلحة صاحب المخزن ، وابن الأنباري(٣) كاتب الإنشاء ، وخلق كثير ورفعوا (٥٨ — أ) إلى قلعة سرجهان بقرب زنجان ، وغنموا كل ما في العسكر .

وأنفذ السلطان [بك أبه المحمودي(٤)] شحنة إلى بغـــداد ، فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد(٥) ، فقبض جميع أملاك الخليفة ، وثارت الفتنة ببغداد ، ووثب العامة على الشيعة ، فقتل الشحنة منهم جماعة ، وجرى يوم العيد فيها فتنة ، وقتل جماعة ونهبت الأموال ، وبقي الخليفة المسترشد بالله في القبض إلى سادس عشر ذي القعدة ، فاتفق أن رسول السلطان سنجر وصل إلى السلطان مسعود ، فخرج إلى لقائه واشتغل الناس بذلك ، فهجم على الخليفة أربعة(٦) عشر نفرا من الباطنية ، وبقي خارج الخيمة عشرة رجال ، فضربوه بالسكاكين فجرحوه خمسا وعشرين جراحة ، وقطعوا رأسه ، وشقوا جوفه ، وجدعوه ، وأخذوا ثيابه وتركوه عريانا . وكانت خيمته خارج العسكر ، وقتل إمامه ابن سكينة ، وإنسان هاشمي . ووقع الخبر في العسكر ، فركبوا في السلاح وقتلوا عشرة من الباطنية وهرب أربعة(٧) عشر (٥٨ — ب) . وبقي المسترشد بالله مطروحا يوما وليلة ، فجاء أهل مراغة فحملوه إلى البلد وكفنوه ودفنوه بمقبرة سنقر الأحمديلي .

وكتب السلطان مسعود إلى شحنة بغداد — وهو الأمير بك أبه — ، يأمره بالبيعة للأمير أبي جعفر المنصور بن المسترشد بالله ، فبايعه يوم الإثنين السادس والعشرين من ذي القعدة . وحضر بيعته(٨) عشرون(٩) رجلا من أولاد الخلفاء : أولاد المقتدي بأمر الله عم والده ، وأولاد المستظهر بالله عمومته ، وأولاد المسترشد بالله إخوته . ثم بايعه الهاشميون ، ثم القضاة ، والعلماء والأمراء وغيرهم . وتلقب الراشد بالله ، واستقرت الخلافة له .

ذكر عمر المسترشد بالله وشيء من سيرته

رحمه الله تعالى

قال . كان مولده في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان عمره ثلاثا(١٠) وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام . وكانت خلافتـه سبع عشرة سنة وسبعة أشهر . وأمه أم ولد . وكان شهما (٥٩ — أ) شجاعا ، مقداما ، فصيحا .

(١) هو شرف الدين علي بن طراد الزينبي (الكامل ، ج/٨/ص/٣٤٩) . وترجمته في (شذرات الذهب ، ج/٤/ص/١١٧ — وفيات سنة ٥٣٨) . (٢) هو ، أبو القاسم علي بن الحسين الزينبي (ابن عم الوزير علي ابن طراد الزينبي) . (الكامل ، ج/٨/ص/٣٥٥) . وترجمته في (شذرات الذهب ، ج/٤/ص/١٣٥ — وفيات سنة ٥٤٣) . (٣) هو سديد الدولة محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم الشيباني . وقد توفي سنة ٥٥٨ . وترجمته في (شذرات الذهب ، ج/٤/ص/١٨٤) . (٤) الإضافة من الكامل (ج/٨/ص/٣٤٨) . (٥) بالأصل : عميد . (والتصحيح من ، الكامل ، ج/٨/ص/٣٤٨) . (٦) بالأصل : أربع . (٧) بالأصل : أربع . (٨) بالأصل : ببيعته . (٩) بالأصل : عشرين . (١٠) بالأصل : ثلاثه .

وتمكن فى خلافتة(١) تمكنا عظيما ، لم يره أحد ممن تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله(٢) إلى خلافته ، إلا أن يكون المعتضد بالله والمكتفى بالله ، لأن المماليك(٣) كانوا قديما يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق . فزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة(٤) الديلم . فلما ملك السلجقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لا سيما(٥) فى وزارة نظام الملك ، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها ، إلا أن الحكم والشحن بالعراق كان للسلطان وكذلك العهد(٦) وضمان البلاد . ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دخله . وأما المسترشد بالله فإنه استبد(٧) بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان(٨) معه فى كثير من الأوقات سوى الخطبة . واجتمعت عليه العساكر ، وقاد الجيوش (٥٩ — ب) وباشر الحروب . وقد أتينا على ذكر ذلك فى المستقصى فى التاريخ .

ذكر مسير الراشد بالله(٩) أمير المؤمنين

إلى الموصل مع أتابك الشهيد

فى سنة ثلاثين وخمسمائة ، سار الراشد بالله إلى الموصل صحبة أتابك عماد الدين زنكى ملتجئا إليه . وكان سبب ذلك ، أن العساكر السلطانية اختلفت على السلطان مسعود ، وكذلك أصحاب الأطراف ، وتراسلوا فى الاجتماع على قتاله وإقامة سلطان يرتضونه ، واستقر بينهم الاجتماع ببغداد . فسار أتابك الشهيد من الموصل إلى بغداد ، وقدمها الملك داود بن السلطان محمود فى عسكر أذربيجان ، وورد إليها يرنقش بازدار فى عسكر قزوين . وكان مع الملك داود الأمير عنتر بن أبى العسكر الجاوانى يدبر أمره . فلما اجتمعت العساكر ببغداد حسنوا للراشد الخروج معهم عن بغداد إلى السلطان مسعود ومحاربته ، فأجابهم إلى ذلك . وكان وزيره حينئذ جلال الدين أبا الرضى محمد بن أحمد بن صدقة (٦٠ — أ) الذى صار وزيرا لأتابك الشهيد فيما بعد . واجتمعوا على هذا العزم فى صفر سنة ثلاثين وخمسمائة . وظهر من الراشد بالله تنقل فى الأحوال ، وتلون فى الآراء(١٠) ، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه ، منهم : أستاذ الدار أبو عبد الله الحسين

---

(١) بالأصل : خلافه . (٢) بالأصل : المستنصر بالله . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٣١) . وقد ولى الخليفة المنتصر بالله الخلافة من سنة ٢٤٧ — ٢٤٨ . أما المستنصر بالله . فهو الخليفة الفاطمى ، الذى ولى الخلافة فى مصر ، من سنة ٤٨٧ — ٤٩٥ . (٣) المماليك : يقصد بهم الترك الذين دخلوا فى خدمة الدولة العباسية فى عهد الخليفة المعتصم بالله الذى ولى الخلافة سنة ٢١٨ . (الكامل ، حـ/٥/ص/٢٣١) واستمروا يستبدون بالحكم حتى سنة ٣٣٤ ، حيث تغلب عليهم بنو بويه الذين يذكرهم « النص » بالديلم ، وأستولى معز الدولة البويهى على بغداد فى هذه السنة ، فى عهد الخليفة المستكفى بالله (الكامل ، حـ/٦/٣١٤) وظلوا يستبدون بالخلافة حتى سنة ٤٤٧ حيث قضى عليهم السلاجقة (الكامل ، حـ/٨/ص/٧١) . (٤) بالأصل : دولته . (٥) بالأصل : الاسما .

(٦) بالأصل : العمدا . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٣١) . (٧) بالأصل : اشتد . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٣١) . (٨) بالأصل : السلطان . (٩) بالأصل : بالله .

(١٠) فى المنتظم (حـ/١٠/ص/٥٥) ، أن الخليفة كان يضن على عماد الدين بالأموال ، فأثقل عليه عماد الدين حتى نقل له إقطاع الوكلاء ، ثم عاد الخليفة ودفع له ثلاثين ألف دينار ، وسحب منه الإقطاع . ويذكر أيضاً أن العلاقة تحولت

بن جهير ، وجمال الدولة إقبال المسترشدى ، وأراد القبض على وزيره جلال الدين بن صدقة ، فركب فى موكبه إلى أتابك الشهيد ، فنزل فى خيمه ، فأجاره وأمنه ، فركب الشهيد ووقف مقابل التاج ، وأرسل يشفع فى الذين قبض عليهم الراشد شفاعة تحتها إلزام وحكم ، فأطلقوا ، وسلم إقبال المسترشدى إلى الشهيد ، لأنه أظهر من العناية بأمره أكثر من غيره . فلما وصل إلى خيمه أكرمه واحترمه وأحسن إليه ، ولم يجازه على ما كان منه قديما من عداوته . ثم إن قاضى القضاة الزينبي خاف من الخليفة أيضاً ، فالتجأ إلى الشهيد فأمنه وأحسن إليه ، وقرر مع الملك داود (٦٠ — ب) أن يستوزر جلال الدين بن صدقة ، فاستوزره فى ربيع الآخر .

ثم ورد الخبر ، أن الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وصل إلى واسط فى جمادى الأولى فى عسكر كثير(١) ، فانحدر أتابك الشهيد إليه ليحاربه ، فوقع الخلف بين سلجوق شاه وبين أتابكه البقش ، وراسل الشهيد البقش فاستماله وحذره من سلجوق شاه فمال إليه ، وسار هو وجماعة من الأمراء إلى عسكره وفارقوا سلجوق شاه .

وعاد الشهيد إلى بغداد ومعه البقش وجماعة الأمراء ، فازداد أتابك الشهيد عظمة وعلو محل وكانوا لا يصدرون إلا عن أمره ورأيه .

ثم عاد الشهيد وأصلح أمر الوزير جلال الدين بن صدقة مع الراشد ، وإعادته إلى وزارته .

وكثر الفساد فى العراق ، وتطرق المفسدون والعساكر إلى نهبه ، فنهبوا(٢) الحريم الطاهرى(٣) ، وشارع دار الرقيق ، وكثيرا من بلد دجيل ، وبعض طريق (٦١ — أ) خراسان ونهبت الأموال أيضاً ببغداد علانية لا مانع لهم من ذلك .

ثم إن السلطان مسعوداً سار نحو العراق ، فبلغ الشماسية فى عسكر كثير ، فأراد من ببغداد من الملوك والأمراء قتاله ، ثم خافوا لما رأوا ما عندهم من الخلاف وتلون الخليفة الذى معولهم عليه . وتقدم السلطان مسعود إليهم فحصرهم نيفا وخمسين يوما ، فتسلل(٤) عسكره وقلوا ، فعاد إلى النهروان عاز ماعلى العود إلى بلد الجبل ، فوصله بالنهروان طرنطاى(٥) صاحب واسط ، وأخبره بما معه من السفن والمقاتلة فى الماء ، فسار السلطان مسعود إليها وعبر فيها تحت بغداد ،

= بين عمادالدين والخليفة إلى تخوف ، بحيث وضع الخليفة حرساً تحت قصر التاج لاستشعارا من عماد الدين ، ثم عادت المياه إلى مجاريها بينهما بعد ذلك .

(١) بالأصل : كثيراً . (والتصحيح من الكامل ، ح/٨/ص/٣٥٢) .

(٢) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٥٤) ، أن عماد الدين هو الذى أرسل من نهب الحريم الطاهرى ، فأخذوا منه أموالا كثيرة ، وذلك لما رأى أن العيارين ينهبونه .

(٣) بالأصل : الظاهرى . والتصحيح من (ياقوت) والحريم الطاهرى حى بأعلى مدينة السلام بغداد فى الجانب الغربى منها ، منسوب إلى طاهر بن الحسين ، وبه كانت منازلهم ، وكل من لجأ إليه أمن . فلذلك سمى الحريم ، وكان أول من جعلها حريماً ، عبد الله بن طاهر بن الحسين .

(٤) بالأصل : فتسلك .

(٥) بالأصل : الطرمطاى . والتصحيح من الكامل (ح/٨/ص/٣٥٤) .

وعبرت العساكر التى كانت ببغداد إلى الجانب(١) الغربى لمنعه فسبقهم . فلما رأوا ذلك علموا قوته فعاد كل منهم إلى بلده وولايته(٢) .

وخرج الراشد بالله من دار الخلافة ، ونزل على أتابك الشهيد ملتجئا إليه ، ومعه وزيره (٦١ — ب) ابن صدقة وجماعة من الخدم والأتراك وسار معه إلى الموصل . واستقر السلطان مسعود ببغداد فى ذى القعدة .

وأقام أتابك الشهيد للخليفة كل مايريده ، وبالغ فى ذلك ، وأرسل إليه من الأموال والعروض والآلات مالاحد عليه . وأقام بالموصل إلى أن سار على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المقتفى لأمر الله

أمير المؤمنين رضى الله عنهما أجمعين

لما سار الراشد بالله عن بغداد إلى الموصل صحبة أتابك الشهيد ودخلها السلطان مسعود ، عزم على خلع الراشد والبيعة لغيره بالخلافة ، ووافقه على ذلك الأمراء وأرباب المناصب . فأحضر القضاة والشهود والفقهاء ، وأثبتوا محضرا شهدوا فيه بما أوجب خلعه ، فأفتى الفقهاء أن من هذه صفته لا يصلح للخلافة(٣) . وحكم القاضى ابن الكرخى(٤) قاضى الحريم (٦٢ - أ) بخلعه فخلعوه حينئذ .

وسأل [السلطان مسعود] عمن يصلح للخلافة ، فأشار عليه شرف الدين الزينبى ، بأبى(٥) عبد الله بن المستظهر بالله ، وأشار غيره بالعدول عنه ، وقال : إنه رجل كبير قد جرب الأمور وعرفها ، وإن من الرأى للسلطان أن يبايع فتى صغيرا(٦) ليست له تجربة ولا سن عليه ، ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون(٧) ﴾ . فوقع الاتفاق على أبى عبد الله(٨) ، فبايعه السلطان والأمراء ، والقضاة ، والفقهاء وسائر الناس ، وبايعه فيهم الشيخ أبو النجيب الفقيه الصوفى ، ووعظه موعظة بليغة . ولقب المقتفى لأمر الله . فلما استقر فى الخلافة ، أرسل إليه السلطان مع وزيره

---

(١) بالأصل : جانب . (٢) بالأصل : وولايه . وفى ، المنتظم (حـ/١٠/ص/٥٥) أن سبب انسحاب عماد الدين من الحرب ، إكتشافه مؤامرة من السلطان مسعود مع بعض قواده (قواد عماد الدين) على قتله .

(٣) يلوح أن هنالك سقط فى « النص » . ففى الكامل (حـ/٨/ص/٣٥٤) ، أن الخليفة الراشد كان قد حلف للسلطان مسعود بخط يده « إنى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الأمر » فأفتى القضاة والشهود والفقهاء بخروجه عن الخلافة . ثم ذكر ابن الأثير سبباً آخر لخلعه ، وهو اتهامه بأخذ الأموال ، وأشياء تقدح فى الإمامة ، فأفتوا « أن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً » . (٤) بالأصل : ان الكرخى . (والتصحيح من الكامل ، حـ/٨/ص/٣٥٤) . (٥) بالأصل : أبى . (٦) بالأصل : زغيرا .

(٧) سورة الأنفال : ٣٢ . (٨) فى ، الكامل (حـ/٨/ص/٣٥٥) أن المبايعة كانت فى ثامن عشر ذى الحجة سنة ٥٣٠ .

كمال الدين الدركزينى[١] ، يسأله ما يحتاج إليه ليقام به ، فقال للوزير : ما أدرى قدر ما نحتاج إليه ، لكن لنا ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة — مع قربها منا — من بكرة إلى آخر النهار للشرب لا يستعمل منه فى غيره شىء ، فانظروا حينئذ ما وراء هذا فقوموا (٦٢ - ب) لنا به ، فعاد الوزير وقال للسلطان : قد كان الرأى فى العدل عن هذا الرجل ، ولكن الأمور مقدرة ، وقد رأيت من هذا الرجل ما دل على وفور العقل وحسن التوصل إلى أغراضه وعلى غاية المعرفة ، وذكر قوله . فلم يبق من الحاضرين إلا من استحسن ذلك .

ولما اتصل خبر بيعته إلى الراشد بالله وأتابك الشهيد ، أرسلا رسولين[٢] إلى السلطان ، وأرسل الشهيد رسالة إلى الديوان العزيز[٣] . فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته . وأما رسول[٤] الشهيد فإنه أكرم كثيراً ، وكان الرسول عنه ، كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله ابن القاسم الشهرزورى . فحكى لى والدى عنه أنه قال : لما حضرت الديوان ، قيل لى تبايع أمير المؤمنين . قال ، فقلت : أمير المؤمنين عندنا بالموصل ، وقد بايعناه نحن وأنتم والناس قاطبة فى شرق الأرض وغربها ، وقد علمتم ما قيل فى من يبايع آخر ، وطال الكلام وعدت إلى [٦٣ — أ] منزلى ، فلما كان الليل ، جاءتنى إمرأة عجوز سرا ، وأبلغتنى عن المقتفى لأمر الله رسالة ، مضمونها العتاب على ما كان من الامتناع عن البيعة ، ومعها جملة صالحة من التحف والمال . قال ، فقلت : غداً يظهر أثر خدمتى . فلما كان الغد حضرت ، وقيل لى فى أمر البيعة فقلت : إن الراشد له فى أعناقنا بيعة ، ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه ، وأنا فقيه لا يجوز لى فعل ما ينافى الشرع ، فيثبتون ما يوجب خلعه حتى أخلعه ، وأبايع عنى وعن صاحبى ، فلما سمعوا هذا أحضروا المحضر المذكور ، فلما رآه وشهد بر الشهود ، خلع الراشد وبايع المقتفى لأمر الله ، وقال : هذا أمير المؤمنين قد صار إليه خلافة الله فى أرضه ، والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ويجمع عليه الجموع ، ونحن فلابد لنا من هذه الدعوى [٥] نصيب . فرفع قوله [إلى الخليفة[٦]] فأمر الخليفة أن يجرى فى إقطاع الشهيد من خاصه[٧] (٦٣ - ب) «صريفين» و «درب هارون» ويزاد فى ألقابه ، وقال : هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف ، أن يكون له فى العراق إقطاع . واستحلف القاضى كمال الدين السلطان للشهيد ، واستنزله عما فى نفسه منه .

وأما الراشد ، فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك الشهيد يأمره بإخراجه عن بلده ، فسار إلى أذربيجان ثم إلى همذان ، واجتمع هو والملك داود ، ومنكبرس صاحب فارس ، وبوزابه[٨] صاحب خوزستان ومعهم عساكر كثيرة ، وسار السلطان إليهم فتصافوا واقتتلوا ، فقتل منكبرس

---

(١) أنظر ما سبق ، ص/٤٢/حاشية/١٠ . (٢) بالأصل : رسولان . (٣) فى ، الفخرى (ص/٤٩) ، أن عماد الدين أرسل كمال الدين ليقرر أمر الراشد فى الخلافة ، وأن يجتمع ويبالغ فى تقرير أمره ، ولكن كمال الدين تصرف من تلقاء نفسه فى المبايعة للخليفة المقتفى . (٤) بالأصل : الرسول . (٥) بالأصل : الدعوة . (٦) الإضافة ، من الكامل (ح/٨/ص/٣٥٥) . (٧) أى من أملاك الخليفة الخاصة . (٨) بالأصل : بوزان . (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٨/ص/٣٦١) .

وانهزم الراشد وقصد أصفهان ، فقتله الباطنية سابع وعشرين(١) رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ودفن بأصفهان .

ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وما فعله الشهيد

فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، خرج ملك الروم(٢) من القسطنطينية ، ومعه خلق عظيم (٦٤ - أ) لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهما من أنواع النصارى ، فقصد الشام ، فخافه الناس خوفا عظيما . وكان الشهيد مشغولا بما تقدم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل(٣) ، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها — وهى على مرحلة من حلب(٤) وفتحها عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية فى شعبان .

ثم سار عنها إلى شيزر — وهى حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة — فحصرها منتصف شعبان ، ومعه من فى الشام من الفرنج ، وهم الذين أشاروا عليه بقصد شيزر ، وقالوا له : إنها ليست لأتابك فلا يهتم بحفظها والذب(٥) عنها . وكانت حينئذ للأمير أبى العساكر سلطان بن على ابن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى المنقذى ، فقصدها الروم وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر(٦) منجنيقا(٧) ، وأرسل سلطان بن منقذ إلى الشهيد يستنجده — وكان على [عزم] المسير إلى الشام لما بلغه خبر خروجهم إليه — فجد السير فى عساكره فنزل على حماة ، وكان يركب كل يوم فى (٦٤ - ب) عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار . وكان الروم والفرنج قد نزلوا على جبل شرقى شيزر ، فأرسل إليهم الشهيد يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرتم أخذتم الشيزر(٨) وغيرها ، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين

---

(١) فى ، الكامل (حـ/٨/ص٣٦٢) ، أنه قتل فى الخامس والعشرين من الشهر .

(٢) كان إمبراطور الروم فى ذلك الوقت يوحنا الثانى كالوجوهانيز (١١١٨ — ١١٤٣م = ٥١٢ — ٥٣٨هـ) . وفى ، الكامل (حـ/٨/ص/٣٥٩) أن خروج ملك الروم إلى الشام كان بسبب حصار عماد الدين « بعرين » وذلك استجابة لاستنجاد إفرنج الشام به . وقد ذكر ابن الأثير ، فى الكامل ، خبر استيلاء عماد الدين على بعرين سنة ٥٣١ ، بينما ذكره ، هنا ، فى النص ، فى سنة ٥٣٤ ، (وما فى الكامل يتفق مع ابن القلانسى ص/٢٥٨) . (٣) هذه العبارة توحى أن هناك أخبار عن الموصل فى النص الأصلى الذى بخط ابن الأثير ، وساقطة فى نصنا ، مع ملاحظة أنه لا توجد أخبار فى « الكامل » تشير إلى ما كان يشغل عماد الدين بالموصل ، وإنما الذى فيه ، أن عماد الدين كان يحاصر حمص حينما وصل ملك الروم إلى الشام . (حـ/٨/ص/٣٥٩) . (٤) بالأصل : وهى على حلب مرحله . (والتصحيح من الروضتين ، حـ/١/ص/٣٢) . (٥) بالأصل : والدت . (٦) بالأصل : ثمان عشرة .

(٧) المنجنيق : فى (صبح الأعشى ، حـ/٢/ص/١٤٤) أنه « آلة من خشب ، له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه » . (٨) الشيزر وشيزر بمعنى واحد ، وشيزر كما فى (ياقوت) ، قلعة حصينة تشتمل على كورة بالشام ، قرب المعرة (معرة النعمان) بينها وبين حماة يوم ، وفى وسطها نهر الأردن ، عليه قنطرة فى وسط المدينة ، أوله من جبل لبنان ، تعد فى كورة حمص .

من شركم — ولم يكن له بهم قوة(١) لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا(٢) لهم — فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره ، فقال لهم ملك الروم : أتظنون أن معه من العساكر من ترون ، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه وتصحروا(٣) له ، فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم .

وكان أتابك مع هذا يراسل إفرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصنا واحداً أخذ البلاد التى بأيديهم (٦٥ - أ) منهم . وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه أن الفرنج معه ، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه ، فرحل ملك الروم عنها فى رمضان . وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما(٤) ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها . فلما سمع الشهيد برحيلهم سار خلفهم ، فظفر بطائفة منهم فى ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر ، وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب ، وكفى الله المؤمنين القتال .

وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر ، لا يبقى لمسلم معهم مقام ، لا سيما بمدينة حماة لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح ، مدح الشعراء الشهيد فأكثروا ، وممن مدحه المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموى فقال من قصيدة(٥) أولها :

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم

ويقول فيها(٦) :

(٦٥ — ب) ألم تر أن كلب الروم لما تبين(٧) أنه الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه ودان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك فى خميس تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر فى المفاضة منك جيشاً فأحرن(٨) لا يسير ولا يقيم
كأنك فى العجاج شهاب نور توقد وهو شيطان رجيم

---

(١) بالأصل : بقوة . (٢) بالأصل : ترهباً . (٣) بالأصل : وتحضروا . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٣٢) . (٤) فى ، الكامل (حـ/٨/ص/٣٦٠) : أربعين يوما . (٥) بالأصل : قصده .
(٦) بعدها بالأصل ، اللفظ : شعر . (وقد أسقطه المحقق لأنه زائد) .
(٧) فى خريدة القصر (حـ/١/ص/٤٧١) تظنن ، وهذا اللفظ أنسب من لفظ النص فى أداء المعنى .
(٨) بالأصل : وحرب . وفى ، الكامل (حـ/٨/ص/٣٦١) : فأحرب . واللفظ الذى أثبته المحقق ، من خريدة القصر (حـ/١/ص/٤٧١/حاشية/ ٩١) ، وهو أقربه إلى المعنى المقصود فى البيت .

أراد بقاء مهجته فولى وليس سوى الحمام له حميم

وهى طويلة .

ومن عجيب ما يحكى فى هذه الحادثة ، أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر ، قال الأمير مرشد بن على — أخو صاحبها — وهو ينسخ مصحفاً فرفعه بيده ، وقال : اللهم بحق من أنزلته عليه ، إن قضيت بمجىء الروم فاقبضنى إليك فتوفى بعد أيام ،ونزل الروم بعد وفاته .

ولما عادالروم إلى بلادهم ، سارأتابك إلى حصن عرقة(١) — وهومن أعمال طرابلس — فحصره وفتحه (٦٦ — أ) عنوة ونهب ما فيه ، وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالماً غانماً .

وفيها توفى القاضى بهاء الدين على بن القاسم الشهر زورى ، قاضى الممالك الأتابكية . وكان أعظم الناس منزلة عنده .

ذكر ملك الشهيد قلعة شهرزور(٢)

[كانت قلعةشهرزور(٣)] وأعمالها ومايجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجاق(٤) بن أرسلان تاش التركمانى ، وكان مالكا لها ، نافذ الحكم على قاصى التركمان ودانيهم ، يرون طاعته فرضاً حتما ، فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، وقصده التركمان من كل فج عميق .

فلما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أبلغ أتابك الشهيد عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده(٥) ، فحذره أصحابه من ذلك وأشاروا بتركه ، علماً منهم أن الحماة والذابين عن بلاده كثير،وأنه إن ضيق عليه سلم الولاية إلى السلطان مسعود ، فيصير مجاورا لولاية الشهيد فلم يرجع عن عزمه(٦)،وسير (٦٦ — ب) إليه عسكرا كثيفاً ، فجمع قفجاق من التركمان من يقدر على حمل السلاح ، فاجتمع عنده من الكثرة (٧)ماسد بهم الفضاء ، وتلقاهم(٨) عسكر الشهيد وقاتلهم ، وصبر عسكره وتابعوا الحملات

---

(١) حصن عرقة : فى (ياقوت) : عرقة . بكسر أوله وسكون ثانيه . بلدة فى شرق طرابلس ، بينهما أربعة فراسخ ، وهى آخر عمل دمشق . وهى فى سفح جبل ، بينها وبين البحر نحو ميل . وعلى جبلها قلعة لها . وينقل ياقوت عن أبى بكر الهمذانى ، أنها بلد من العواصم ، بين رفنية وطرابلس .

(٢) بالأصل : « ذكر ملك الشهيد قلعة شهرزور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجاق ... » أى أنه لايوجد فاصل بين العنوان والموضوع مما يدل على أن هناك سقط فى النص .

(٣) فى الكامل ، (ح/٨/ص/٣٦٧) ، أن استيلاء عمادالدين على شهرزور ، كان بعد حصاره دمشق ، الذى سيأتى خبره فيما يلى .

(٤) فى الكامل (ح/٨/ص/٣٦٨) : قبجاق .

(٥) لم يذكر ابن الأثير فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٦٨) سبباً وضحاً لقصد عماد الدين ، صاحب شهرزور ، ولذا ذكر أن قبجاق ، « عظم شأنه ، وازداد جمعه ، وأتاه التركمان من كل فج عميق » . ولعل عماد الدين خاف من عظم شأن قبجاق ، وهو مجاور له بالموصل ، فعاجله بالحرب قبل أن يستفحل أمره .

(٦) بالأصل : عزيمه .

(٧) بالأصل : الكثيره .

(٨) بالأصل : تقيهم .

على التركمان حتى هزموهم واستباحوا عسكرهم ، فمضوا منهزمين لا يلوى أخ على أخيه ولا والد على ولده ، وسار العسكر عقب الهزيمة ودخلوا بلادهم، فملكوا شهرزور(١) وغيرها من البلاد وأضافوها إلى مملكته ، وأصلح الشهيد أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

ثم إن الشهيد عزم على المسير إلى الشام ، فإنه كان لا يرى المقام بل لا زال ظاعنا إما لرد عدو يقصده، وإما لقصد(٢) بلاد عدو ، وإما لغزو الفرنج وسد الثغور ، فكانت مياثر(٣) السروج آثر عنده من وثير المهاد ، والسهر فى حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد(٤) ، وأصوات السلاح ألذ فى سمعه من غناء القينات ، ولقاء(٥) القرن أشهى إليه من إضجاع الغانيات ، وفيما (٦) ذكرته وأذكره (٦٧ — أ) دليل على صحة ذلك(٧) .

ذكر حصار دمشق وبعلبك

وفى هذه السنة أيضاً ، وهى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد فى جنوده بعد ما ملك شهرزور إلى مدينة دمشق لحصرها ، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بورى بن طغدكين . وكان محمد محكوماً عليه ، والغالب على أمره معين الدين أنر(٨) مملوك جده طغدكين . وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهرزورى بمكاتبة جماعة من مقدمى أحداثها وزناطرتها ، واستمالتهم وإطماعهم فى الرغائب والصلات ، ففعل ذلك ، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد ، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين وجدد عليهم العهود ، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه ، فاعلم كمال الدين ، أتابك بذلك ، فقال : لا أرى هذا رأيا ، فإن البلد ضيق الطرق والشوارع ، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه ، (٦٧ — ب) وربما كثر المقاتلون لنا والمحاربون ، فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلونا

---

(١) شهرزور : فى (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وراء مفتوحة بعدها زاى وواو ساكنة وراء . كورة واسعة فى الجبال ، بين إربل وهمذان . . وأهل هذه النواحى كلهم أكراد . وينقل ياقوت عن مسعر بن المهلهل الأديب ، أن شهرزور ، مدينات وقرى ، فيها مدينة كبيرة وهى قصبتها فى وقتنا هذا يقال لها « نيم أزراى » ، وأهلها عصاة على السلطان ، قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان . والمدينة فى صحراء ، ولأهلها بطش وشدة ، يمنعون أنفسهم ويحمون حوزتهم . وسمك سور المدينة ثمانية أذرع ، وأكثر أمرائهم منهم ... وهم موالى (الخليفة) عمر بن عبد العزيز . وجرأهم الأكراد بالغلبة على الأمراء ومخالفة الخلفاء ، وذلك أن بلدهم مشتى ستين ألف بيت من أصناف الأكراد الجلالية ، والباسيان، والحكمية ، والسولية . ولهم به مزارع كثيرة ، ومن صحاريهم يكون أكثر أقواتهم . (وقد طول ياقوت فى ذكر الأخبار عنها) .

(٢) بالأصل : القصد .

(٣) مياثر : جمع ميثرة ، وهى « هنة كهيئة المرفقة تتخذ للسرج كالصفة » . والجمع مواثر ، ومياثر . (الإفصاح فى فقه اللغة ، ص/٣٤٠) .

(٤) بالأصل : الوساد اساد . واللفظ : اساد زائد ، ولذلك أسقطه المحقق .

(٥) بالأصل : والقاء .

(٦) بالأصل : فى .

(٧) بالأصل : ماذكرته واذكره صحيح دليل على صحة ذلك .

(٨) هو معين الدين أنر بن عبد الله . توفى سنة ٥٤٤ : وترجمته ، فى : الكامل (ح/٩/ص/٢٦) ؛ مرآة الزمان (ح/٨/ص/٢٠٢) ؛ (شذرات الذهب ح/٤/ص/١٣٨) . وقد وردا سمه « أنر » فى كل من الكامل والشذرات : « أنز » (بالزاى) .

على الأرض والسطوحات ، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله ، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره . ومن العجب أن محمد بن بورى صاحب دمشق توفى وأتابك يحاصره ، فضبط أنر الأمور وساس البلد ، فلم يتغير بالناس حال ، وأرسل إلى بعلبك وأحضر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ورتبه بالملك مكان أبيه — وكان صغيرا — فمشى الحال بتمكن معين الدين أنر وقوته . فلما وصل مجير الدين(١) إلى دمشق ، أقطع بعلبك(٢) لمعين الدين أنر ، فأرسل إليها وتسلمها ، فلما(٣) علم الشهيد ذلك ، سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور فملكها عنوة وقهراً(٤) ، وترك بها نجم الدين أيوب دزدارا ، وعزم على العود عنها إلى دمشق ، فجاءه رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة له فأجابه إلى مابذل ، وعاد عن قصد دمشق (٦٨ — أ) وقد خطب له فيها(٥) وصار أصحابها(٦) فى طاعته وحكمه .

ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج

فى هذه السنة ، وهى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة(٧) ، سار أتابك الشهيد رضى الله عنه ، إلى بلاد الفرنج وأغار عليها ، واجتمع ملوك الفرنج وقمامصتهم وكنودهم وفرسانهم ورجالتهم وساروا إليه . فلقيهم بالقرب من حصن بارين(٨) — وهو المسمى حينئذ بعرين — وهو للفرنج ، فالتقوا عنده ، فجمع الشهيد عساكره وحثهم على الجهاد ، وأشلاهم على الكفرة الأوغاد ، ورتب أطلابه(٩) ، وحرض أصحابه ، وحزب أحزابه ، وناوشهم القتال ، وأعملوا الرماح والنبال ، ولم يزل هذا دأبهم حتى حمى الوطيس ، فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرءوس والرئيس ، وارتفع القتام ، واشتد اللزام ، وعظم الزحام ، وأديرت مترعة(١٠) كؤوس الحمام ، وبطل

---

(١) بالأصل : مجد الدين . (والتصحيح من النص نفسه) . (٢) بعلبك : فى (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء الموحدة والكاف مشددة . مدينة قديمة ، فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين من الرخام لا نظير لها فى الدنيا . بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وقيل إثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل .

(٣) بالأصل : فلم . (٤) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٦٤) ، أن إستيلاء عماد الدين على بعلبك كان فى ذى الحجة سنة ٥٣٣ ، وكذلك فى ابن القلانسي ، ويظهر أن ابن الأثير — من حيث التاريخ — تبع ابن القلانسى فى « الكامل » فى السنة التى استولى فيها عماد الدين على بعلبك ، وتبع الفارقى ، فى « النص » . فقد أضاف ناشر « ذيل تاريخ دمشق » (ص/٢٧١/حاشية/١ — أخبار سنة ٥٣٤ ، مانصه : قال الفارقى : « إن فى هذه السنة ملك أتابك زنكى قلعة بعلبك ونزل على دمشق وحاصرها مدة ، ثم سلموا إليه قلعة بصرى » . وأما حصار دمشق فقد كان فى شهر ربيع الأول سنة ٥٣٤ ، وقدسار إليها من بعلبك . (الكامل ، ح/٨/ص/٣٦٧) . (٥) بالأصل : فيه .

(٦) بالأصل : أصحابه . (٧) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٥٧) ، ابن القلانسى (ص ٢٥٩) ، أن استيلاء عماد الدين على « بعرين » كان سنة ٥٣١ . أنظر ما سبق ص/٥٥/حاشية/٢) . (٨) بارين : فى (ياقوت) . بعرين ، بوزن خمسين . « بليد بين حمص والساحل ، هكذا تتلفظ به العامة ، وهو خطأ . وإنما هو بارين » .

(٩) الأطلاب : جمع طلب ، (بضم فسكون) بمعنى الكتيبة فى مصطلح ذلك العهد . (الذيل على الروضتين ، ص/١٢٨/حاشية/١) . وفى ، مرآة الزمان (ح/٨/ص/٦٩٥) ، أن الطلب ، فرقة من الفرسان عددها خمسمائة فارس . (١٠) بالأصل : منزعه .

العامل(١) وعمل الحسام، فمن ضربة تقط، وأخرى تقد، وثارت عجاجة كانت تحجب الشمس، وخفت الأصوات فلا تسمع إلا الهمس، وصبر الفريقان (٦٨ — ب) صبراً لم يسمع بمثله فى سالف الدهور، إلا ما يحكى عن ليلة الهرير(٢)، ونصر الله المسلمين نصراً عزيزاً، وأحلهم من عارفته محلا حريزاً، وأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية وهرب ملوكهم وفرسانهم فدخلوا حصن بارين واحتموا به، لأنه كان من أقرب حصونهم(٣) [إليهم]، وسلموا عدتهم وعتادهم، وكراعهم وأزوادهم، وكثر فيهم القتل فهم بين الجريح بحد الصفاح، ونصول السهام والرماح، ﴿سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا(٤)﴾ ثم سار الشهيد بعد الهزيمة إلى بارين وبه الفرنج ليحصره، فحين نازله طاف به وقابله، فرأى حصناً محلقاً فى الهواء، مقارناً هامة الجوزاء، قد فاق الجبال الراسيات وجازها سمواً، وقد تشمخ بأنفه عن أن يرام، ونأى بجانبه عن أن يضام(٥)، فلا ترمقه الأبصار إلا عادت حسيرة، ولا تؤمه الطيور إلا أضحت(٦) أجنحتها مهيضة كسيرة، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم، وكهولهم وشبانهم، واثقين بحصانته، معتزين بعلو (٦٩ — أ) مكانه ومكانته، متيقنين أن الحوادث لا تنالهم وهم به معتصمون، وأن الأيام لا تنفذ سهامها فيهم وهم به مقيمون، وقد وعدهم الشيطان النجاة ولات حين مناص، وحقق عندهم السلامة وحيل بينهم وبين الخلاص، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، وأنى يكون ذلك وقد أحدقت بهم الأسد فى عرينها، الذابة عن دين الله تعالى ودينها، فحين رأى الشهيد هذا الحصن وارتفاعه، ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم، علم أنه لا ينال بالتوانى، ولا يبلغ قلته بسير السوانى، فأعد واستعد، وشمر فى قتاله عن ساق الجد، ونازله بعزم أعظم منه، وقوة لا تعجز عنه، وحصره وأحاط به كإحاطة الهالة بالقمر، وبياض(٧) العين بسواد البصر. ورماه بسهام شهامته وضيق على من به الخناق، وتابع الزحف إليهم ووالى القتال عليهم، وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق (٦٩ — ب) حتى كادت تحجب الهواء (٨)، وتحول بينهم وبين السماء، وكانت فوق من به كسحاب لمعان نصولها برقه المتألق، ووقع الأحجار رعده المتبعق، إلا أنه سحاب يمطر المنايا، وينبت الحتوف والرزايا، فحينئذ استخذى الحصن والخذل، واستسلم لصولة هذا الهمام البطل، وألقى إلى الإستسلام بيده، ولم ينفعه حصانته وكثرة عدده وعدده، كما قال فيه بعضهم :

بادى المعالم أطرقت شرفاته إطراق منجذب القرينة عان

---

(١) العامل : هو صدر الرمح دون السنان (لسان العرب). (٢) ليلة الهرير، هى الليلة الثالثة والأخيرة من موقعة القادسية بين سعد بن أبى وقاص والقائد الفارسى رستم بالعراق سنة ١٦ هـ. (٣) بالأصل: أقرب من حصونهم. (٤) سورة الأحزاب : ٦٣. (٥) بالأصل : يظام. (٦) بالأصل : اضت.
(٧) بالأصل : والبياض. (٨) بالأصل : الهوى.

أغضى كمستمع الهوان تغيبت   أنصاره وخلا عن الخلان

ولا عار على من افترسه الغضنفر ، ولا نقيصة على من أذعن (١) لصولة الموت الأحمر ، فما كل غانية هند ، ولا كل ذات سوار دعد . ولما عاين من به الهلاك راسلوا فى طلب الأمان ليسلموا ، وسألوه فى حقن دمائهم ليستسلموا ، وهو لا يصغى إلى مقالتهم ، ولا يسمع رسالتهم ، وقد قوى عزمه على أخذه قهراً (٧٠ — أ) ليملك به (٢) سائر بلادهم ، ويريح المسلمين بعد هذه الوقعة من قراعهم وجلادهم . فبينما هم كذلك، بلغه أن من بالساحل من الفرنج الناجين من المعركة ، السالمين من الهلكة ، قد ساروا إلى بلاد الفرنج والروم فى البحر يستجدونهم ويستنصرونهم ، وينهون إليهم ما دهمهم وبلادهم ، وما فيه ملوكهم وقامصتهم من الحصر وأكنادهم ، وأن أولئك قد جمعوا وحشدوا ، وإلى المسير نحوه فقصدوا ، فحينئذ جد فى الحصار وأذكى العيون ، وعمل(٣) [على] التضييق(٤) على من بالقلعة ومنع كل شىء عنهم حتى(٥) الأجناد ، وأقبلت الأمداد من سائر أنواع النصرانية إلى الساحل من كل حدب ينسلون ، وإلى تلبية من به من إخوانهم يهرعون . هذا ومن بالحصن لا يعلمون بشىء من ذلك ، وقد تيقنوا أنهم عن قريب ما بين مأسور وهالك ، فأعادوا مراسلته(٦) فى طلب الأمان ، فأجابهم إليه بعد أن علم وصول الأمداد إلى الساحل واجتماعهم على من به من أهله (٧٠ — ب) فلما أجابهم إلى الأمان وتسليم الحصن منهم سلموه وهم لا يصدقون بالنجاة ، وساروا عن الحصن يوماً ، فلقيتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن ، فلاموهم ووبخوهم وعنفوهم ، وقالوا : عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين . فحلفوا لهم أننا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الآن . فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا ، وقعدتم عن نصرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن وافتدينا به ماوراءه .

وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل ، فأزال الله بالشهيد — رضى الله عنه — هذا الضرر العظيم .

وفى مدة مقامه على حصار بارين ، سير جنداً إلى المعرة(٧) وكفر طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها ، وهى بلاد كثيرة وقرايا عظيمة .

---

(١) بالأصل : أذعر .   (٢) بالأصل : بهم .   (٣) بالأصل : وعمى .   (٤) بالأصل : التضيق .   (٥) بالأصل : حى .   (٦) بالأصل : لمراسلته .

(٧) المعرة ، هى معرة النعمان . وفى (ياقوت) : هى مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص ، بين حلب وحماة . وفى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٥٨) : « ومن أحسن الأعمال ما عمله زنكى مع أهل المعرة ، فإن الفرنج كانوا قد أخذوا أملاكهم ، فلما فتحها زنكى الآن ، حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم ، فطلب منهم كتباً ، فقالوا : إن الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التى للأملاك فيها . فقال أطلبوا دفاتر حلب ، وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه . ففعلوا ذلك ؛ وأعاد على الناس أملاكهم . وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها » .

(٧١ - أ) ذكر حصار الروم والإفرنج مدينة حلب

لما وصل الروم والفرنج إلى الشام لإزالة الشهيد عن حصار بارين ومن بها من ملوك الفرنج ورأوا الأمر قد فات ، لم يروا أن تخلو(١) سفرتهم من أثر يؤثرونه فى حماية دينهم ويرجعوا بخفى حنين ، فاتفقوا على قصد بعض بلاد المسلمين ومحاصرته ، لعلهم يظفرون بما يذهب عنهم غم مصيبتهم ويجبر كسرهم ، فساروا ونازلوا مدينة حلب وحصروها ، وهم فى جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة ، وهم مع ذلك موتورون ، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميرة ، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والإغارة عليها . وأرسل(٢) القاضى كمال الدين بن الشهرزورى إلى السلطان مسعود ينهى إليه حال البلاد وكثرة العدو ، ويطلب منه النجدة وإرسال العسكر . فحكى لى والدى عن كمال الدين ، قال : قلت للشهيد (٧١ — ب) لما أرسلنى : أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشهيد : إن هذا العدو قد طمع فى البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار . قال : فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة ، وعدنى السلطان بإنفاذ العساكر ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه بشىء ، وكتب الشهيد متصلة إلى يحثنى على المبادرة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم ، أحضرت فلانا — وهو فقيه وكان ينوب عنه فى القضاء ، وكان حاضرا عند حكاية كمال الدين هذا لوالدى — قال : فقلت له : خذ هذه الدنانير وفرقها فى جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد ، والإسلاماه ، وادين (٧٢ — أ) محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنسانا آخر يفعل(٣) مثل ذلك فى جامع السلطان . فلما كانت الجمعة ، وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح ، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكى ، وبطلت الجمعة . وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر(٤) قاطبة عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان فى داره ، وقال : ما الخبر . فقيل [له] : إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة . فقال : أحضروا ابن الشهرزورى . قال : فحضرت

---

(١) بالأصل : يخلوا . (٢) فى الكامل ، (ح/٨/ص/٣٥٩ — حوادث سنة ٥٣٢) ، أن عماد الدين أرسل القاضى إلى السلطان يطلب النجدة ، حين كان الفرنج على بزاعة .

(٣) بالأصل : فعل . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٣٥ ، الكامل ح/٨/ص/٣٦٠) .

(٤) العسكر : حى فى الجانب الشرقى من بغداد ، جعله الخليفة المهدى (١٥٧ — ١٦٩ هـ) معسكراً للجند فسمى « عسكر المهدى » ، ثم عمرت بالناس والبنيان . (الاصطخرى ، ص/٥٨)

عنده وأنا خائف منه ، إلا أننى قد عزمت على صدقه وقول الحق . فلما دخلت [عليه] ، قال : يا قاضى ما هذه الفتنة ، فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا (٧٢ — ب) خوفاً من القتل والشرك ، ولاشك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو ، إنما بينكم نحو أسبوع ، وإن أخذوا حلب إنحدروا إليك فى الفرات وفى البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، وعظمت الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم . فقال : أردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت وسر بهم والأمداد تلحقك . قال : فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا . وانتخبت من عسكره عشرين ألف فارس . وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر ، وأنه لم يبق غير المسير ، وأجدد إستئذانه فى ذلك . فأمر بتسييرهم والحث على ذلك ، فعبرت العساكر إلى الجانب الغربى ، فبينما نحن نتجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجاب من الشهيد ، يخبر أن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً(١) ، ويأمرنى بترك إستصحاب العساكر ومخاطبة السلطان (٧٣ — أ) فى إقامتهم . فلما خوطب السلطان فى ذلك ، أصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها منهم وإزاحتهم عنها . وكان قصده بذلك أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها . قال : فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقى وسرت(٢) إلى الشهيد . فانظر إلى هذا الرجل الذى هو خير من عشرة آلاف فارس . رحم الله الشهيد ، فلقد كان ذا همة عالية ، ورغبة فى الرجال ذوى الرأى والعقل ، يرغبهم(٣) ويخطبهم من البلاد ، ويوفر لهم العطاء . حكى لى والدى ، قال : قيل للشهيد ، إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية(٤) ، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار ، فقال لهم : بهذا العقل والرأى تدبرون دولتى ، إن كمال الدين يقل له هذا القدر ، وغيره يكثر له خمسمائة دينار ، فإن شغلا (٧٣ — ب) واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار . وكان كما قال رضى الله عنه .

---

(١) ذكر ابن الأثير خبر حلب فى الكامل (ح/٨/ص/٣٥٩) ، فقال ، انه عندما حاصر الروم بزاعة كان عماد الدين يحاصر حمص ، فمضى جماعة من أعيان حلب إليه فاستغاثوا به واستنصروه ، فسير معهم كثيراً من العساكر فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها . ولما ملك الروم بزاعة ، رحلوا إلى حلب فى خيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم قتالا شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير ، وقتل بطريق جليل القدر عندهم ، وأقاموا عليها ثلاثة أيام فلم يروا فيها طمعاً ، فعادوا عنها خاسرين إلى قلعة الأثارب .

(٢) بالأصل : سيرت . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٣٦) .

(٣) بالأصل : ويرغبهم .

(٤) بالأصل : وأمر به . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٣٦) .

ذكر ملك الشعبانى وبناء العمادية ببلد الهكارية

فى سنة سبع وثلاثين(١) [وخمسمائة] سار أتابك الشهيد إلى بلد الهكارية ، وكان بيد الأكراد وقد أكثروا فى البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر [نائب السلطان الشهيد بالموصل(٢)] كان قد ملك كثيراً من بلادهم واستولى عليها . فلما بلغها أتابك الشهيد حصر قلعة الشعبانى(٣) — وهى من أعظم قلاعهم وأحصنها — فملكها وأخربها . وأمر ببناء قلعة العمادية(٤) عوضاً عنها . وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيما ، يقل فى حصون الجبال ما يقاربه ، فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره . فلما ملك الشهيد البلاد التى لهم ، قال : إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا لا أعجز عنه، فأمر ببنائه . وكان رحمه الله تعالى ذا عزم ونفاذ أمر ، فبناه وسماه العمادية ، نسبة (٧٤ — أ) إلى لقبه عماد الدين .

وفيها أيضاً خطب لأتابك الشهيد بآمد(٥) ، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الإنفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والإنتماء إلى خدمته والخطبة له ، فإن أجاب وإلا قصدها وحصرها(٦) ، فأجابوه وخطبوا له وصاروا فى طاعته .

وفيها أيضاً ملك الشهيد مدينة حديثة(٧) وعانة(٨) .

---

(١) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٢٤٣) ، أن استيلاء عماد الدين على قلاع الأكراد الهكارية ، ومنها الشعبانى ، كان سنة ٥٢٨ . ويصرح ابن الأثير ، بأنه يروى هذا الخبر عن بعض العلماء الأكراد ، وأنه لايعلم بالضبط تاريخ فتح هذه القلاع .

(٢) الإضافة من الروضتين (ح/١/ص/٣٦) .

(٣) لم يذكر (ياقوت) هذه القلعة فى معجمه .

(٤) هناك اختلاف عند ابن الأثير فى اسم القلعة التى أقام عماد الدين على انقاضها قلعة العمادية . فهو هنا يذكر ، أن القلعة هى قلعة الشعبانى ، بينما يذكر فى الكامل (ح/٨/ص/٣٤٣ — أخبار سنة ٥٣٨) أنها قلعة الجلاب ، وبعد سطور ذكر أنها قلعة آشب ، وذكر ابن الأثير خبر استيلاء عماد الدين عليها وأنه أخربها وأقام على أنقاضها قلعة العمادية ، وعلى هذا الخبر اعتمد (ياقوت) فى وصفه لقلعة العمادية ، فقال عنها : أنها قلعة حصينة مكينة عظيمة فى شمالى الموصل ومن أعمالها . عمرها عماد الدين زنكى بن آقسنقر سنة ٥٣٧ ، وكان قبلها حصناً للأكراد ، فلكبره خربوه ، فأعاده زنكى وسماه باسمه نسبة إليه . وكان اسم الحصن ، آشب . ويصفها ، البدليسى فى كتابه « شرفنامه » (ح/١/ص/١٠٢) : « وقلعة العمادية الحالية من الأبنية الجديدة التى بناها فى عهد السلاجقة عماد الدين زنكى بن آقسنقر والى الموصل وسنجار . وتقع المدينة وقلعتها على صخرة عظيمة مستديرة ، ترتفع بعض الأمكنة منها عن الأرض مائة ذراع ، وبعضها حوالى الخمسين أو الستين ، والبعض الآخر عشرين ذراعاً . وفى القلعة جبان عميقان يمدانها بالماء ، ومنهما يأخذ الحمام والمدرسة وسائر العمارات ، ولكن الناس يجلبون مياه الشرب من خارج البلد على ظهور الدواب ... » .

(٥) فى ، الكامل (ح/٩/ص/٥)، أن ذلك كان سنة ٥٣٦ .

(٦) بالأصل : واحصرها .

(٧) حديثة : ذكر (ياقوت) ، موضعين باسم حديثة . أحدهما : « حديثة الموصل » ، وهى بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقى قرب الزاب الأعلى. والآخر: « حديثة الفرات » ، وتعرف بحديثة النورة ، وهى على فراسخ من الأنبار ، وبها قلعة حصينة فى وسط الفرات والماء يحيط بها . (ونحن نرجح أن الموضع المقصود هنا ، « حديثة الفرات » ، لمجاورتها لـ « عانة » كما يتبين من الحاشية التالية . المحقق).

(٨) عانة : فى (ياقوت) : بلد مشهور بين الرقة وهيت (على الفرات) ، يعد فى أعمال الجزيرة .

ذكر الوحشة بين السلطان مسعود(١) وأتابك الشهيد رضى الله عنهما

قال . كان السلطان مسعود لما أفضت السلطنة إليه ، لا يزال الأمراء والأكابر وأصحاب الأطراف يخرجون عن طاعته ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين . وقد تقدم ذكر بعض ذلك . وكان كلما إنفتق(٢) عليه فتق نسبه إلى الشهيد ، وظن أنه هو أشار به وسعى فيه ، لعلمه أن جماعة الأمراء يعرفون محل الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والعساكر . (٧٤ - ب) وكان ظن السلطان فيه صادقا ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن فى الملك . فلما كان هذه السنة - وهى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة - زالت الشواغل عن السلطان وتفرغ باله ، فجمع العساكر فأكثر(٣) ، وأظهر العزم على قصد الموصل وبلاد الشهيد ، فترددت [الرسل(٤)] بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها إلى السلطان . وطلب السلطان أن يحضر الشهيد فى خدمته ، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج وتمكن العدو وقربه من البلاد التى بيده ، فعذره السلطان وشرط عليه فتح الرها . وكان [من] أعظم الأسباب فى تأخر السلطان عن قصد الموصل ، أنه قيل له إن تلك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين ، فإنها قد وليها قبله مثل جاولى سقاووا ، ومودود ، (٧٥ - أ) وجيوش بك ، والبرسقى وغيرهم من الأمراء ، وكان السلاطين(٥) يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها ، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذا فقد فتح من [بلاد] العدو عدة حصون وولايات(٦) ، وهزمهم غير مرة واستضعفهم ، وعز الإسلام به . ومن الأسباب المانعة له أيضا ، أن الشهيد رحمه الله ، كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازى فى خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به ، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجىء إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل - وهو نصير الدين جقر - يأمره بمنعه من دخول الموصل ، ومن المسير إليه أيضاً ، فهرب سيف الدين وجاء إلى الموصل ، فلم يمكنه نصير الدين من دخولها ، وأراد المسير إلى والده فمنعه (٧٥ - ب) أيضاً ، وقال له : ترسل إلى(٧) والدك تستأذنه فى الذى تفعله ، فأرسل إليه ، فأعاد جوابه : إننى لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك ، وألزمه بالعود ، وأعاده ومعه رسول إلى السلطان يقول له : إننى بلغنى أن ولدى فارق الخدمة بغير إذن فلم أجتمع به ورددته إلى بابك . فحل هذا عند السلطان محلا كبيراً

---

(١) بالأصل : بين السلطان وبين مسعود . (٢) بالأصل : اتفق . (٣) بالأصل : فأكثره .
(٤) الإضافة من ، الروضتين (ج/١/ص/٣٦) . (٥) بالأصل : وكان السلطان السلاطين .
(٦) بالأصل : ولايات . (٧) بالأصل : لى .

أجاب إلى ما أراد الشهيد . ولما استقر المال حمل منه عشرين ألف دينار ، أكثرها جناس
عروض . ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف وخرجوا(١) عليه ، فاضطر إلى مداراة
شهيد وأطلق له الباقى استمالة(٢) له واستصلاحا لقلبه .

ذكر ملكه عدة بلاد وحصون من ديار بكر

فى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد إلى ديار بكر قاصداً فتحها ومحاصراً لها ، ففتح
دة بلاد ، منها : مدينة طنزة(٣) ، وأسعرد(٤) ، وملك مدينة المعدن(٥) (٧٦ — أ) الذى
عمل منه النحاس من أرمينية(٦) ، ومدينة حيزان(٧) . وملك أيضاً حصن الزوق(٨) ، وحصن
طليس(٩) ، وحصن باتاسا(١٠) ، وحصن ذى القرنين .

وأخذ من أعمال ماردين عدة مواضع ، ورتب أمور الجميع ، وترك فيها من يحفظها إذا سار عنها .

وقصد مدينة آمد ، ومدينة حانى(١١) فحصرهما . فملك مدينة حانى ، فدوخ البلاد ، وأقام
لى آمد محاصراً لها ، وقصده إستطلاع حال الرها على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

فى ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

فى جمادى الاخر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضى الله عنه مدينة الرها من
فرنج ، وكانت لجوسلين(١٢) عاتيهم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد
ذعن له بالنهاية فى الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة . وكان مدة حصارها ثمانية وعشرين
وما ، وأعادها إلى حكم الإسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الإيمان ، وهذه الرها هى من أشرف
لمدن عند النصارى (٧٦ ـ ب) وأعظمها محلا . وهى إحدى الكراسى عندهم ، فأشرفها البيت

---

(١) بالأصل : خرجوا . (٢) بالأصل : استماله واستماله واستصلاحاً .

(٣) طنزة : فى (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه وزاى . بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر .

(٤) أسعرد : لم يذكرها (ياقوت) ، وفى تاريخ الفارقى (ص/٥٩/حاشية/٥ — نقلا عن تقويم البلدان) : بكسر
لهمزة والسين وكسر العين وسكون الراء المهملات ثم دال . ويقال لها « سعرت » ، على جبيل بالقرب من شط دجلة ،
هى عن ميافارقين على مسيره يوم ونصف . (٥) المعدن : فى (ياقوت) : بكسر الدال وآخره نون . قرية من
رى زوزن ، من نواحى نيسابور . وفى السلوك (ج/١/ص/٦٩٠/حاشية/٤) بلدة بأرمينية قرب منبع نهر دجلة ،
سميت بهذا الاسم لوجود مناجم لمعدنى النحاس والحديد بقربها . (٦) العبارة « الذى يعمل منه النحاس من
رمينية » مضطربة المعنى ، ولعلها كانت بخط ابن الأثير : « وملك مدينة المعدن التى يستخرج منها النحاس ، ويعمل فى
رمينية » . (٧) حيزان : فى (ياقوت) : بكسر أوله وسكون ثانيه وزاى وألف ونون . بلد فيه شجر وبساتين
كثيرة ومياه غزيرة . وهى قرب أسعرت من ديار بكر . (٨و٩و١٠) : وردت أسماء الحصون فى ، الكامل ،
رفة عما هى عليه هنا فقد وردت : الدوق ، مطليس ، باسبة . ولم يستطع المحقق ، تحقيق هذه الأسماء لعدم ورودها
ى ياقوت ، كذلك وردت محرفة فى ابن واصل (ح/١/ص/٩٢) . (١١) حانى : فى (ياقوت) : بالنون ،
زن قاضى وغازى ، اسم مدينة معروفة بديار بكر ، فيها معدن الحديد ومنها يجلب إلى سائر البلاد .

(١٢) هو جوسلين الثانى ابن جوسلين الأول .

المقدس ، ثم أنطاكية ، [ثم رومية(١)] والقسطنطينية ، والرها . وكان هذا فتح الفتوح حقا ، وأشبهها ببدر صدقا ، من شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق(٢) سبب . ولو عاصره الطائى(٣) لعلم أنه أولى بقوله ، السيف أصدق أنباء من الكتب ، لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم ، وشرهم إليها جسيم . إذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الإسلامية حصنها ، وانضاف إليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم ، واشتدت على أهلها وطأتهم فملكوا من نواحى ماردين إلى الفرات — على طريق شبختان — عدة حصون ، كسروج ، والبيرة(٤) ، وجملين ، والموزر(٥) ، والقرادى(٦) ، وسن ابن عطير(٧) وغير ذلك(٨) . وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ونصيبين ، ورأس عين ، والرقة . وأما حران فكانت [معهم(٩)] فى الخزى ، كل يوم قد صبحوها بالغارة(١٠) ، فلما رأى (٧٧ - أ) الشهيد الحال هكذا ، أنف لدولته أن يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الإسلام خلال الديار ، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضا ، ولا يمكنه أن يحيل جوهر الكفار بها عرضا ، ما دام بها جوسلين وفرسانه ، وجنوده وأعوانه ، وأنه متى قصدها محاصرا لها إجتمعت الفرنج لحفظها منه ، فعدل إلى أعمال الحيل والخداع ، إذكان أنجع فى هذه الحادثة من المصاع(١١) ، والرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى . فعدل عن قصدها إلى ما جاورها من ديار بكر التى بيد المسلمين ، كحانى ، وجبل جور(١٢) ، وآمد على ما تقدم ذكره ، فكان يقاتل من بها قتالا فيه إبقاء وهو يسر حسوا(١٣) فى ارتغاء(١٤) ، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم ، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده ، وفراغ حصنها من(١٥) أنصاره وأجناده . فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن (٧٧ - ب) أنه لا فراغ له إليه ، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه ، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره وأمواله

---

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٣٦) . (٢) بالأصل : اوثق . (٣) بالأصل : الطاى . وهو الشاعر أبو تمام الطائى ، الذى مدح الخليفة العباسى المعتصم بالله حين فتح عمورية من الروم سنة ٢٢٣ .

(٤) البيرة : فى (ياقوت) : بالباء والياء . بلد قرب سميساط . بين حلب والثغور الرومية . وهى قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع . وفى ، الكامل (ح/٩/ص/١٥٦) ، أنها قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى .

(٥) الموزر لم ترد فى (ياقوت) . وفى ابن واصل ، (ح/١/ص/٩٢/حاشية /١٠) ، أنها كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم . (٦) القرادى : لم يرد لها تعريف فى (ياقوت) . ووردت فى ابن واصل (ح/٣/ص/١٤٠) ، أنها ضيعة من أعمال شبختان ، وفى (ص/١٩٥ — نفس المصدر) أنها ضيعة من عمل ماردين .

(٧) سن ابن عطير : لم يرد لها تعريف فى (ياقوت) . وفى ، الكامل (ح/٨/ص/٢٨٥) قلعة ابن عطير ، وتقع عند الرها . (٨) فى الكامل (ح/٩/ص/٨) . أن هذه الحصون وغيرها مما يقع غرب الفرات كانت لجوسلين صاحب الرها . (٩) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٢٧) . (١٠) بالأصل : باالغاره .

(١١) بالأصل : المصاغ . (١٢) جبل جور : فى (ياقوت) : بالجيم المضمومة وسكون الواو وراء . اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية ، وأهلها نصارى أرمن ، وفيها قلاع وقرى . (١٣) أى على مهل . (١٤) فى غير ضجيج . (١٥) بالأصل : عن .

فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو(١) البلد عن حافظه وحاميه ، فحينئذ أمر بالنداء فى العسكر بالتجهيز والتشمير ، والجد فى المسير ، ويهدد لمن عن صحبته تأخر ، وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره ، والسيل الصائر إلى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ، وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب(٢) ، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب(٣) . فلما علم من بها من العدو إقباله ، سرى الرعب فى أحشائهم ، واختلط الخوف بدمائهم وسقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين(٤) ﴾ . فأبى الله إلا أن ينتقم (٧٨ ـ أ) منهم بسيف الشهيد ، ويجمع فى جهنم بين الغائب منهم والشهيد ، جزاء بغيهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه إليهم عقابا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم نفوسهم ، ونكست لشدة هيبته رءوسهم ، ووافى البلد فى حده وحديده ، وعده وعديده وبمواكبه(٥) المنصورة ، وجموعه المحشورة ، وبنوده المنشورة ، كما قال فيه [المؤرخ(٦)] :

بجيش جاش بالفرسان حتى ... ظننا البر(٧) بحرا من سلاح
وألسنة من العذبات حمر ... تخاطبنا بأفواه الرياح
وأرع جيشه ليل بهيم ... وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن ... قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان(٨) ثباته للقلب قلبا ... وهيبته جناحا للجناح

وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض تزلزل . والنهار بسواد الليل يسربل (٧٨ ـ ب) ، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون إلى البوار ، يتهافتون إلى القتال تهافت الفراش فى النار ، أخذا بقول [من] يقول(٩) :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة والحسن ، فراسل(١٠) أهله يبذل لهم الأمان والأمن ، ليسلموه سليما من إخراب أسواره(١١) ، وإخلاء دياره ، ضنا منه على مثله أن يصبح

---

(١) بالأصل : وخو . (٢) الجنائب : الريح الجنوبية (مختار الصحاح) . (٣) بالأصل : الجنائب . والنجائب جمع نجيب ، وهى الإبل . (٤) سورة الأعراف : ١٤٩ . (٥) بالأصل : وعاكره .
(٦) الإضافة من المحقق ، ونعنى به ابن الأثير نفسه . وذلك استنادا على ما جاء فى الروضتين (حـ/١/ص/٣٧) ما نصه : « ... فأقبل الشهيد بعساكره إلى الرها ، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد » . ثم ذكر أبو شامة نفس الأبيات الخمسة . وعبارة أبو شامة تشير إلى أن الشعر لابن الأثير . أما اللفظ الذى أضفناه ، من المؤكد أنه سقط سهوا من الناسخ . (٧) بالأصل : البحر . (والتصحيح من الروضتين ، ج/١/ص/٣٧) .
(٨) بالأصل : فكان . (والتصحيح من الروضتين . حـ/١/ص/٣٧) . (٩) بالأصل : بقوله يقول . وقد أسقط المحقق اللفظ : يقول ، لأنه زائد . (١٠) بالأصل : فراسله . (١١) بالأصل : سواره .

خاويا على عرشه ، وأن يلتحق سماؤه بفرشه ، فأبوا قبول الأمان ، وامتنعوا من الإذعان ، فاستخار الله تعالى فى قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ، ونصب المجانيق ، وقدم النقابين ، وألح على من به القتال ، خوفا أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه ويستنقذونه(١)منه . وبلغ الخبر إلى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشابهم وكهلهم ، وحرصوا على السرعة خوف الفوات (٧٩ ـ أ) وعاد جوسلين عند سماعه الخبر إلى شرق الفرات ، لعله يجد فرصة ليدخل إليها ، أو يرسل نجدة يحافظ عليها ، فحيل بينه وبين ذلك ، وأنى يكون مايريدوخصمه الشهيد أتابك . ولم يزل [الشهيد] يزحف إليها مرة بعد أخرى ، حتى وصل النقابون إلى سورها فنقبوه ، فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة وقهرا ، وأوسع كل من فيه نكالا(٢)وشرا ، فلما ملكها استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه بين قتيل وأسير ، وجريح وكسير ، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبى ، من كل مال نفيس وغلام رائق ، وبكر كالظبى عاتق ، وأصابهم من النكال ما هو لهم عتيد ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد(٣) ﴾ . ثم إنه دخل البلد فراقه منظره ، وشاقه مخبره ، فأسف لمثله من الخراب ، وأن(٤) يستولى عليه فى ملكه البوار والتباب ، ورأى إن أخربه وأخلاه من أهله ، غير (٧٩ — ب) مستحسن من مثله ، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال ، وسبى ورجال ، وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً ، وآهلا وآمنا بعد أن كان للذئاب والخامع(٥) مسكناً ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من(٦) هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها ، وأخلى الديار الجزرية من(٧) معرة الفرنج وشرهم ، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدى الإيمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون أدبارهم ، ويوحشون منهم ديارهم ، والكفرة يجدون فى الهرب ، خوف العطب ، وكلهم من الرعب لاه ذاهل ، ومنادى التوحيد ينادى : جاء الحق وزهق الباطل . وألقى الإسلام بهذه البلاد جرانه ، وبث فيها(٨٠ — أ) أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله فى قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض(٨) ﴾ . فهى لهم إلى يوم العرض . وكان فتحا عظيما لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار فى الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلأت به المحافل فى الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء ، واستبشر به الأبرار والأصفياء . حكى لى جماعة أعرف

---

(١) بالأصل : يستقدونه . (٢) بالأصل : مكالا . (٣) سوره هود : ١٠٢ . (٤) اللفظ مكرر بالأصل . (٥) بالأصل : الجامع . (والتصحيح من «دى ساين» (ص/١٢٣) . والخامع ، الضبع لأنها تخمع إذا مشت . (محيط المحيط) . (٦) بالأصل : فن . (٧) بالأصل : عن . (٨) سورة النور : ٥٥ .

صلاحهم ، أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن على بن مهران الفقيه الشافعى — وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين فى الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة — ذكروا عنه أنه غاب عنهم فى زاويته يوم ذلك ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الإرتياح مالم يروه أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثنى بعض إخواننا ، أن أتابك زنكى فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا ، ثم قال : ما يضرك يازنكى ما (٨٠—ب) فعلت بعد اليوم ، وبقى يردد هذا القول مرارا ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح . ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ ، وقالوا له : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح ، وهو ينكر حضوره ، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا . وحكى لى أيضا بعض العلماء بالأخبار والأنساب — وهو أعلم من رأيت بها — قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها ، وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه وأنسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ، ويرجع إلى قوله ، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلما كان الوقت الذى فتحت فيه الرها ، قد سير هذا ملك الفرنج جيشا فى البحر إلى إفريقية ، فنهبوا وأغاروا وأسروا ، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس ، وعنده هذا العالم المغربى ، وقد نعس وهو شبه النائم ، فأيقظه الملك (٨١— أ) وقال له : يا فقيه ، قد فعل أصحابنا بالمسلمين(١) كيت كيت ، أين كان محمد عن عن نصرهم . فقال : كان قد حضر فتح الرها . فتضاحك من عنده من الفرنج . فقال لهم الملك : لاتضحكوا ، فوالله ما قال عن غير علم ، واشتد هذا على الملك . فلم يمض غير قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدة هذا الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلو منزلة الرها عند النصرانية . وحكى لى أيضاً غير واحد [ممن(٢)] أثق [به] : أن رجلا من الصالحين ، قال : رأيت الشهيد بعد قتله فى المنام فى أحسن حال ، فقلت له : ما فعل الله بك . فقال : غفر لى . فقلت : بماذا . قال : بفتح الرهاء .

ذكر محاصرة الشهيد قلعة ألبيرة

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها وإصلاح حالها ، والإستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات ، سار إلى قلعة ألبيرة — وهى(٣) حصن حصين مطل على الفرات ، وهو لجوسلين أيضا — (٨١—ب) فحصره وضيق على من به ، وغاداهم القتال وراوحهم ، وقطع عنهم الميرة حتى أشرفوا على تسليمها ، فأتاه خبر قتل نصير الدين جقر نائبه بالموصل والبلاد الشرقية ، فرحل عنها خوفا أن يحدث بعده فى البلاد فتق يحتاج(٤) إلى المسير إليها ، فلما رحل عنها ، سير إليها حسام الدين

(١) بالأصل : المسلمين . (٢) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/٣٧) . (٣) بالأصل : وهو .
(٤) بالأصل : نجاح . (والتصحيح من ، الروضتين حـ/١/ص/٤٠) .

تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين عسكرا ، فسلمها الفرنج إليهم(١) ، خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها(٢) .

ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك ألب أرسلان

فى ذى القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، قتل نصير الدين جقر(٣) بن يعقوب ، نائب الشهيد بالموصل وسائر البلاد الشرقية . وكان سبب قتله ، أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجى(٤) ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد وهو أتابكه ومربيه ، وكان يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف (٨٢ — أ) أن البلاد التى بيده ، إنما هى للملك ألب أرسلان ، وأنه نائبه فيها ، فكان إذا أرسل رسولا ، أو أجاب(٥) عن رسالة ، فإنما يقول ، قال(٦) الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب [له](٧) السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك . وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ، وبها نصير الدين — وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه [ويقف(٧)] عنده ساعة ثم يعود — فحسن المفسدون للملك قتله ، وقالوا له : إنك إن قتلته ملكت الموصل وغيرها ، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسان عليك . فوقع هذا فى نفسه وظنه صحيحاً ، فلما دخل نصير الدين إليه على

---

(١) فى ، الكامل (ح/٩/ص/١٠) ، أن أهل ألبيرة هم الذين استدعوا حسام الدين ليسلموا إليه البلد خوفا من أن يعود إليهم عماد الدين ولعل أهل ألبيرة أرادوا أن يوقعوا بين عماد الدين وحسام الدين ليتخلصوا منهما جميعاً .

(٢) بالأصل : فيأخذهم . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٤١) . (٣) بالأصل : جعفر . (والتصحيح من النص نفسه) . ولم يعثر المحقق على ترجمة لنصير الدين ، وإنما يفهم مما جاء فى « تاريخ دولة آل سلجوق » أنه كان سىء السيرة ، وأن عماد الدين لم يكن راضياً عنه ، فقد ذكر العماد الكاتب ، أن عماد الدين استصفى أمواله بعد قتله « واستخرج ذخائره ، واستنظف أوله وآخره ، وصادر أهله وأقاربه ، وأحل بنوابه نوائبه ، وسلبهم القوة والقوت ونوع عليهم جوره الممقوت » (ص/١٨٧ — ١٨٨) . (٤) يختلف العماد الكاتب مع ابن الأثير فى لقب الملك أرسلان وأنه ليس هو المعروف بالخفاجى ، وإنما المعروف بهذا اللقب ، هو أخوه فرخشاه ، ونص ما ذكره العماد عن قتل نصير الدين والملك الذى قتله (ص/١٨٧) : « كان مع زنكى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه ، أحدهما يسمى ألب أرسلان ، وهو فى معقل من معاقل سنجار ، والآخر يسمى فرخشاه ، ويعرف بالملك الخفاجى ، وهو بالموصل . وكان هذا الملك مسلما إلى الأمير دبيس بن صدقة ، فانتزعه منه زنكى فى حرب ، وأنزل من إكرامه فى منزل رحب . وكانت الخاتون السكمانية زوجة زنكى تربيه وتبريه وتجرى به فى حلبة تجريبه وتجربه حتى بلغ وأدرك ، وساكن فطنته تحرك . وفهدته المرأة غير مرة وأنهدته ، وعاهدته على الوفاق وعلى الوفاء عهدته . وتأسد الشبل وضاق به عرينه ، وشمخ عرنينه . وكان نصير الدين جقر (هكذا بالمرجع) نائب زنكى بالموصل للدماء سفاكا ، وبالنفوس فتاكا ، يأخذ البرىء بالسقيم ، ويلحق الولود بالعقيم ، ... وأنه لما أحس من الملك نحس الملك ، صار يقبض عنانه ، ويبسط فيه لسانه ، ويقول : إن عقل وإلا عقلته ، وإن نقل طبعه وإلا نقلته . فسمع الملك ما راعه ، وأسره فى نفسه وما أذاعه . . فقدر ودبر ، وفكر ومكر ، وجمع إليه من حوله ، وقال لهم فكتموا قوله ، واتفقوا على أنه إذا جاء إلى سلام خاتون أو سلامه ، أحيط به من خلفه ومن قدامه ، فإذا أصابوا منه المقتل ، ملكوا الموصل » . ثم ذكر العماد قتله بيد حاشية الملك ، ثم قال ، إنه بعد أن قبضوا على الملك فرخشاه وقضوا عليه ، « عطف زنكى على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله ، وعنى بتفاصيل أمره وجمله ؛ وضرب له نوبتية ونوبا ، ورتب له فى حالتى جلوسه وركوبه رتبا ، وأغرى بتولى إكرامه وتوخيه ، وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه » . (٥) بالأصل : وأجاب . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٤١) . (٦) بالأصل : فان . (٧) : الإضافة من الروضتين (ح/١/ص/٤٧)

عادته ، وثب عليه جماعة فى خدمة الملك فقتلوه(١) ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك ألب أرسلان البلاد ، فكان الأمر بخلاف الذى ظنوا . فإن أصحابه (٨٢—ب) وأصحاب [أتابك(٢)] الذين معه ، لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير . وكانت دولة(٣) الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوى الرأى والتجربة . فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء . وكان من جملة من حضر ، القاضى تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى ، فدخل إلى السلطان(٤) وخدعه حتى أصعده إلى القلعة ، وهو يحسن له الصعود إليها لتملكها ، وحينئذ يستقر له ملك البلد . فلما صعد إلى القلعة سجنوه بها ، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين ، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال ، فسكن(٥) جأشه واطمأن قلبه ، إلا أنه لم يستقر جنانه حتى أقام بها النواب ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ولاية زين الدين على قلعة الموصل

لما قتل نصير الدين ، أرسل أتابك الشهيد ، شرف الدين ابن أخت نصير الدين إلى الموصل ليتولى ما كان خاله يتولاه (٨٣— أ) ، ولم يعطه علامة التسليم ولا كتب له منشورا ، وقال له : كل من هناك غلمانكم ، وتقدم إليه بما يفعل . فسار حتى وصل إلى الموصل . وكان بقلعة الموصل نقيب اسمه حسن ، فلما قتل نصير الدين ، أغلق باب القلعة وجمع الأجناد عنده فى حفظها ، فلما وصل ابن أخت نصير الدين ، أرسل إليه النقيب يقول له : إرسل إلىّ منشور المولى أتابك بولاية القلعة ، فإذا رأيت علامته أذنت لك فى الدخول ومعك من يخدمك حسب . ثم أرسل أنا إلى أتابك من أثق إليه أستأذنه فى تسليم الأمر إليك ، فإذا أذن فعلت ، وإن لم يأذن أخرجتك منها . فترددت الرسل بينهما حتى أذن له فى دخول القلعة على القاعدة المذكورة . فبينما هو يريد دخول البلد ، إذ رأوا غبرة مقبلة من طريق الشهيد فأقاموا ينتظرونها ، وإذ قد انكشفت عن زين الدين على [بن بكتكين(٦)] قد جاء مجدا ليكون نائبا فى القلعة . وكان سبب ذلك أن الشهيد تغير (٨٣—ب) عزمه عن الأول لأسباب يطول ذكرها ، فأرسل زين الدين — وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه — فوصل الموصل فى تلك الحال ، فقال له النقيب حسن مثل قوله لشرف الدين ابن أخت نصير الدين ، فأجاب زين الدين إلى ذلك ، ودخل القلعة فى نفر يسير ، وأرسل النقيب إلى الشهيد من يثق إليه يستأذنه ، فأمره بتسليم القلعة إلى زين الدين ففعل . واستقر زين الدين

---

(١) فى ، الكامل (حـ/٩/ص/٩) ، أن الذين قتلوا نصير الدين ، هم من كان عند الملك من أجناد عماد الدين ومماليكه . (٢) الإضافة من ، الروضتين (جـ/١/ص/٤١) . (٣) بالأصل : دور . (والتصحيح من الروضتين ، حـ/١/ص/٤١) . (٤) هذا سهو من ابن الأثير ، لأن آلب أرسلان لم يكن سلطاناً ، وإنما كان ملكا فقط .
(٥) بالأصل : فتسكن . (٦) الإضافة من النص نفسه ، من ترجمته له فيما يلى سنة ٥٦٣ .

وتمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التى سلكها نصير الدين وسهل الأمر ، فأطمأن الناس وأمنوا ، وازدادت(١) البلاد معه عمارة .

حصر حصن فنك(٢)

هذا (٣) الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر ، وهو للأكراد البشنوية(٤) إلى زماننا هذا ، وله معهم مدة طويلة ، يقولون نحو ثلاثمائة سنة . وهو من أمنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها (٥) . فلما كان سنة أربعين (٨٤ — أ) وخمسمائة(٦) ، تقدم أتابك إلى زين الدين على بإرسال عسكر إليه يحصره ، فسير خلقا كثيراً من الفرسان والرجالة فحصروه ، وأقاموا عليه يحصرونه إلى أن قتل الشهيد ، وضيقوا على أهله ومنعوهم الميرة وهم صابرون . فلما قتل الشهيد زال عنهم الحصر ، وانكشف ما بهم من الضر ، وكان لأصحابه معه عدة حصون أخذها منهم الشهيد ، كالهيثم ، وجديدة نصيبين(٧) ، وشاروا ، وغيرها من قلاع الزوزان(٨) .

ذكر حصار قلعة جعبر

قال . كانت هذه قلعة جعبر(٩) ، قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلى على ماذكرنا عند ملك قسيم الدولة مدينة حلب ، فلم تزل بيده وبيد أولاده إلى هذه السنة — وهى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة — فسار الشهيد إليها لحصرها ، وكان الباعث على حصرها وحصر فنك ، أن لا يبقى فى وسط بلاده ماهو لغيره — وإن قل — للحزم الذى عنده والاحتياط ، (٨٤ — ب) وأقام عليها يحصرها بنفسه . ومن أعجب موافقة الأقوال للأقدار ، ماحكى

---

(١) بالأصل : وازداد . (٢) فنك : فى (ياقوت) : بالفتح أولا وثانياً وكاف . قلعة حصينة منيعة للأكراد البشنوية ، قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو من ، فرسخين ، ولايقدر صاحب الجزيرة ولا غيره — مع مخالطتهم للبلاد — عليها وهى بيد هؤلاء الأكراد منذ سنين كثيرة نحو الثلاثمائة سنة . وفيهم مروة وعصبية ، ويحمون من يلتجىء إليهم ويحسنون إليه . (٣) بالأصل : هذه . (٤) بالأصل : الشنوية . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٤١) . (٥) بالأصل : بينهما . (٦) فى الكامل (ح/٩/ص/١٢) ، أن حصار فنك كان سنة ٥٤١ ، أثناء حصار عماد الدين قلعة جعبر . (٧) جديدة نصيبين : فى (ياقوت) : قلعة فى كورة بين النهرين التى بين نصيبين والموصل ، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل . وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا ، ولها قرى ومزارع . (٨) الزوزان : فى (ياقوت) : زوزان . بفتح أوله وثانيه ثم زاى أخرى وآخره نون . كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان ودياربكر والموصل . وأهلها أرمن ، وفيها طوائف من الأكراد . وينقل عن ابن الأثير ، أن الزوزان ، ناحية واسعة شرقى دجلة من جزيرة ابن عمر . وأول حدوده من نحو يومين من الموصل إلى حدود « خلاط » وينتهى حدها إلى أذربيجان إلى أول عمل سلماس . وفيها قلاع كثيرة حصينة ، وكلها للأكراد البشنوية والبختية . فمن قلاع البشنوية : قلعة برقة ، وقلعة بشير . وللبختية قلعة جرذقيل ، وهى أجل قلعة لهم ، وهى كرسى ملكهم ، وآتيل ، وعلوس . وبإزاء الحراء لأصحاب الموصل : ألقى ، وأروخ ، وباخوخة ، وبرخو ، وكنور ، ونيروه ، وخوشب . (٩) قلعة جعبر : فى (ياقوت) : على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، وكانت قديماً تسمى دوسر . وكان يملكها رجل من بنى قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك .

لى والدى قال : أرسل الشهيد ، الأمير حسان المنبى إلى صاحب القلعة لمودة بينهما فى معنى تسليمها(١) إليه ، وقال [له] : تضمن له عنى الإقطاع الوافر والعطاء الكثير، فإن أجاب إلى التسليم، وإلا فقل له : والله لأقيمن محاصرا لك إلى أن أملكها عنوة ، ثم لا أبقى عليك ، ومن الذى يمنعك منى . فصعد إليه حسان وأخبره برسالة أتابك ، وأشار عليه بالتسليم إليه، فامتنع . فقال له فهو يقول لك ، إن سلمت وإلا فعلت وصنعت ، وما الذى يمنعك منى . فقال : قل له ، يمنعنى منه الذى منعك ياحسان من الأمير بلك . فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه وكتم عنه هذا . فلم يمض غير قليل ، حتى قتل الشهيد وفرج الله عن صاحبها . قال . وكانت قصة حسان مع بلك ، أن حسانا(٢) كان صاحب منبج فحصره بلك (٨٥ — أ) — وهو ابن [أخى] إيلغازى بن أرتق — وضيق عليه ، فبينما هو فى بعض الأيام يقاتله ، إذ جاءه سهم لايعرف من أين جاء ، فقتله وخلص حسان منه (٣) .

ذكر قتل الشهيد زنكى رضى الله عنه

قد ذكرنا حصار قلعة جعبر وملازمة الشهيد قتالها ، فلم يزل كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال ، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة ولم يجهزوا عليه(٤) وهربوا من ليلتهم إلى القلعة [ولم يشعر أصحابه بقتله ، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة(٥)] صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر أصحابه إليه ، فأدركه أوائلهم وبه رمق . حدثنى والدى عن بعض خواصه ، قال : أدركته وهو فى السياق ، فحين رآنى ظن أنى أريد قتله ، فأشار إلى بإصبعه السبابة ، فوقفت من هيبته ، وقلت له: يامولانا من فعل بك هذا حتى أقتله ، فلم يقدر على الكلام . وختم الله بالشهادة أعماله ، وفاضت(٦) منه نفسه (٨٥ — ب) وسكن رمسه ، وأصبح معدوماً كأن لم يغن بالأمس ، وزال عنه الملك ، واستولى عليه الهلك ، ولم يغن عنه أصحابه وعساكره ، ولاحماه أمواله ودساكره ، ولا أخر الأجل مماليكه وأجناده ، ولازحزح عنه الفناء حصونه وبلاده ، كما [قال] فيه بعض الشعراء ، حيث يقول :

فاعجب لمن قاد الجيوش ونفسه ... قسمان بين الكر والإقدام
يلقى الكتايب مفرداً بكتايب ... من نفسه واليوم يكدر(٧) حامى
لايرعوى عن أن يقارع وحده ... ألفا بأبيض صارم صمصام

(١) بالأصل : تسلمها .
(٢) بالأصل : حسان
(٣) عن مقتل بلك بن بهرام بن أرتق ، أنظر ، الكامل (ح/٨/ص/٣١٥ — سنة ٥١٨) .
(٤) فى « تاريخ دولة آل سلجوق » (ص/١٨٩) ، أن سبب قتله ، أنه نام يوما وهو مخمور ، وكان بعض مماليكه يلعبون ويطربون فهددهم ، فقتلوه خوفاً منه .
(٥) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٤٢) .
(٦) بالأصل : فاطت .
(٧) بالأصل : لكدر .

يأتى الفتوح على الفتوح بسيفه ... وبرأيه وبعزمه المقدام
حتى إذا الأجل انقضى مستكملا ... ماخط فى الألواح بالأقلام
لاقى الحمام ولم يكن (١) مستيقنا ... أن الحمام سيبتلى بحمام

وأضحى(٢) وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، وتخلى عنه العبيد والخول ، فأى نجم للإسلام أفل ، وأى ناصر للإيمان رحل ، وأى بحر ندى (٨٦ — أ) نضب ، وأى بدر مكارم غرب ، وأى أسد افترس ، ولم ينجه قلة حصن ولا صهوة فرس ، فكم أتعب نفسه لتمهيد الملك وسياسته ، وكم أذابها فى حفظه وحراسته ، فحين بلغ من ذلك ما أراد ، واستكمل فى سعة الملك وشدة الهيبة وزاد ، وهانت عليه المصاعب ، وزالت المتاعب ، واستكانت لصولته القروم ، وخضعت لهيبته الترك والفرنج والروم ، أتاه مبيد الأمم ومفنيها فى الحدث والقدم ، ومهلك العرب والعجم ، فأخذ من العالم سره وروحه ، وسقاه بكأسه غبوقه وصبوحه(٣) ، وزال عنه سلطانه ، وبعد عنه حماته وأعوانه ، وفارقه أنصاره وخلانه ، وأخذه من جميع مايملك وحيدا ، وجعله فريدا ، وأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا ، وبعد وثير المضاجع فى التراب معفرا مقبورا ، رهين جدث لا ينفعه إلا ماقدم ، ولايقبل (٨٦ — ب) من ساكنه فيه الندم ، وقد طويت صحيفة عمله ، ونشرت جريدة أجره ، ونسخت آية عمره ، وبليت سورة ذكره ، فلو شوهدت وقعاته لم تذكر وقعة الهباء(٤) ، ولا سطرت حرب الآلاء ، ولو نظرت فتكاته لأنسيت البراض(٥) والجحاف(٦) ، أو عد صرعى سيفه لكاثرت(٧) هلكى الجحاف(٨) ، وحين اخترمته المنية ، وخانته الأمنية ، أضحى الإسلام لفقد ناصره عبوساً ترحاً ، والكفر لعدم خاذله جذلا مرحاً ، وما علما أن لهما من الملوك أبنائه جابرا وكاسرا ، ومؤيدا وقاهراً ، بل من يربو(٩) [فى] نصرة التوحيد عليه ، ويزيد فى هدم منار التثليث وتعجل الثأر(١٠) إليه :

زاد على ماقام آباؤه ... به وقد شاد الذى أثلوه
أقصر أهل العصر عن شأوه ... حسرى وطال الكل إذ طاولوه

وسيرد من فتوحهم وجهادهم مايرقع هذا الخرق ، ويجبر هذا الوهن . ولما قتل دفن بصفين

---

(١) بالأصل : اكن . (٢) بالأصل : اضحا . (٣) الغبوق : الشرب بالعشى . والصبوح : الشرب بالغداة . (مختار الصحاح) . (٤) بالأصل : الهباه . ووقعة الهباء من أيام العرب فى الجاهلية بين عبس وذبيان على ماء يسمى « جفر الهباءة » . وتفاصيلها فى « العقد الفريد » (ح/٥/ص/١٥٦) .

(٥) البراض : هو البراض بن قيس ، أحد فتاك العرب المشهورين ، وقد تسبب فى حرب الفجار بين كنانة وقيس عيلان فى الجاهلية . وتفاصيل الوقعة ، فى « العقد الفريد » (ح/٥/ص/٢٥٣) . (٦) بالأصل : الحجاف . وهو الجحاف بن حكيم السليمى ، وكان بينه وبين الأخطل الشاعر عداوة ، أثار الجحاف بسببها حرباً على بنى تغلب — قوم الأخطل — فقتل فيهم مقتلة عظيمة . (الكامل ، ح/٤/ص/٨ . سنة ٧٠ هـ) . (٧) بالأصل : لكثره .

(٨) هو سيل وقع بمكة عام ٨٠ هـ ، عرف بسيل الجحاف « لأن ذلك السيل يجحف كل شىء مر به » . (الطبرى ، ح / ٥ / ص / ١٣٨) (٩) بالأصل : يزبى . (١٠) بالأصل : الثار .

عند أصحاب أمير المؤمنين على (٨٧ — أ) عليه السلام . ولقد بلغنى أنه اجتاز بهاوزار مشاهدها ثم قال : وددت أنى شهدت صفين بعسكرى مع أمير المؤمنين على عليه السلام ، حتى كنت أريه القتال الذى يعجز أصحابه عنه . ولكل إمرئ ما نوى . وأما صورته ، فإن والدى حكى لى ، قال : كان حسن الصورة ، أسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، طويلا ، وليس الطويل البائن ، قال : وأشبه من رأيت به ، حفيده(١) السعيد عز الدين أتابك مسعود بن مودود ابن زنكى ، إلا أن الشهيد كان أتم قامة(٢) منه . وخلف من الأولاد : سيف الدين غازيا(٣) — وهو الذى ولى الملك بعده — ونور الدين محمودا(٤) ، الملك العادل ، وقطب الدين مودودا(٥) [وهو] أبو الملوك الآن بالموصل ، ونصرة الدين أمير أميران . فانقرض عقب (٨٧ — ب) سيف الدين من الذكور والإناث ، وعقب نور الدين من الذكور . ولم يبق الملك إلا فى عقب قطب الدين . وخلف الشهيد أيضاً بنتاً . ولقد أنجب رحمه الله ، فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم وسنذكر من أخبارهم ما يعلم صحة ما قلناه .

ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضى الله عنه

كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزما وضبطا للأمور ، كانت رعيته فى أمن شامل لعجز القوى عن التعدى على الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وإنصافه وشجاعته وغير ذلك ، ما يعلم به محله من العقل، وحسن قيامه بأمر الملك واضطلاعه به ، وإن من تقدمه من الملوك لم يصلوا إلى ما أوتيه من ذلك ، وحينئذ تقول : كم ترك الأول للآخر .

فمن ذلك إنصافه بين القوى والضعيف . حدثنى والدى رضى الله عنه، قال : قدم الشهيد — قدس الله روحه — (٨٨ — أ) إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين — وكان الزمان شتاء — فنزل بالقلعة ونزل العسكر فى الخيام ، وكان فى جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسى — وهو من أكابر أمرائه ، ومن ذوى الرأى عنده — فدخل الدبيسى البلد ونزل بدار إنسان يهودى وأخرجه منها ، واستغاث اليهودى إلى الشهيد وهو راكب ، فسأل عن حاله فأخبر به ، وكان الشهيد واقفاً والدبيسى إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر ، نظر إلى الدبيسى نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها(٦) [خارج البلد(٧)]

---

(١) بالأصل : حاقده . (والتصحيح من ، دى سلين ، ص/١٣٥). (٢) بعده فى النص ما يأتى ، ثم ضرب عليه الناسخ : وخلف من الأولاد سيف الدين غازى وهو الذى ولى الملك بعده ونور الدين محمد الملك العادل وقطب الدين مودود بن زنكى إلا أن الشهيد كان اتم قامه منه . (٣) بالأصل : غازى . (٤) بالأصل محمود .
(٥) بالأصل : مودود . (٦) بالأصل : ينصبها . (٧) : الإضافة من، الروضتين (حـ/١/ص/٤٣) .

ولم تكن(١) الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبنا ليقيموها(٢) وينصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته . وناهيك بهذا سياسة وإنصافا .

قال : وكان ينهى أصحابه عن إقتناء الأملاك (٨٨ — ب) ويقول : مهما البلاد لنا فأى حاجة بكم إلى الأملاك ، فإن الإقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم . رحمه الله ورضى الله عنه ، فلقد كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فما أحسن هذا الخلق ، وأحسن هذا النظر للرعايا ، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم ، لا خلاف فى أن عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الأيدى المتطاولة إلى أهلها .

ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه عرف مقدار ما عمر منها . حكى لى والدى قال : رأيت الموصل التى هى أم البلاد فى أول أيام الشهيد وأكثرها خراب ، فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة وإلى دور السلطنة ، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركمانى ، وهو قريب من الطبالين ، وكان (٨٩ — أ) الجامع العتيق أيضاً بلا عمارة ألبتة . وكانت(٣) جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة ، وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر ، وكان الناس لا يقدرون على المشى إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة . وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الأمير ناصر الدين كورى(٤) بن جكرمش ، فإنه طلب من الشهيد أن يأذن له ليبنى دارا قريباً من خدمته ، فأجابه إلى ذلك ، وأمره أن يبنى بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق ، فبنى داره الأولى ، وهى اليوم مدرسة وقفتها أم الملك الصالح(٥) . ثم بنى بعد ذلك داره الأخرى أقرب إلى دار المملكة . وهذا الذى ذكرناه عن خراب البلد كثير جداً . فلما طالت الأيام الشهيدية ، وحمى البلاد ومنع المفسدين وكف أيدى الأقوياء ، سارت سيرته فى البلاد ، فقصده الناس واتخذوا بلاده دارا ، فإنه من أكرم إرتبط . فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها ، حتى لقد ذهب كثير من المقابر (٨٩ — ب) وبنيت دورا . وهو الذى أمر ببناء دور المملكة بالموصل ، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ، فبنى هذه الدور جميعها ، ثم أمر بالزيادة فى علو سور الموصل فزيد(٦) فيه مايقارب

---

(١) بالأصل : يكن . (٢) بالأصل : ليقها . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٤٣) .
(٣) بالأصل : وكان . (٤) بالأصل : لورى (وقد سبق ذكره ، ص/١٦) .
(٥) هو الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين بن عماد الدين زنكى . وقد خلف أباه بعد وفاته سنة ٥٦٩ .
(٦) بالأصل : فزيده .

مثله ، وأثره ظاهر إلى يومنا هذا فى السور . وأمر أيضاً بتعميق خندقها ، فعمل على ما هو عليه اليوم . وكانت الموصل أولا بغير سور(١) ، فأول من عمل لها سورا شرف الدولة مسلم بن قريش، ولم يعمل له فصيلا ولا خندقا ، وكان قليل العلو . فلما ملكها جكرمش بنى فصيلها وحفر لها خندقا وليس بالعميق ، فلما ملكها الشهيد وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسمائة ثم عاد عنها ، أتم سورها وخندقها ، ففعل ذلك وتولاه نائبه نصير الدين . فهذا السور وهذا الخندق هما (٢) على الحال التى عملت فى الأيام الشهيدية . وهو الذى فتح الباب (٩٠ — أ) العمادى وإليه ينسب .

قال المؤرخ . وكانت الموصل أقل بلاد الله فاكهة ، فكان الذى يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه . فلما عمرت البلاد، عملت البساتين بظاهرها وفى ولايتها ، فهى اليوم أكثر البلاد فاكهة ، فالرمان يبقى(٣) إلى أن يدرك العتيق والجديد ، وكذلك الكمثرى(٤) ، وقريب منه العنب ، وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد .

ومن ذلك حسن رأيه رحمه الله

فمن آرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار(٥) الأطراف وما يجرى لأصحابها حتى فى خلواتهم ، ولاسيما دركاه(٦) السلاطين . وكان يخسر على ذلك المال الجزيل . وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان فى ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهزل وجد وغير ذلك . فكان يصل إليه فى كل يوم من عيونه عدة قاصدين .

قال والدى رحمه الله : وكان مع اشتغاله (٩٠ — ب) بالأمور الكليات من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير . وكان يقول : إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا . قال : فمن ذلك ، أننى وصلت إلى عسكره بقلعة جعبر قبل قتله بأيام ، وقصدت خيام جمال الدين الوزير ، فحين وصلت أدخلنى إليه ، فبينما أنا عنده ، وهو يسألنى عن طريق ، وإذ قد جاءه مملوك تركى من عند الشهيد وقال له بالعجمية كلاما لا أعلمه . فقال لى جمال الدين : متى وصلت . فقلت : الساعة . فقال هذا عجب تجىء الساعة ويسمع أتابك بوصولك ، ولا شك قد علم بك قبل وصولك إلى ، وقد أرسل يقول : سله عن فنك وحصارها وأحوال الجند عليها ، وما يصل إليهم من الجامكيات(٧) والسلاح وجميع الأحوال . قال : فحدثته بجلية الحال كأنه يشاهده فمضى وعاد ، وقال : يقول لك ،

---

(١) بالأصل : صور . (٢) بالأصل : هو . (٣) بالأصل : يبق .
(٤) بالأصل : الكمثرا . (٥) بالأصل : بأخيار . (٦) دركاه : هى الساحة أمام قصر السلطان ، أو الدهليز ، أو الرواق ، أو المدخل . (ابن واصل ، ح/١/ص/١٠٢/حاشية/١) . وفى (المعجم فى اللغة الفارسية) يرسم اللفظ هكذا : دركاه ، وهو ، سراى الملك . (٧) الجامكيات ، مفردها ، جامكية ، وهى الراتب عامة . (السلوك ، ح/١/ص/٥٣/حاشية/٢) . وهى هنا رواتب الجند .

إن كنت تعلم أن هناك نقصا[1] فى شىء مما يحتاج إليه المحاصر فعرفنا (٩١ — أ) حتى نزيله ونفعل مايجب . فقلت : ليس هناك إلا ما يحب المولى وزدته شرحا ، فانظر إلى هذه الهمة ، وإلا فأى محل لفنك فى سعة مملكته الطويلة العريضة .

قال : وأصغر من هذا أنه بلغه أن جماعة من فلاحى مدينة الموصل رحلوا إلى بلد ماردين ، فأرسل إلى حسام الدين[2] يطلب منه أن يعيدهم ، فرد الجواب : إننا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخفف عنهم ، ونأخذ منهم فى القسمة من الغلال العشر ، فلو فعلتم أنتم مثل فعلنا لم يفارقوكم . فقال الشهيد لرسوله : قل لصاحبك ، إذا أخذت أنت من كل مائة [سهم ؟] سهما واحدا كان كثيرا لك ، لأنك مشغول بلذتك فى رأس ماردين . وأما أنا فإذا أخذت الثلثين كان قليلا ، لما أنا بصدده من قصد الأعداء والجهاد ، ولولاى لطال عليك أن تشرب الماء آمناً فى ماردين ، ولكان الفرنج ملكوها ، ولئن لم تعد الفلاحين وإلا أخذت كل فلاح فى بلد ماردين إلى بلد الموصل ، فأعادهم . فهذا [إهتمام] لا[3] مزيد عليه[4] فى معرفة (٩١ - ب) أحوال المملكة .

قال . ومن جملة رأيه الحسن ، أنه كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم، فلا يرفع أحداً فوق قدره الذى يستحقه ولا يضعه دونه ، ويثق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه ، فمن ذلك أنه كان له طشت دار[5] يسمى سبلتوه فسلم إليه يوما خشكنانكة[6] وقال [له] : إحفظ هذه . فبقى نحو سنة لا تفارقه الخشكنانكة خوفا أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك قال له : أين تلك الخشكنانكة . فأخرجها فى منديل وقدمها بين يديه ، فاستحسن ذلك منه ، وقال : مثلك ينبغى أن يكون مستحفظ الحصن ، وأمر له بدزدارية قلعة كواشى ، فبقى فيها إلى أن قتل أتابك .

ومن آرائه : أنه كان لا يمكن أحدا خدمه من مفارقة بلاده ، وكان يقول : إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها . فمن (٩٢ — أ) [ذلك أنه[7]] هرب منه أمير كبير يقال أبو بكر — وكان مقدم البكجية ، وهو مقطع نصيبين — فهرب منه إلى حسام الدين تمرتاش بماردين ، فأرسل الشهيد يطلبه فلم يسلمه إليه ، فنازل ماردين وحصرها ، فلما عجز حسام

---

(١) بالأصل : نقص .
(٢) هو حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق .
(٣) بالأصل : الا .
(٤) بالأصل : عليهم .
(٥) طشت دار : لفظ فارسى مركب من مقطعين ، الأول الطست (بالسين المهملة ، بفتح الطاء وإسكان السين المهملة فى اللغة العربية) وهو الذى يغسل فيه (والعامة أبدلوا السين المهملة بشين معجمة) ، والآخر « دار » ومعناه ممسك ، فيكون المعنى « ممسك الطست » . (القلقشندى ، ح/٥/ص/٤٦٩).
(٦) خشكنانكة : نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق. (ابن واصل ، ح/١/ص/١٠٢/حاشية/٣) .
(٧) الإضافة من « دى سلين » (ص/١٤٢)

الدين عن منعه سيره إلى دركاه السلطان مسعود ، فلما بلغ الشهيد الخبر أرسل الهدايا للسلطان والوزير فسلم إليه فسجنه وكان آخر العهد به .

ومن صائب رأيه وجيده(١) ما فعله من نقل طائفة من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارق إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التى للفرنج وجعله ملكا لهم ، فكانو يغادون الفرنج بالقتال(٢) ويراوحونهم ، وأخذوا كثيراً من السواد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم . ولم يزل جميع ما فتحوه فى أيديهم إلى نحو سنة ستمائة .

ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل ، وبعضها بسنجار ، وبعضها بحلب ، (٩٢ — ب) وقال : إن جرى على بعض هذه الجهات خرق ، أو حيل بينى وبينه ، أستعين(٣) على سد هذا الخرق بالمال الذى فى غيره .

ومن ذلك(٤) شجاعته وهيبته الهيوبة

واما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية [فيهما(٥)]،وبه كان يضرب المثل . أما قبل أن يملك فمشاهده معروفة مشهورة ، منها حملته على الفرنج بطبرية ووصوله إلى بابها ، وقد تقدم ذلك . ومنها أيضاً حملته على أصحاب قلعة عقر الحميدية وصعوده فى جبلها إلى سورها ، ومقامه هناك مشهور إلى الآن إلى أشباه كثيرة لهذا . وأما بعد أن ملك ، فمن عرف حاله وإحاطة الأعداء والمنازعين له ببلاده ، وصبره واستيلاءه(٦) مع هذا على بلادهم ، علم محله من الشجاعة والصبر والإقدام . والذى حكى لى والدى من ذلك ، قال : كان الشهيد — قدس الله روحه — قد أحدق الأعداء بولايته والمنازعون له ، فمنهم أمير المؤمنين (٩٣ — أ) المسترشد بالله ، قد كان الحال بينهما ظاهرا ، حتى أن المسترشد بالله سار إلى الموصل وحصرها . ومنهم السلطان مسعود فى أعمال الجبال وأذربيجان قد جاور أعمال الشهيد بتلك النواحى ، وهو أقوى الخلق ، وأكثرهم عساكر ، وأشدهم كراهة للشهيد . ثم إلى جانبه أعمال أرمينية — وهى لبيت سكمان(٧) — ولهم العساكر الكثيرة والبلاد الواسعة ، وهم أعداؤه ، وقد جاورهم فى حيزان(٨) ، والمعدن وغيرهما . ثم إلى جانب بيت سكمان ، ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وديار بكر ، وابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، وقد جاورا كثيراً من ولايته ، منها :

---

(١) بالأصل: ومن صائب الرآى الجيده (والتصحيح من ، الروضتين، ح/١/ص/٤٣) . (٢) بالأصل : للقتال.
(٣) بالأصل : أستمين به . (٤) بالأصل : ومن ذلك من شجاعته . (٥) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٤٤) . (٦) بالأصل : واستيلاء . (٧) هو سكمان القطبى صاحب خلاط ، وقد توفى سنة ٥٨١ هـ . وقد ظهر بيت سكمان — وهم أتابكة أرمينية — فى سنة ٤٩٣ ، على يد سكمان (أو سقمان) الأول ، وقضى عليهم الأيوبيون سنه ٦٠٤ (زامباور) . (٨) بالأصل : خيزان .

جزيرة ابن(١) عمر ونصيبين . ومع هذا فأخذ من بلادهما كثيرا ، ثم إلى جانبهما الفرنج من قريب ماردين إلى باب دمشق ، قد جاوروا بلاده من رأس عين ، وحران ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، وهم (٩٣ - ب) أشد ما كانوا قوة وأكثر جمعا . ومع هذا فهو يملك بلادهم ويهزمهم مرة بعد أخرى . ثم صاحب دمشق قد جاوره بها ، ومع هذا فهو يأخذ أيضاً من بلاده ، فكان لا يستقر بل يغزو كلا منهم فى عقر داره — ماعدا السلطان مسعود — فإنه كان لا يباشر قصده ، بل كان يضع أصحاب الأطراف على الخروج عليه ، فإذا فعلوا ، عاد السلطان [محتاجاً(٢)] إليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته ، فيصير كالحاكم على الجميع ، وكلهم يداريه ويخضع له ، ويطلب منه أن تستقر القواعد على يده . فانظر إلى هذه الشجاعة وهذا الرأى والتدبير . ولو لم يكن فى زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحصن لكفى به ، فإنه كان بعيد الصوت فى التركمان يجمع منهم كل من حمل السلاح . وكان أيضاً مع هذا شجاعا مقداما لا تضره الهزائم شيئاً ، بل يفارق المعركة مهزوماً ثم يعاود الحرب بعد أيام .

(٩٤ — أ) وأما الفرنج ، فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ، وملكوا بلادهم وأكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم والهيبة التى تحملهم على مفارقة بلادهم خوفاً منهم ، فلما ملك البلاد فعل بهم ماذكرنا بعضه ، ولو لم يكن له فيهم نكاية غير فتح الرها لكان عظيما . وحكى لى عنه ، أنه لما عزم على المسير إلى الرها حين فتحها ، أحضر طعاماً وقال لأصحابه(٣) : لا يتقدم إلى ، ولا يأكل معى إلا من يحمل غدا معى على الرها ، فلم يتقدم إليه غير رجلين ، أحدهما شاب حسن ، أول ما تكاملت لحيته ، فمنعه أصحابه ، فقال : أتركوه فإننى أتوسم فيه شجاعة ، فكان ذلك الشاب(٤) أول الناس مقدماً(٥) إلى سور الرها .

وأما صدقاته رضى الله عنه

فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميرى ظاهرة ، ويتصدق فى ما عداه من الأيام سراً مع من يثق إليه(٦) . حكى لى : أنه ركب يوماً فعثرت به دابته ، فكاد يسقط عنها فاستدعى أميرا كان (٩٤ — ب) معه اسمه بلبان ، فقال له كلاماً لم يفهمه بلبان ولم يتجاسر على أن يستفهم منه ، فعاد عنه إلى بيته فودع أهله عازماً على الهرب(٧) . فقالت له زوجته : ماذنبك ، وما الذى حملك على هذا الهرب . فذكر لها(٨) الحال . فقالت له : إن نصير الدين له بك عناية ، فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به ، فقال : أخاف أن يمنعنى عن الهرب وأهلك . فلم تزل زوجته

---

(١) بالأصل : بن . (٢) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٤٤) .
(٣) بالأصل : الاصحابه . (٤) بالأصل : الشباب . (٥) بالأصل : مقدمها .
(٦) اللفظ مكرر بالأصل . (٧) بالأصل : عازما على هذا الهرب (٨) بالأصل : له

تراجعه وتقوى عزمه على القول لنصير الدين فرجع إلى قولها ، وقصد نصير الدين وعرفه حاله ، فضحك وقال : خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهى التى أراد . فقال بليمان : الله الله فى دمى ونفسى . فقال : لابأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليه فحين رآه قال(١): أمعك شيء . قال نعم ، فأمره أن يتصدق به . فلما فرغ بليمان من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره وقال له : من أين علمت أنه أراد الصرة فقال له: إنه يتصدق هذا اليوم بمثل هذا القدر ، يرسل إلى يأخذه من الليل . (٩٥ — أ) وفى يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغنى أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض وأرسلك إلى ، فعلمت أنه ذكر الصدقة فأرسلتها معك إليه . فانظر إلى هذه السعادة حيث قدر الله تعالى له مثل هذا النائب فى شدة ذكائه وفطنته ، وإلى هذه الهيبة الشديدة التى منعت ذلك الأمير عن المراجعة ، وبها امتنع القوى عن الضعيف . وحكى لى والدى من شدة هيبته ماهو أشد من هذا ، قال والدى : خرج يوماً الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السر خلوة ، وملاح له نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية(٢) وقال له : أقعد ، فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحركوه فوجدوه ميتاً .

وأما قوة عزمه ، وقلة[٣] تلونه ، وعلو همته

قال لى والدى رحمه الله : كان الشهيد رضى الله عنه قليل التلون والتنقل(٤) ، بطيء الملل والتغير ، شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل ، إلا بذنب يوجب التغير ، والأمراء والمقدمون(٥) الذين كانوا معه أولا ، هم (٩٥ — ب) الذين بقوا أخيراً من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له . قال والدى : كنت أرى من جمال الدين محمد ابن على بن أبى منصور الوزير فى الأيام(٦) الشهيدية من الكفاية والنظر فى صغير الأمور وكبيرها ، والمحاققة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ ، وقد تمكن زين الدين على بن بكتكين(٧) فى الدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ، قال ، فقلت له يوماً : أين تلك الكفاية التى كنا نراها منك فى الأيام الشهيدية ، ما أرى منها الآن شيئاً . [فقال] لى : الآن ما عندى كفاية . فقلت : ماهذا العمل من ذلك بشيء . فقال : أنت صبى غر ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد فى كل زمان ، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان فى كل زمان وما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوى العزم

---

(١) بالأصل : فقال . (٢) الجاندارية : فئة من مماليك السلطان أو الأمير . واللفظ مركب من مقطعين فارسيين ، أحدهما : « جان » ومعناه ، سلاح . والآخر « دار » ومعناه « ممسك » ووظيفة جاندار السلطان « أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، ويدخل أمامهم إلى الديوان . (السلوك ، ح/١/ص/١٣٣/حاشية/١) .
(٣) بالأصل : وقاته . (٤) بالأصل: والتثقل. (٥) بالأصل : المقدمون . (والتصحيح من ، الروضتين ح/١/ص/٤٤) . (٦) بالأصل : أيام . (٧) بالأصل : بلبكين .

لا يتجاسر (٩٦ — أ) أحد على الإعتراض عليه ، ولا يتلون بأقوال أصحابه لحفظناه ، وكان ما أفعله كفاية . وأما الآن فلنا سلطان(١) غير متمكن وهو محكوم عليه ، فهذا الذى أفعله هو الكفاية .

قال : وكان له جماعة كثيرة خراسانية [فى] الركاب لهم الجامكيات الوافرة ، وكان فى الديوان [من] يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة . فى بعض السنين تأخرت جامكياتهم تأخرا يسيراً ، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم مجتمعين ، فعلم أنهم يشكون شيئاً ، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له . فقال لهم : أشكوتم إلى الديوان . قالوا : لا . قال : فهل ذكرتم حالكم لصلاح الدين أمير حاجب . قالوا: لا . قال : فلأى شيء أعطى الديوان مائة ألف دينار ، وأعطى الأمير حاجب أكثر من ذلك ، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها ، كنتم شكوتم حالكم إلى الديوان ، فإن أهملوا أمركم كنتم قلتم لصلاح الدين ، فإن أهمل أمركم كنتم شكوتم الجميع إلى حتى كنت أعاقبهم على إهمالكم ، (٩٦ — ب) وأما الآن فالذنب لكم . ثم أمر بتأديبهم وقطع جامكياتهم حتى شفع فيهم بعض الأمراء ، فعفا عنهم . ثم أحضر الديوان وصلاح الدين وقال لهم : إذا كنتم تهملون أمر جندى الذين تحت ركابى ومن هو ملازمى فى سفرى وإقامتى ، وبهم من الحاجة إلى النفقات فى أسفارهم ما تعلمونه ، فكيف يكون حال من بعد عنى ، وأنكر عليهم ، فخرجوا من عنده وفرقوا فى الأجناد من أموالهم حتى وصلت جامكياتهم ، فأخذوا عوض ما أخرجوه . فرحمه الله فلقد كان حسن السياسة والضبط للأمور ، فإنه بهذه الحالة الواحدة أصلح الجند لطاعة الديوان ، وأصلح الديوان للنظر فى مصالح الجند ، وعظم نفسه عن أن يخاطب فى هذا الأمر الحقير ، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره .

وكان(٢) ديوانه يقاس بدواوين السلاطين السلجقية لكثرة التجمل ونفاذ الأمر وعظم الحاشية والخرج . قال والدى : كان الإنسان إذا قدم عسكره لم(٣) يكن غريباً ، فإن كان جندياً إشتمل عليه الأجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم . وإن كان القادم صاحب ديوان ، قصد (٩٧ — أ) منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ، ونظرهم فى مصالحه ما يكون كأنه فى أهله . وإن كان عالماً ، فيقصد خيام القضاة بنى الشهرزورى وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود أهلا(٤). وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوى الهمم العلية ، والآراء الصائبة ، والأنفس الأبية(٥) ، ويوسع عليهم فى أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف .

---

(١) بالأصل : السلطان . (٢) بالأصل : كان . (٣) بالأصل : من . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٤٤) . (٤) فى الروضتين (حـ/١/ص/٤٥) : كأنه أهل .
(٥) بالأصل : الابنه .

وأما غـــيرته

فكان الشهيد رحمه الله تعالى شديد الغيرة على الحريم ، لاسيما نساء الأجناد ، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التى لا يغفرها ، وكان يقول : إن جندى لا يفارقونى فى أسفارى، وما يقيمون عند أهليهم،فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن . فمن شدة غيرته وتعظيمه لهذا الذنب، أنه كان قد أقام دزداراً بقلعة الجزيرة اسمه حسن ولقبه ثقة الدين ويعرف بالبربطى ، وكان من خواصه وأقرب الناس إليه ، وكان غير (٩٧ — ب) مرضى السيرة ، فبلغه عنه أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيسيانى أن يسير مجداً ويدخل الجزيرة بغتة ، فإذا دخلها أخذ البربطى وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحرم ثم يصلبه ، فسار صلاح الدين مجداً ، فلم يشعر البربطى إلا وقد وصل إلى البلد ، فخرج إلى لقائه ، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له : المولى أتابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلى قدرك ويرفع منزلتك ، ويسلم إليك قلعة حلب ، ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك(١)مثل نصير الدين [جقر] هاهنا ، فتجهز وتحدر مالك فى الماء إلى الموصل وتسير إلى خدمته ،ففرح ذلك المسكين ولم يترك له قليلا ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها(٢) إلى الموصل فى دجلة ، فحين فرغ من جميع ذلك ، أخذه صلاح الدين وأمضى فيه ما أمر به ، وأخذ جميع ما له لم يعدم منه الحبة الفرد ، فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شىء من أفعاله . فاعجب من (٩٨ — أ) حزم هذا السلطان واحتياطه حيث أرسل أكبر من فى دولته ، وأخفى أمره خوفاً من جهل ذلك الدزدار أن يحمله على العصيان ، أو على أمر يتعب فى تلافيه . ثم أنظر من صلاح الدين، كيف خدع ذلك المسكين بإكرامه ووعده بالأعمال السنية حتى أخرج ذخائره وأمواله ، ولم يبق منها شيئاً . ولو سلك غير هذا لعدم من ماله الكثير .

ذكر ملك سيف الدين غازى بن زنكى(٣)

وما فعله جمال الدين الوزير إلى أن ملك

لما قتل أتابك الشهيد رحمه الله ، هرب جمال الدين واختفى عند أمير يعرف بأميرك الجاندار خوفاً من صلاح الدين الياغيسيانى لعداوة كانت بينهما . وفى تلك الليلة ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود — وكان مع الشهيد — واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل جمال الدين إلى صلاح الدين يقول له : إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ، ونسلك طريقاً يبقى به الملك (٩٨ — ب) فى أولاد صاحبنا ، ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا ، فإن الملك قد طمع

(١) بالأصل : امثل . (٢) بالأصل : ليجذرها (والتصحيح من « الروضتين ، ح/١/ص/٤٤) .

(٣) بالأصل : ذكر ملك سيف الملك سيف الدين غازى ابن زنكى .

فى البلاد واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلاف هذا الأمر فى أوله، ونتداركه فى بدايته ليتسعن(١) الخرق ولا يمكن رقعه، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، فظهر(٢) حينئذ جمال الدين من الإختفاء، وركب إلى الملك وخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه صلاح الدين، وقالا له: إن أتابك كان نائباً عنك فى البلاد وباسمك كنا نطيعه، فقبل قولهما وظنه حقاً، وقربهما طمعا فى أن يكونا عونا له على تحصيل غرضه، وأرسلا إلى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازى — وهو ولد زنكى الأكبر — وإحضاره إلى الموصل، وكان بشهرزور — وهى إقطاعه من أبيه — . ففعل زين الدين ذلك. وكان نور الدين محمود ابن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها(٣). وقال (٩٩ — أ) جمال الدين للملك: إن من الرأى أن يسير صلاح الدين إلى مملوكك محمود بحلب يدبر أمره، فأمره بذلك. وكان هذا أمرا(٤) قد تقدر بين جمال الدين وصلاح الدين، وهو(٥) مسير صلاح الدين إلى الشام، وتقرير أمر نور الدين، وحفظ البلاد هناك لئلا يطمع الفرنج فى شىء منها. وكانت مدينة حماة إقطاع صلاح الدين، فرغب فى الشام لهذا السبب، ولأنه ظن أن أمر الملك يقوى ويملك البلاد ولا يبقى لأولاد الشهيد شىء شرقى الفرات. وكان أحب الأشياء إلى جمال الدين بعد صلاح الدين أيضاً، لأنه لم يأمن منه(٦). فلما أمر الملك بمسير صلاح الدين إلى الشام سار، وبقى جمال الدين وحده مع الملك، فأخذه وقصد الرقة، فحسن له جمال الدين الإشتغال بشرب الخمرة والخلوة بالنساء، وأرسل إليه عدة جوار كن للشهيد، وشيئاً من المال يهبه المغنيات، وهون عليه أمر ملك البلاد، وقوى طمعه فيها حتى ظن أنها فى يده (٩٩ — ب) فاشتغل الملك بذلك، وأراد أن يعطى الأمراء، فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم منك الإقطاع الجزيل والنعم الوافرة. وشرع جمال الدين بستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين ابن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكل من يحلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك فى الرقة عدة أيام، ثم سار به إلى ماكسين(٧)، فتركه بها عدة أيام أيضاً، وقد شغله جمال الدين بلذاته عن طلب الملك، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازى قد دخل الموصل فاستقر بها، فقوى حينئذ جنان جمال الدين [ووصل هو والملك إلى سنجار(٨)] وأرسل إلى دزدارها وقال

---

(١) بالأصل: لايتسعن.

(٢) بالأصل: فتظهر.

(٣) فى «الروضتين» (حـ/١/ص/٤٧): وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

(٤) بالأصل: أمر.

(٥) مكان اللفظ «وهو» بالأصل «وهيراه» وهو لفظ غامض لم نستطع بيانه لعدم وروده فى المراجع التى تحت أيدينا. ولعل اللفظ الذى أثبتناه يؤدى المعنى المقصود فى العبارة. (المحقق)

(٦) بالأصل: يأخذ منه، واللفظ هنا غامض المعنى وقد استبدلناه باللفظ «يأمن» لأنه أقرب إلى المعنى. (المحقق)

(٧) ماكسين: فى (ياقوت) بكسر القاف. بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة.

(٨) الإضافة من «الروضتين» (حـ/١/ص/٤٧).

له : لاتسلم البلد ولا تمكن أحداً(١) من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : أنا تبع الموصل ، فمتى دخلت الموصل سلمت إليك . ففعل الدزدار(٢) ، ذلك . فقال جمال الدين [للملك(٣)] : المصلحة إنا نسير إلى الموصل ، فإن مملوكك غازى إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة ، وحينئذ تقبض عليه وتتسلم(٤) البلاد ، فساروا عن سنجار ، وكثر(٥) رحيل(١٠٠ — أ) العسكر [إلى الموصل(٣)] هاربين من الملك فبقى فى قلة من العسكر ، فساروا(٦) إلى مدينة بلد(٧) ، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها ، سار جمال الدين إلى الموصل فدخلها ، وأرسل الأمير عزالدين أبا بكر الدبيسى فى عسكر إلى الملك ، وهو فى نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به . واستقر أمر سيف الدين ، وأقر زين الدين على ما كان عليه(٨) من ولاية الموصل ، وجعل جمال الدين وزيره . وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف ، وأقره على البلاد وأرسل له الخلع . وكان هذا سيف الدين قد لازم [خدمة(٣)] السلطان مسعود أيام [أبيه(٣)] سفراً وحضرا . وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه(٩) ، فلما خوطب فى اليمين وتقرير البلاد لم يتوقف ، فانظر إلى فعل جمال الدين وحسن عهده ، وكمال مروءته ، ورعايته لحقوق مخدومه وإحسانه ، وهذا المقام الذى ثبت فيه يعجز عنه عشرة ألف فارس ، فلقد قلل من قال : الناس ألف منهم (١٠٠ — ب) كواحد . وهو معذور فإنه لم ير مثل جمال الدين . ولما استقر سيف الدين فى الملك أطاعه جميع البلاد ، ما عدا ما كان بديار بكر : كالمعدن ، وحيزان وأسعرد وغير ذلك ، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها .

ذكر عصيان(١٠) أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانياً

لما قتل الشهيد كان جوسلين الفرنجى — الذى كان صاحب الرها فى ولايته غربى الفرات فى تل باشر وما جاورها ، فراسل أهل الرها — وكان عامتهم من الأرمن — وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك ، فسار فى عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجد فى قتالهم ، فبلغ الخبر إلى نور الدين — وهو حينئذ بحلب قد ملكها بعد قتل والده — فسار مجداً إليها فى العسكر الذى عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرهاء إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها (١٠١ — أ) وفى هذه الدفعة نهبت

---

(١) بالأصل : ولا يمكن أحد . (٢) بالأصل : دزدار . (٣) الإضافة من ، الروضتين (حـ١/ص / ٤٧) (٤) بالأصل : ويتسلم . (٥) بالأصل : وكثير . (٦) بالأصل : فسار .

(٧) بلد : فى (ياقوت) : وربما قيل لها « بلط » (بالطاء) وهى مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل ، بينهما سبعة فراسخ . وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً . واسمها بالفارسية : شهراباذ .

(٨) بالأصل : إليه . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٤٧) . (٩) بالأصل : وينبسطه .

(١٠) فى ، ابن القلانسى(ص/٢٨٨) ، أن عصيان الرها كان فى أيام من جمادى الأولى سنة ٥٤١ .

وخربت وخلت من أهلها ولم يبق منهم بها إلا القليل . وكان من بالقلعة قد أرسلوا إلى الموصل يعرفون سيف الدين الخبر ، فوصل القاصد إلى ولاية الموصل ، فلقى عز الدين أبا بكر الدبيسى وقد سار إلى الجزيرة ليتسلمها إقطاعاً ، فسلك طريق البقعاء(١) متصيداً ، فلقى القاصد فأخبره خبر الرها ، فترك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها ، وأرسل إلى سيف الدين قاصداً مستريحاً ينهى إليه الحال ، ويطلب منه المدد ، فجهزت العساكر من الموصل ، وجد عز الدين فى السير ، فوصلها وقد ملكها نور الدين واستقر فيها ، ونهبها وأجلى من كان بها من الفرنج ، وكان هذا فتحاً ثانياً . وبقيت الرها بيد نور الدين لم يعارضه فيها سيف الدين .

نادرة عجيبة

لما ملك نور الدين الرها ونهبها المسلمون ، أرسل من غنائمها إلى الأمراء وغيرهم ماجرت به العادة . وكان زين الدين على من جملة من أرسل إليه منها ، وفى جملة ما أرسل [إليه] عدة من الجوارى (١٠١ — ب) فحملن إلى داره ، ودخل لينظر إليهن ، وقال لمن عنده من أصحابه : مكانكم حتى أعود إليكم . فغاب عنهم قليلا ثم خرج ، وقد اغتسل ، وهو يضحك ، فلما قعد قال : قد جرى لى اليوم أعجوبة ، وهى أننا [لما(٢)] فتحنا الرها مع الشهيد رحمه الله [كان فى جملة ماغنمت جارية مالت نفسى إليها ، فعزمت على أن أبيت معها ، فسمعت منادى الشهيد وهو يأمر بإعادة السبى والغنائم(٢)] وكان مهيباً مخوفا ، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها ، فلما كان الآن ، أرسل إلى نور الدين سهمى من الغنيمة وفيه تلك الجارية ، فوطئتها خوفا من العود .

ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابنى(٣) زنكى

لما فرغ سيف الدين من إصلاح [أمر(٤)] السلطان وتحليفه وتقرير أمر البلاد ، عبر إلى الشام لينظر فى [تلك(٤)] النواحى ، ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب ، وقد تأخر من الحضور عند أخيه وخافه(٥) ، فلم يزل يراسله ويستميله ، وكلما طلب شيئا أجابه إليه

---

(١) لم يعرف بها ياقوت فى معجمه ، وإنما ذكر بقعاء الموصل ، وذلك عند تعريفه بديار ربيعة ، فقال : ان ديار ربيعة تقع بين الموصل ورأس عين نحو بقعاء الموصل ونصيبين ورأس عين ودنيسر والخابور جميعه .

(٢) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/٤٩) . (٣) بالأصل : ابن . (٤) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/٤٧) . (٥) لم يذكر ابن الأثير خبر الاجتماع بين الأخوين فى « الكامل » ، كذلك لم يذكر سبب الخلاف بينهما ، لا فى « الكامل » ولا فى « النص » ونستطيع نحن أن نرجع سبب الخلاف ، إلى أن نور الدين خرق التقاليد القبلية — والزنكيون من القبائل التركية — التى تنص على أن تكون زعامة البيت للارشد من أبنائه ، فنافس نور الدين أخاه الأكبر فى الملك ، فاستولى على حلب والرها ، الأمر الذى أزعج سيف الدين ، فأخذ يعمل على التوفيق بينه وبين أخيه كما هو واضح فى النص .

إستمالة لقلبه ، فاستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفى(١) ، ومع كل واحد منهما خمسمائة (١٠٢ — أ) فارس ، وسار سيف الدين من معسكره فى خمسة(٢) فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه ، فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا(٣) ، وقعد نور الدين وسيف الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : لم امتنعت من المجىء إلى ، كنت تخافنى على نفسك ، والله لم يخطر ببالى ماتكره ، فلمن أريد البلاد ومع من أعيش ، وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخى وأحب الناس إلى فاطمأن نور الدين وسكن روعه ، وعاد إلى حلب فتجهز ، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره(٤) عنده ، وقال له : لاغرض لى فى مقامك عندى ، وإنما غرضى أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه ، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا فيه . وعاد كل واحد منهما إلى بلده .

ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها وما فعله

سيف الدين حتى رحلوا عنها

(١٠٢ — ب) فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، خرج ملك الألمان(٥) من بلاد الفرنج فى جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الإفرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها(٦) ولا يشك ملك الألمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عدداً وأوسعهم بلادا ، وملكهم أكثرهم عددا وعددا ، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا ، والسيف أصدق أنباء من الكتب . فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بورى(٧) بن طغدكين ، وليس له من الأمر شىء(٨) وإنما كان الأمر إلى معين الدين [أنر] بن مملوك جده طغدكين ، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد وللعسكر . وكان عاقلا خيرا دينا حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلد ، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب

---

(١) فى ، مرآة الزمان (ح/٨/ص/١٩٢) ، أن سيف الدين لما راسل أخاه نور الدين للاجتماع به ، اعتذر نور الدين بالفرنج خوفاً على نفسه منه ، فحلف له سيف الدين ، واتفقا على أن يجتمعا بالجزيرة ، وتقابلا ليلا فى الخابور . (وهذا الاجتماع الليلى له معناه ، وذلك لكى لا تكون هناك فرصة لأن يقاتل أحدهما الآخر ، ولعل الذى اختار هذا الوقت هو نور الدين ، لأنه هو الذى يخاف من أخيه . (المحقق) (٢) بالأصل : خمس .

(٣) بالأصل : فعاد . (٤) بالأصل : ونزل بعسكره . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٤٨) .

(٥) هو كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا . وقد اشترك معه فى قيادة هذه الحملة — وهى الحملة الصليبية الثانية — لويس السابع ملك فرنسا . (ابن واصل ، ح/١/ص/١١٢/حاشية/٣) . (٦) بالأصل : ونازلها . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص/٥٣) . (٧) بالأصل : نورى . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٥٣) . (٨) بالأصل : شيئا .

منه ، وكان فيمن خرج معهم ، الفقيه (١٠٣ — أ) حجة الدين يوسف بن ذى ناس(١) الفندلاوى المغربى، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا، خرج راجلا فرآه معين الدين فقصده وسلم عليه ، وقال له : ياشيخ أنت معذور ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال . فقال: قد بعت واشترى، فلا نقيله ولا نستقيله يعنى قول الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم(٢)﴾ الآية. وتقدم وقاتل الإفرنج حتى قتل رضى الله عنه عند النيرب شهيدا . وقوى أمر الفرنج وتقدموا ، فنزلوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ، ويسأله القدوم عليه ، ويعلمه شدة الأمر الذى قد دفعوا إليه، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدا إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعى كل من يطيق حمل السلاح من بلادى، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابى وأصحابى وكانت الهزيمة (١٠٣ - ب) علينا ، لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا ، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم، فتسلم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك ، إن كانت النصرة لنا على الفرنج أنى لا آخذ دمشق ، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادى. فماطله(٣) معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج .

وأرسل سيف إلى الفرنج الغرباء يتهددهم ، ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وأرسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم : قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه، وحينئذ لا تطمعون فى السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مذمومين ، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق(٤) لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم (١٠٤ — أ) لا تقدرون على منعه عن البيت المقدس ، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق ، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن [دمشق(٥)] وسار عنها . ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين ، وبقى حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود ابن زنكى رحمه الله تعالى . ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق، قال : حكى [لى](٦) بعض الأئمة العلماء ، إنه رأى الفندلاوى فى المنام ، فقال له أين أنت . قال : فى جنات عدن على سرر متقابلين .

---

(١) فى الكامل (ح/٩/ص/٢٠) : ابن ذى باس . وفى النجوم الزاهرة (ح/٥/ص/٢٨٢) : ابن درناس . وفى شذرات الذهب (ح/٤/ص/١٣٦) : ابن دوباس الفندلاوى . وترجمته فى الشذرات (نفس الجزء والصفحة) .

(٢) سورة التوبة : ١١١ .

(٣) بالأصل : فما طلمه . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٥٣) .

(٤) بالأصل : بدمشق .

(٥) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٥٣) .

(٦) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٢١) .

ذكر فتح نور الدين حصن العزيمة[1]

لما رحل الفرنج عن دمشق ، سار معين الدين أنر إلى بعلبك ، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين، فسأله أن يحضر عنده فيجتمع به ، فسار إليه واجتمعا (١٠٤ — ب) فوصل إليهما حينئذ كتاب القمص صاحب طرابلس ، يشير عليهما بقصد حصن العزيمة[2] وأخذه ممن فيه من الفرنج .وكان سبب ذلك ، أن ولد الفنش[3] صاحب طليطلة[4]، خرج مع ملك الألمان إلى الشام وتغلب على العزيمة وأخذه من القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا . وجدّ هذا الذى ملك العزيمة ، هو الذى غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس [الغرب][5] فلما استولى هذا على العزيمة ، كاتب القمص نور الدين و معين الدين فى قصده، فسارا إليه مجدين فصبحاها، وكتبا إلى سيف الدين [وهو بحمص[6]] يستنجدانه ويطلبان المدد ، فأمدهما بعسكر جرار ، وجعل مقدمه عز الدين أبا بكر الدبيسى ، فحصروا الحصن وبه ابن الفنش ، فامتنع به وحماه ، فزحف[7] المسلمون إليه ، وتقدم النقابون الذين مع نور الدين فنقبوا السور ، فلما رأوا الفرنج ذلك ، أذعنوا واستسلموا، وألقوا ما بأيديهم فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل من فيه من رجل وصبى وإمرأة ، وفيهم ابن الفنش[8] ، وأخربوا الحصن (١٠٥ — أ) وعادوا إلى سيف الدين .

ذكر ملك سيف الدين قلعة داراء

قد ذكرنا أن أتابك الشهيد رضى الله عنه ملك دارا[9] وبقيت بيده إلى أن قتل . فلما قتل أخذها حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين[10] . فلما كان فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار سيف الدين إليها وحصرها ، وقاتل من بها وضيق عليهم فملك الحصن[11] ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها .

---

(١) بالأصل : عريمة . (والتصحيح من « الكامل، ﺣ/٩/ص/١١) . (٢) بالأصل : العميمه .

(٣) بالأصل . الفنش. (والتصحيح من« الكامل ، ﺣ/٩/ص/٢١) . والفنش هو النطق العربى لاسم الفونسو الأسبانى.

(٤) بالأصل : صاحب جزيرة صقلية . (والتصحيح من « الكامل ، ﺣ/٩/ص/٢١) . وما فى الكامل أصح ، لأن إفرنج الأندلس استولوا على طيطلة سنة ٤٧٨ . (الكامل ، ﺣ/٨/ص/١٣٨) (٥) الإضافة هنا للتمييز بينها وبين طرابلس الشام المذكورة قبلها . (٦) الإضافة من « الكامل (ﺣ/٩/ص/٢١) .

(٧) بالأصل : فرجف . (٨) فى ابن القلانسى (ص/٣٠١) أن نور الدين أخذ معه ابن الفنش وأمه ومن أسرهم إلى حلب . (٩) دارا : فى (ياقوت) : داراء ، وتقع بين نصيبين وماردين فى لحف جبل . (١٠) بعد مقتل عماد الدين ، طمع الفرنج والأراتقة وصاحب دمشق بأملاكه ، فأخذوا يستردون ما استولى عليه من بلادهم . وقد حاول الفرنج استرداد الرها ، ولكنهم فشلوا كما مر بنا . واسترد حسام الدين تمرتاش ، دارا وغيرها ، واسترد صاحب دمشق بعلبك ، ولم يذكر ابن الأثير خبر بعلبك هنا ، وإنما ذكره فى « الكامل » (ﺣ/٩/ص/١٦ ، سنة ٥٤١) . (١١) فى « الكامل (ﺣ/٩/ص/١٨) أن سيف الدين استردها فى سنة ٥٤٢ .

ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء

ثم إن سيف الدين سار إلى ماردين وحصرها(١) ، عازما على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده الشهيد رضى الله عنه ، فأقام عليها يحاصرها ، وتفرق العسكر فى بلدها ينهبون ويخربون ، فلما نظر حسام الدين صاحبها(٢) إلى ما يفعل العسكر فى بلاده ، قال : كنا نشكوا من أتابك الشهيد وأين أيامه ، فلقد كانت أعيادا ، قد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ، ولا أخذوا كفا (١٠٥ — ب) من التبن بغير ثمنه .

رب يوم بكيت منه(٣) فلما   صرت فى غيره بكيت عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد ، وزوجه ابنته الخاتون ، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل ، وجهزت خاتون وسيرت إليه ، فوصلت إلى الموصل وهو مريض قد أشرف على الموت ، فتوفى ولم يدخل بها . فلما توفى تزوجها أخوه الملك قطب الدين مودود ، فكان أولاده الملوك منها .

ذكر غزو الفرنج ببصرى(٤) وما جرى لهم فيها

فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ؛ سار نور الدين محمود ابن الشهيد رضى الله عنهما(٥) إلى بصرى (٦) ، وقد اجتمع بها الفرنج فى قضهم وقضيضهم(٧) ، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام(٨) . فلما سمع نور الدين خبرهم سار نحوهم ، فالتقوا هنالك واقتتلوا أشد قتال ، ثم أنزل

---

(١) فى ، الكامل (ج/٩/ص/١٨) أن سيف الدين سار إلى ماردين فى سنة ٥٤٢ ، بعد استيلائه على دارا .

(٢) بالأصل : صاحبهما.   (٣) بالأصل : فيه . (والتصحيح من ، الروضتين ، ج/١/ص/٦٥) .

(٤) بالأصل : بيغرى . (والتصحيح من ، الروضتين ، ج/١/ص/٥٥) . وأبو شامة يصرح بأنه ينقل الخبر من «الأتابكة» . ونلاحظ أن ابن الأثير ، ذكر فى ، الكامل ، (ج/٩/ص/٢٢) أن نور الدين انتصر بيغرى أيضاً . وهذا خطأ من ابن الأثير ، لأن نور الدين انهزم من الفرنج فى معركة يغرى ، وقد حدثت سنة ٥٤٣ ، كما فى ابن القلانسى (ص/٣٠٢) . وينقل أبو شامة عن ابن أبى طى ، تقاعس أسد الدين شيركوه فيها عن القتال رغم هزيمة المسلمين . يقول أبو شامة : « وذكر ابن أبى طى أن أسد الدين ، لما كان فى نفسه على نور الدين ، من تقديم ابن الداية عليه ، لم ينصح يومئذ — وهى وقعة يغرا — (هكذا ، بالألف) . ومر به نور الدين ، فقال له : ما هذا الوقوف والغفلة فى هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا . فقال : يا خوند ، إيش ننفع نحن ، إنما ينفع مجد الدين أبو بكر ، فهو صاحب الأمر ، فاستدرك نور الدين ذلك ، وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك ... » . ويورد أبو شامة أيضاً ، أبياتا من قصيدة لابن منير الشاعر « تقدمت إعتذارا عما جرى فى هذه الغزاة » أول بيت منها :

لم يشنه من ماء يغراء أن فر (م)   الأتابات ذاد عنها انزلاقه

ويورد أيضاً (ص/٥٨) بعض أبيات من قصيدة لبعض الحلبيين يمدح بها نور الدين لانتصاره على الفرنج بأنطاكية ، سنة ٥٤٤ ، أى بعد هزيمة يغرى ، أول بيت منها :

إن كان آل فرنج أدركوا فلجا   فى يوم يغرا ونالوا منية الظفر

(٥) بالأصل : عنه هما .   (٦) بالأصل : يغرى .   (٧) بالأصل : وقضيظهم .   (٨) فى ، الكامل (ج/٩/ص/٢٢) ، أن الفرنج تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها .

الله تعالى نصره على المسلمين ، وانهزم الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين ، فكانوا بين قتيل وأسير (١٠٦ — أ) وأما السالم منهم من المعركة فقليل ، ولهذا يقول القيسرانى(١) فى هذه الوقعة من قصيدة [يقول] فى أولها(٢) :

ياليت إن الصد مصدود	أولا فليت اليوم مردود
إلى متى يعرض عن مغرم	فى خده للدمع أخدود

ومنها(٣)

وكيف لاننثى(٤) على عيشنا الـ	محمود والسلطان محمود
وصارم الإسلام لا ينثنى	إلا وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تلك موجودة	إلا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها	عند ملوك الشرك مشهود
والقوم إما مرهق صرعة	أو موثق بالقيد(٥) مشدود

ذكر وفاة سيف الدين غازى بن أتابك عماد الدين زنكى

فى أواخر جمادى الآخرة(٦) من سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، توفى سيف الدين غازى بن أتابك عماد الدين زنكى بن آقسنقر . وكان مرضه حمى حادة ، فأرسل إلى بغداد وأحضر أوحد الزمان الطبيب ، ولم يكن فى زمانه(٧) أعرف منه بالطب(٨) ، (١٠٦ — ب) فلما رأى شدة مرضه علم أن الأغلب عليه العطب ، فأعلم جمال الدين وزين الدين حاله ، وقال لهما : ليس له علاج غير شىء واحد ، وهو خطر فعالجه ، فتوفى . وكان عمره نحو أربعين سنة . وكان من أحسن الناس صورة . ودفن بالمدرسة التى أنشأها بالموصل . وخلف ولدا ذكرا أخذه عمه نور الدين محمود ورباه وأحسن تربيته ، وزوجه بابنة عمه قطب الدين مودود ، فلم تطل أيامه وأدركه أجله فى عنفوان شبابه فتوفى . وانقرض عقب سيف الدين رحمه الله تعالى .

فى ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه [الله]

كان رحمه الله تعالى كريماً ، شجاعاً ، عاقلا ، ذا حزم وعزم ، ولما(٩) توفى والده الشهيد ، إستوزر جمال الدين أبا جعفر المقدم ذكره ، وحكمه وأعطاه عشر دخل بلاده ، وأقر زين الدين

---

(١) هو أبوعبد الله محمد بن نصر بن صغير بن خالد بن القيسرانى ، توفى سنة ٤٤٨ . وترجمته فى ، شذرات الذهب (ﺣ/٤/ص/١٥٠) . (٢) بالأصل : أولها يقول . (٣) بالأصل : ومنها فى ذكره . (وقد حذف المحقق اللفظين: فى ذكره ، لأنهما لا يدلان على شىء) . (٤) بالأصل : لانثى .
(٥) بالأصل : بالقد . (٦) بالأصل : جمدى الآخر . (٧) بالأصل: يزمانه.
(٨) بالأصل : بالطلب . (٨) بالأصل : لما .

على ولاية قلعة الموصل ، وكان له إربل ، فزاد إقطاعه وأعلى محله . وأقطع عز الدين أبا بكر الدبيسى جزيرة ابن عمر وجميع قلاع الزوزان وغيرها ، وقرر أمر المملكة فلم يتغير شىء بقتل والده .

(١٠٧ — أ) حكى لى والدى : إنه كان راتبه كل يوم لسماطه مائة شاة بكرة ، ينزل الجند فى خدمته كل يوم ويأكلون الطعام ، وكان له سماط آخر النهار ، يذبح له كل يوم ثلاثون رأسا من الغنم الجيد ، سوى الخيل والبقر .

وهو أول من حمل(١) على رأسه سنجق(٢) من أصحاب الأطراف ، فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية .

وهو أول من أمر عسكره أن لا يركب أحدهم إلا والسيف فى وسطه والدبوس تحت ركابه سفرا وحضرا ، ولم يكن يفعل قبل ذلك فى سائر البلاد إلا فى السفر ، فلما أمر هو عسكره ، إقتدى به غيره من أصحاب الأطراف .

وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة ، وهى من أحسن المدارس وأوسعها ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين .

وبنى أيضاً رباطاً للصوفية بالموصل(٣) وهو الرباط المجاور لباب المشرعة ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة .

(١٠٧ — ب) قال : وكان جمال الدين ، وزين الدين ، وعز الدين الدبيسى ، قد اتفقت كلمتهم فى أيامه ، واضطر إلى مداراتهم ، لأنهم كانوا يخوفونه السلطان ، فلما طال ذلك عليه ، عزم على المسير إلى السلطان مسعود وقال لهم : أنا كنت من أقرب الناس إلى السلطان ، ومنزلتى عنده مشهورة ، ولا بد لى من المسير إليه ، فخافوه إن هو سار إليه ، أن يعود وقد أمن جانبه فلا يبقى عليهم ، فكانوا لا يزالوا يمنعونه عما يريده من ذلك إلى أن أدركه أجله .

وكان كريما ، قصده شهاب الدين الحيص بيص(٤) وامتدحه بقصيدته المشهورة التى [يقول فى(٥)] أولها : شعر .

إلام يراك المجد فى زى شاعر — وقد نحلت شوقا فروع المنابر

---

(١) بالأصل : احمل (٢) السنجق : لفظ تركى ، معناه : الرمح . والمراد هنا العلم الذى هو الراية ، إلا أنه لما كانت الراية إنما تجعل فى أعلى الرمح ، عبر بالرمح نفسه عنها . والسنجقدار ، هو حامل السنجق . (صبح الأعشى ، حـ/٥/ص/٤٥٨) . (٣) بالأصل : بالموصل أيضاً . (وقد أسقط المحقق اللفظ : أيضاً لتكراره فى الجملة) .

(٤) هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صيفى التميمى الشاعر المشهور توفى سنة ٥٧٤ ، وترجمته فى شذرات الذهب (حـ/٤/ص/٢٤٧) . (٥) بالأصل : التى أولها يقول شعر . (٦) بالأصل : الاكم (والتصحيح من الروضتين ، حـ/١/ص/٦٥) .

وهي من جيد شعره ، فأعطاه جائزته ألف دينار أميرى ، سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه ، وسوى الخلع والثياب من سائر الأنواع .

فى ذكر ملك أخيه قطب الدين (١٠٨ — أ)

لما توفى سيف الدين غازى ، كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل ، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين(١) على تمليكه طلباً للسلامة منه ، فإنه كان لين الجانب ، حسن الأخلاق ، كثير الحلم ، كريم الطباع ، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ، ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد ، واستقر فى الملك ، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين ، لأن المرجع كان فى جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين . ولما ملك واستقر فى الملك ، تزوج الخاتون إبنة حسام الدين تمرتاش التى(٢) كان سيف الدين تزوجها ولم يدخل بها ، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ما نذكره . ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد من غير أولادها .

فى ذكر فاطمة ابنة عبد الملك (معرفة حسنة تذكر)

قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف ، أن فاطمة(٣) بنت عبد الملك بن مروان(٤) بن الحكم ، وأمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية(٥) بن أبي سفيان(٦) — جد أمها لأبيها — ، وابنه يزيد — وهو (١٠٨ — ب) جدها لأمها — ، ومعاوية بن يزيد — وهو خالها — ، ومروان بن الحكم — وهو جدها لأبيها — ، وعبد الملك بن مروان(٧) — وهو أبوها — ، والوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك — وهم إخوتها — ، وعمر بن عبد العزيز — وهو زوجها — والوليد(٨) بن يزيد بن عبد الملك — وهو ابن أخيها — ، ويزيد وإبراهيم إبنا الوليد بن عبد الملك — وهما إبنا أخيها — أيضاً . ولم يبق من بنى أمية الذين ولوا الأمر ، من كان يحرم عليها أن تضع خمارها عنده ، إلا مروان بن محمد ، المعروف بالحمار لاغير . وهذه الخاتون(٩) كان يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا ، وهم : نجم الدين إيلغازى بن أرتق — وهو جدها لأبيها — ، وسقمان بن أرتق — وهو عم(١٠) أبيها — ؛ وحسام الدين تمرتاش — وهو أبوها — ، ونجم الدين ألبى — وهو أخوها — ، وقطب الدين إيلغازى بن ألبى — وهو ابن

---

(١) فى الكامل ، (ح/٩/ص/٢٤) : جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش . (٢) بالأصل : الذى .

(٣) بالأصل : فطمه . (٤) بالأصل : مرون . (٥) بالأصل : معويه . (٦) بالأصل : سفين .

(٧) بالأصل : مرون . (٨) بالأصل : واليد . (٩) المقصود بها زوجة قطب الدين مودود ؛ ابنة حسام الدين تمرتاش . (١٠) بالأصل : وهواعم .

أخيها — ، وحسام الدين ، وناصر الدين — وهما أولاد قطب الدين — ، وسيف الدين غازى، الوقطب الدين مودود (١٠٩ — أ) إبنا الشهيد زنكى — وهما زوجاها — ، وعماد الدين شهيد — وهو حموها — وولداها سيف الدين غازى(١) ، وعز الدين مسعود(٢) — إبنا قطب الدين مودود — ، ونور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود(٣) — وهو ابن ابنها — ، وإبنه الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين(٤) [أرسلان شاه] ، ومعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى (٥) — وهو ابن إبنها — ، وإبنه معز الدين محمود(٦) ، وعماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود(٧) — وهو ابن زوجها — ، وولده قطب الدين محمد(٨) .

ذكر ملك نور الدين محمود ابن الشهيد مدينة سنجار

وما كان بينه وبين [أخيه قطب الدين]

لما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية بعد وفاة أخيه سيف الدين غازى ، كان نور الدين محمود بحلب — وهو أكبر من قطب الدين — فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم ، وكأنهم حسدوا زين الدين وجمال الدين ، وأرادوا أن يحكم عليهم ابن صاحبهم . وكان فيمن كاتبه ، المقدم(٩) والدشمس الدين ابن المقدم — وهو حينئذ دزدار سنجار — (١٠٩ — ب) واستدعاه ليسلم إليه سنجار ، فسار نور الدين جريدة فى سبعين فارساً فى أكابر دولته ، منهم أسد الدين شيركوه ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما ، فوصل إلى ماكسين فى ستة أنفس فى يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد ، فلم يعرفهم(١٠) الذين بالباب ، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد وكأنهم تركمان ، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه ، وسار مجدا إلى سنجار ، فوصلها وليس معه غير نفر يسير ، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفور صغير(١١) من شدة تعبه ، وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصوله . وكان المقدم قد استدعى إلى الموصل ، لأن خبره

---

(١) هو سيف الدين غازى (الثانى) . وقد ملك الموصل بعد أبيه ، من سنة ٥٦٥ حتى سنة ٥٧٦ .

(٢) ملك عز الدين مسعود الموصل ، من سنة ٥٧٦ حتى سنة ٥٨٩ .

(٣) ملك نور الدين أرسلان شاه الموصل ، من سنة ٥٨٩ حتى سنة ٦٠٧ .

(٤) ملك الملك القاهر الموصل ، من سنة ٦٠٧ حتى سنة ٦١٥ ، والذى ينتهى « تاريخ دولة الأتابكة » بخبر ملكه لها .

(٥) صاحب جزيرة ابن عمر ، ٥٧٦ — ٦٠٥ .

(٦) صاحب جزيرة ابن عمر ، ٦٠٥ — ٦٣٩ .

(٧) صاحب سنجار ، ٥٦٦ — ٥٩٤ .

(٨) صاحب سنجار ، ٥٩٤ — ٦١٦ .

(٩) فى الكامل (ح/٩/ص/٢٤) : « وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والدشمس الدين محمد » .

(١٠) بالأصل : تعرفه . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٦٨) .

(١١) فى الروضتين : (ح/١/ص/٦٨) محفورة صغيرة . والأصوب أن يقال : حفر صغير . ففى (لسان العرب) ، مادة : حفر : الحفر ، بالتحريك ، هو التراب المخرج من الشىء المحفور .

مع نور الدين بلغ من بها ، فأرسلوا إليه وأحضروه(١) ، فتوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين ، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار ، وقال له(١١٠ — أ) : أنا أتأخر(٢) فى الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمنى . فلما فارق سنجار وصل نور الدين . فلما علم شمس الدين بوصوله ، أرسل قاصداً مجداً إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين فسقط فى يده وخاف فوات الأمر . ووصل القاصد الذى سيره ابن المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتليعفر(٣) ، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين ، فكاتب [نور الدين] فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده ، وبذل له قلعة الهيثم ، فسار إليه بجنده . ولما سمع أتابك قطب الدين الخبر ، جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجار ومعه جمال الدين وزين الدين ، ونزلوا بتل يعفر ، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له ، ويهددوه بقصده وإخراجه عن البلاد قهرا إن لم يرجع اختياراً(٤) ، فأعاد الجواب : إننى أنا الأكبر ، وإنى أحق أن أدبر أمر أخى منكم ، وما جئت إلا لما تتابعت إلى كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولا يتكما عليهم (١١٠ — ب) — يعنى زين الدين وجمال الدين — فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر عن أيدينا . وأما تهديدكم إياى بالحرب والقتال ، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم — وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم — فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقى العسكر ، ودخل الأمراء فى الصلح وأشار به جمال الدين ، وقال : نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين ، ونور الدين يظهر للفرنج أنه بحكمنا ويتهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه ، فإن ظفر بنا(٥) طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به(٦) طمع فيه الفرنج . ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك أنفع له من هذه ، والرأى أن نسلم(٧) [إليه(٨)] حمص ونأخذ سنجار ، وهو فى ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته ، فاتفق الجماعة على هذا الرأى . وسار إليه جمال الدين فأكرمه نور الدين وبالغ فى تعظيمه(٩) وإكرامه ، وعاتبه جمال الدين وقال : كنت أرسلت إلى فى شىء تريده من البلاد حتى كنت أفعل ما تريد (١١١ — أ) ولا تطمع فيك الأعداء وفينا ، وطال الحديث بينهما . وأجاب نور الدين إلى ما طلب منه ، واستقر الصلح على ذلك ، وتسلم نور الدين

---

(١) هكذا بالأصل. (٢) بالأصل : اذا تاخره . (والتصحيح من الروضتين ، حـ/١/ص/٦٧) .

(٣) وترسم أيضاً : تل يعفر ، وهو الأكثر استعمالا . وفى (ياقوت) : تل أعفر ، هكذا تقول عامة الناس . وأما خواصهم فيقولون : تل يعفر . وقيل إن أصله : التل الأعفر ، للونه ، فغير بكثرة الاستعمال وطلب الخفة . وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل فى وسط واد فيه نهر جار . وهى على جبل منفرد حصينة محكمة ، وفيها نخيل يجلب رطبه إلى الموصل.

(٤) بالأصل : باختيارا . (والتصحيح من الروضتين ، حـ/١/ص/٦٧) .

(٥) بالأصل : ظفرنا به . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٦٧) .

(٦) بالأصل : ظفربنا . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٦٧) .

(٧) بالأصل : يسلم .

(٨) الإضافة من الروضتين (حـ/١/ص/٦٧) .

(٩) بالأصل : تعظيسه .

حمص(١) ، وسلم سنجار إلى أخيه . وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ما كان بسنجار من المال ، ولما أراد العود ، قال لجمال الدين : لا بد من أن تكون عندى ، فلى من الحق مثل ما لأخى ، وأنا أحوج إليك منه . فقال له جمال الدين : أنت فيك من الكفاية ما يستغنى [به(٢)] عن وزير ومشير(٣) ، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، وإذا كنت عند أخيك فالنفع عائد إليك ، وأريد من بلادك مثل مالى من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجى ، فأجابه إلى ذلك . فقال له جمال الدين : أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار ويجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة ، فأمر له بها . فكان نائب جمال الدين يقبضها(٤) كل سنة ويشترى بها أسرى(٥) (١١١ — ب) من الفرنج ويطلقهم .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها زين الدين ، لأن حمص كانت لأخيه وهو مقيم بها . واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم ، فكان كل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه .

ذكر قضية قلعة سنجار

قال . فلما مات سيف الدين وتولى أخوه(٦) قطب الدين ، أحضر شمس الدين محمد بن المقدم عبد الملك من سنجار — وكان هذا شمس الدين خصيصاً بسيف الدين — . وسبب وصلته به أنه لما قصد [سيف الدين] خدمة السلطان مسعود السلجوقى ، رتب فى خدمته عشرة من الجندارية ، وكان عبد الملك واحداً(٧) منهم ، ومعه ولد له مليح الصورة ، فكلف به وأحبه(٨) واستصحبه معه إلى الموصل . ولما انفرق عبد الملك من الجندارية وتبع سيف الدين إلى الموصل ، استخلف سيف الدين ، عبد الملك فى سنجار .

فلما توفى سيف الدين وتملك قطب الدين ، أرسل إلى سنجار واستطلب إليه شمس الدين ابن عبدالملك فاستحضره(٩) ، وحلفه على أنه لا يمكن والده من تسليم(١٠) سنجار إلى غيره ، فحلف له (١١٢ — أ) . ثم هرب من عند قطب الدين إلى(١١) سنجار . فعندما استوثق أمر قطب الدين بالموصل واستقرت(١٢) له المملكة ، كتب(١٣) [عبدالملك] لنور الدين أن يسلمها إليه ، ويعلمه أن

---

(١) فى الكامل ، (ح/٩/ص/٢٤) أن نور الدين تسلم حمص والرحبة . (٢) الإضافة من ، الروضتين ، (ح/١/ص/٦٧) . (٣) بالأصل : وشير . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٧) .
(٤) بالأصل : بقضها . (٥) بالأصل : ويشترى به ما اشترى . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٨) .
(٦) بالأصل : أخاه . (٧) بالأصل : واحد . (٨) بالأصل : وحبه .
(٩) بالأصل : فاستخطره . (١٠) بالأصل : تسلم . (١١) بالأصل : الا . (١٢) بالأصل : واستمرت . (١٣) بالأصل : كاتب .

خزائن بيت أتابك جميعها فى سنجار . فلما بلغ قطب الدين(١) ذلك ، سير إليهما ولاطفهما ودخل لهما فى كل ما اقترحا عليه ، وحلفا له بمحضر من قاضيها(٢) وأعيان شهودها . واقترح الرسول أن يستصحب معه شمس الدين إلى الموصل فأبى عليه ، وادعى الحياء من قطب الدين لكونه خرج هارباً منه ، فاتفق عند(٣) خروج والده عن سنجار مرحلة ، قدمها نور الدين من حلب فى مائتى فارس(٤) ، فنفذ شمس الدين إلى والده المقدم(٥) عبد الملك [من] يعرفه بوصوله ، فخرج ولم يقدر الرسول على منعه(٦) .

وكان شمس الدين عند قدوم نور الدين قد فتح الخزائن ، واختار منها من نفائس الجواهر وأخاير(٧) الذخائر ما يعز وجوده ، وكتب إلى نور الدين فى تسليم البلد إليه ، على أن لا يطالبه بشىء مما أخذه ، فأجابه إلى ذلك ، وتسلم البلد يوم الإثنين (١١٢ — ب) عاشر رجب ، وحصل ابن المقدم على ما فى يده من الذخائر .

ولما بلغ قطب الدين ما اتفق ، بعث وزيره جمال الدين الأصفهانى ليفرغ(٨) ما كان فى الخزائن من الأموال والأقمشة والجواهر ، ومعه جريدة تتضمن(٩) ذلك المال [وعند لقائه بنور الدين(١٠)] قال له : هذا مال المسلمين ولا يحل لك إطلاق شىء منه . فقال نور الدين : إن كان أخذ شيئاً من مال المسلمين بالغدر ، فى عنقه .

ثم إن جمال الدين قرر الصلح بين نور الدين وبين أخيه قطب الدين ، على أن يأخذ نور الدين الخزائن التى فى سنجار ، ويأخذ الرقة والرحبة وحمص ، ويعطيه سنجار ، وتبقى الرها فى يد نور الدين على ما كانت أولا .

ثم رحل نور الدين وترك نائبه فيها حتى يتسلم البلاد ، وعاد إلى حلب(١١) ، ومعه خزائن سنجار على ستمائة جمل — ما خلا البغال وما فرقه على أولاد الملوك والأمراء — وستة وتسعين(١٢) بغلا محملة ذهباً(١٣).

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية

فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار نور الدين إلى حصن حارم وهو للفرنج ، فحصره وخرب (١١٣ — أ) ربضه ونهب سواده .

---

(١) بالأصل : لقطب الدين . (٢) بالأصل : قاضها . (٣) بالأصل : على .
(٤) فى ص/٩٥ ، أنه خرج فى سبعين فارساً من أكابر دولته . (٥) بالأصل : مقدم .
(٦) العبارة « فخرج ولم يقدر الرسول على منعه » إذا كان المقصود منها ، أن الرسول لم يستطع إعادة والد شمس الدين إلى سنجار ، فإنه ينقضها ما سبق (ص/٩٦) . (٧) بالأصل : وخاير . (٨) بالأصل : ليفرغه .
(٩) بالأصل : جريدة ما يتضمن . (١٠) الإضافة من « دى سلين » (ص/١٧٦) .
(١١) بالأصل : أحلب . (١٢) بالأصل : وتسعون . (١٣) بالأصل : ذهب .

ثم رحل عنه إلى حصن إنب(١) لحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم ، وتصاف الفريقان(٢) واقتتلوا وصبروا ، وظهر(٣) من نورالدين من الشجاعة والصبر فى الحرب على حداثة سنه(٤) ما تعجب الناس منه . فانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً . وفيمن قتل، البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج وذوى التقدم فيهم والملك(٥) .

ولما قتل البرنس خلف إبنا صغيرا وهو بيمند ، فبقى مع أمه بأنطاكية ، فتزوجت أمه(٦) بإبرنس آخر ، وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند ابن البرنس المقتول .

ثم إن نورالدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى(٧) ، فلقيه فرسان الفرنج وقاتلوه ، فهزمهم وقتل منهم وأسر، فكان فى الأسرى البرنس الثانى زوج أم بيمند ، فلما أسره تملك بيمند أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه ، وبقى بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١١٣ — ب) على ما نذكره إن شاء الله تعالى . فأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس؛ فمن قال فيه : القيسرانى الشاعر ، [فى] قصيدته المشهورة التى أولها هذه الأبيات(٨) :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب	وذى المكارم لاما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت(٩)	تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها	براحة المساعى دونها تعب
مازال جدك يبنى كل شاهقة	حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة	فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة	أودى بها الصلب وانحطت لها(١٠) الصلب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم	طهارة(١١) كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحة	فالحرب تضرم والآجال تختطب
والخيل من تحت قتلاها تقر لها(١٢)	قوائم خانهن الركض والخبب

---

(١) حصن إنب : فى (ياقوت) : بكسرتين وتشديد النون والباء الموحدة . حصن من أعمال عزاز من نواحى حلب .
(٢) بالأصل : الفريقين . (٣) بالأصل : وظهره . (٤) كان نور الدين فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره فقد كان مولده سنة ٥١١ . (٥) فى ابن القلانسى ، (ص/٣٠٥) أن الموقعة كانت فى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من صفر من السنة . (٦) هى كونستانس ، وقد تزوجت فتى مغامراً إسمه «رينودى شاتيون» (حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص/٨٤) . (٧) لم يحدد ابن الأثير هنا ، ولا فى « الكامل » مكان هذه الغزوة . غير أن ابن القلانسى (ص/٣٠٥) ، يذكر أن نور الدين نزل بعد وقعة « إنب » على أنطاكية ، فتم الصلح بينه وبين صاحبها . (٨) بعد هذا اللفظ ، بالأصل ، لفظ : « يقولها » . وقد حذفه المحقق لأنه زائد .
(٩) بالأصل : خطيت. (١٠) بالأصل : بها . (١١) بالأصل : طهارت . (١٢) بالأصل : بها .

والنقع فوق صقال البيض منعقد كما استقل دخان تحته لهب
(١١٤ – أ) والسيف هام على هام بمعركة لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطالا وليس له سوى القسى وأيد فوقها سحب
وللظبا(١) ظفر حلوا مذاقته كأنما الضرب فيما(٢) بينها ضرب
وللأسنة عما فى صدورهم مصادر أقلوب تلك أم قلب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرة(٣) ماسمت والليل معتكر إلا تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه فى كل حادثة ووجهه نائب عن وصفه اللقب

وهى طويلة جداً . ومما قال فيها بعض الشاميين وأنسيت اسمه : (٤)

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده من بعد ماعلت دما عبراته
ردت على الإسلام عصر شبابه وثباته من دونه وثباته
أرسى قواعده ومد عماده صعدا وشيد سوره سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا إصلاته وصلاته وصلاته

(١١٤ - ب) وهى أيضا طويلة .

ذكر ملك حصن(٥) أفامية

وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة(٦) ، سار نور الدين إلى حصن أفامية ، وهو للفرنج أيضا ، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة . وهو حصن منيع (٧) على تل مرتفع عال ، من أحصن القلاع وأمنعها . وكان من به من الفرنج(٨) يغيرون (٩) على مدينة حماة وشيزر وينهبونها ، وأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار ، فسار نور الدين إليه وحصره وضيق عليه ، ومنع من به القرار ليلا ونهارا ، وتابع عليهم القتال ليمنعهم الإستراحة ، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها ، وساروا نحوه ليزحزحوه عنه(١٠) ، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن ، وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال ، وجميع مايحتاج إليه . فلما

---

(١) بالأصل : وللظبى . (٢) بالأصل: فيها . (٣) بالأصل : ذو عزمة . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٥٩) . (٤) فى ، الروضتين (حـ/١/ص/٦٠) ، أنه الشاعر أحمد بن منير الطرابلسى .
(٥) بالأصل : حصين . (٦) فى ، الكامل (حـ/٩/ص/٢٧) ، أن فتح أفامية كان سنة ٥٤٥ . وما هنا يطابق ما فى ، ابن القلانسى (ص/٣٠٥) . (٧) بالأصل : منع . (٨) بالأصل : للفرنج .
(٩) بالأصل : يعبرون . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٦٢) . (١٠) بالأصل : عنها .

بلغه قرب الفرنج منه سار نحوهم، فحين رأواجده(١) فى لقائهم، رجعوا القهقرى واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ. ومدحه(٢) الشعراء فأكثروا، فمن ذلك (١١٥ - أ) قول ابن منير(٣) فى قصيدته التى أولها:

أسنى الممالك ما أطلت منارها	وجعلت مرهفة الشفار دسارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها	رءوف تكنف عدله أقطارها
أدركت ثأرك فى البغاة وكنت يا	مختار أمة أحمد مختارها
عارية الزمن المغير سما لها(٤)	منك المغير فاسترد معارها
صارت(٥) نجومك فوقها ولربما	باتت تنافثها(٦) النجوم سرارها
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت	شعراء تستقلى(٧) الفحول شوارها(٨)

وهى طويلة.

ذكر الحرب بين نور الدين وجوسلين

وانهزام نور الدين رضى الله عنه

فى سنة [ست وأربعين وخمسمائة(٩)] سار(١٠) نور الدين إلى بلاد جوسلين، وهى القلاع التى شمال حلب، منها: تل باشر، وعين تاب(١١)، وعزاز(١٢) وغيرها من الحصون. فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج. وأخذ جوسلين، سلاح دار(١٣)، كان لنور الدين أسيرا وأخذ ما معه من السلاح، فأنفذه (١١٥ - ب) إلى السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب قونية(١٤) وأقصرا

---

(١) بالأصل: وجده. (٢) بالأصل: وامدحه. (٣) بالأصل: ابن الرومى. (والتصحيح من، الروضتين، حـ/١/ص/٦٢). (٤) بالأصل: سماكها. (٥) فى الروضتين، (حـ/١/ص/٦٣) ضاءت. (٦) بالأصل: تناقتها. (والتصحيح من، الروضتين، حـ/١/ص/٦٣). (٧) بالأصل: تستغلى. (والتصحيح من، الروضتين، حـ/١/ص/٦٣). (٨) بالأصل: سوارها. (والتصحيح من، الروضتين، حـ/١/ص/٦٣). (٩) بياض بالأصل. (والإضافة من، الكامل، حـ/٩/ص/٢٩).

(١٠) بالأصل: فيها سار. (وقد حذف المحقق، اللفظ: فيها، لأنه زائد). (١١) عين تاب: فى (ياقوت): قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بـ «دلوك»، و«دلوك» رستاقها.

(١٢) عزاز: فى (ياقوت): بفتح أوله وتكرار الزاى، وربما قيلت بالألف فى أولها. بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب، بينهما يوم. (١٣) السلاح دار. هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذى هو فى خدمته. ومن وظيفته أيضاً، الإشراف على السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك. ولفظ السلاح دار، مركب من كلمتين، أولاهما عربية، ومعناها آلة القتال، والثانية فارسية، ومعناها ممسك، ويكون المعنى، ممسك السلاح. (السلوك حـ/١/ص/٦٥/حاشية/٣). (١٤) بالأصل: قنية. (والتصحيح من، الكامل، حـ/٩/ص/٢٩)

وغيرها من تلك الأعمال ـ وكان نور الدين قد تزوج إبنته ـ وأرسل مع السلاح إليه يقول : قد أنفذت لك سلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره ، فعظمت هذه الحالة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين حتى أسره على ما نذكره .

فى ذكر أسر جوسلين وملك بلاده

لما بلغ نور الدين ما فعله جوسلين من إرسال سلاحه إلى حميه السلطان مسعود ، قام لذلك وقعد ، وهجر الراحة للأخذ بثأره ، وأزكى(١) العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال ، إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا أو أسراً ، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده ، جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأخلد إلى إعمال الحيلة . فاتفق أن جوسلين خرج متصيداً متنزهاً فى نفر يسير ، فظفر به طائفة من التركمان [فأخذوه أسيراً(٢)] فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه (١١٦ — أ) وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين ، وأرسل جوسلين فى إحضار المال ، فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب(٣) فأعلمه الحال ، فسير معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً ، وكان نور الدين حينئذ بحمص . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج فى حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت(٤) المصيبة [عليهم(٥)] بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفى بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقيه غدره ومكره ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله(٦) .

فلما أسر (١١٦ — ب) تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها : تل باشر ، وعين تاب ،

---

(١) بالأصل : واذكى . (٣) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/٧٢) وقد ذكر أبو شامة ، أن سبب أسره ، أنه « خرج فى عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى ، فاستحسن من السبى امرأة منهم خلا معها تحت شجرة ، فعاجله التركمان ، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً » . ويذكر أبو شامة أنه نقل خبر أسر جوسلين من ابن الأثير ، ومعنى هذا ، أن ناسخ المخطوط ، تصرف فى الخبر . (٣) هو أبو بكر بن الداية . (الكامل ، حـ/٩/ص/٢٩) . (٤) بالأصل : وعظمة . (٥) الاضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/٧٢) .

(٦) فى ابن الوردى (حـ/٢/ص/٥١) أن جوسلين بذل لنور الدين أموالاً لا تحصى لإطلاق سراحه ، فاستشار نور الدين أمراءه فى ذلك فلم يوافقوا على إطلاقه ، فخالفهم وأطلقه ، فمات قبل أن يخرج من الشام (أى من حلب) وانتفع المسلمون ، وعد ذلك من كرامات نور الدين .

وإعزاز ، وقورس(١)، والراوندان(٢) ، وحصن البارة(٣)، وتل خالد(٤)، وكفر لاثا(٥) ، وكفر سوت(٦) ، وحصن بسرفوث(٧) بجبل بنى عليم ، ودلوك(٨) ، ومرعش(٩) ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص(١٠). وكان نور الدين ، رحمه الله تعالى ، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر يكفيه عشر سنين ، خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين ، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة إلى شيء .

وقال الشعراء فى هذه الحادثة فأكثروا ، فمن ذلك قول القيسرانى من قصيدة ، أولها هذه الأبيات حيث يقول :

دعا مالدعى(١١) من غره النهى والأمر ... فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت(١٢) الدنيا إليـــه عنانها ... تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره ... وأسعد قرن من حواه(١٣) لك الأسر
طغى وبغى عدواً على غلوائه ... فأوثقه الكفران ، عدواه(١٤) والكفر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة ... تشق(١٥) على النسرين لو أنها وكر
(١١٧-أ) فسر واملأ(١٦) الدنيا ضياء وبهجة ... فبالأفق الداجى إلى ذا السنا فقر(١٧)
كأنى بهـــذا العزم لا فل حده ... وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جارى الدماء له طهر

---

(١) قورس : بينها وبين حلب يوم (الاصطخرى، ص/٤٩) . (٢) الراوندان : فى (ياقوت) : قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة ، من نواحى حلب . (٣) بالأصل : حصن الباده . والبارة ، كما فى (ياقوت) : بليدة وكورة من نواحى حلب ، وفيها حصن ، وهى ذات بساتين، ويسمونها زاوية البارة .

(٤) تل خالد : : فى (ياقوت) : قلعة من نواحى حلب . (٥) كفر لاثا : فى (ياقوت) : بالثاء المثلثة والقصر . بلدة ذات جامع ومنبر ، فى سفح جبل عال من نواحى حلب ، بينهما يوم واحد ، وهى ذات بساتين ومياه جارية نزهة طيبة ، وأهلها إسماعيلية . (٦) كفر سوت : بالأصل كفر سود (والتصحيح من ، ياقوت) . بضم السين ثم واو وآخره تاء مثناة ، من أعمال حلب الآن (أى فى زمن ياقوت) قرب بهسنا . بلد فيه أسواق حسنة عامرة . (٧) حصن بسرفوث : بالأصل : سرفوت . (والتصحيح من ، ياقوت) ، وهو حصن من أعمال حلب فى جبال بنى عليم . (٨) دلوك : فى (ياقوت) : بضم أوله وآخره كاف . بليدة من نواحى حلب بالعواصم .

(٩) مرعش : فى (ياقوت) : بالفتح ثم السكون والعين مهملة مفتوحة وشين معجمة . مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم ، ولها سوران وخندق ، وفى وسطها حصن عليه سور يعرف بالمروانى ، بناه الخليفة مروان بن محمد ، المعروف بمروان الحمار. (١٠) برج الرصاص : فى (ياقوت) : قلعة ولها رساتيق، من أعمال حلب قرب أنطاكية .

(١١) بالأصل : ادعا . (١٢) بالأصل : بنت . (١٣) بالأصل : جواه .

(١٤) بالأصل: عداوه . (١٥) بالأصل : يشق . (١٦) بالأصل : واماك . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٧٣) . (١٧) بالأصل : قفر . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٧٣) .

وقال بعض الشاميين (١) أيضاً فى هذا المعنى ، هذه الأبيات :

هيهات يعصم من أردت(٢) حذار ... أنى ومن أوهاقك الأقدار
همم تحلك كل يوم رتبة ... تسرى(٣) فيصبح دونها الأقمار
ومطامع فى العز إذ هى صوبت ... فلهن فى الفلك الأثير قرار
طلعت عليك بجوسلين ذريعة ... لا سحل أنشاها(٤) ولا إمرار
وسعادة ما زلت تمرى(٥) خلفها ... فيشف وهو الناتق(٦) المدرار
فأرتك ما يجنى الوفى وفاؤه ... وأرته كيف يحين(٧) الغدار

وهى طويلة .

ذكر المصاف بين نور الدين والإفرنج بدلوك

لما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ليتملكها ، ملك بعضاً وبقى بعض (١١٧ — ب) فاجتمعت الفرنج وسارت نحو الباقى لتمنعه(٨) منه ، وظنوا أنه يمتنع باجتماعهم ولا يقدم عليهم فى عقر ديارهم ، فلما بلغه خبرهم سار إليهم ، وصمم العزم على لقائهم ، فالتقوا بدلوك واقتتلوا ، وكان بين الطائفتين حرب يشيب لها الوليد ، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج ، فهزموهم هزيمة أتت على كثير منهم وسلم الباقون ، واستولى نور الدين على دلوك وغيرها . وفى ذكرها وذكر غيرها قال بعض الشعراء الشاميين(٩) قصيدة فيها :

أعدت بعصرك هذا الأنيق(١٠) ... فتوح النبى وأعصارها
فواطأت ياحبذا(١١) أحدها(١٢) ... وأسررت(١٣) من بدر(١٤) أنوارها(١٥)
وكان مهاجرها تابعيك ... وأنصار رأيك أنصارها
فجددت إسلام سلمانها(١٦) ... وعمر جدك عمارها

(١) هو أحمد بن منير الشاعر . (الروضتين ، حـ/١/ص/٧٥) . (٢) بالأصل : ارغت . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٧٥) . (٣) بالأصل : يسرى . (٤) بالأصل : أنساها . (٥) بالأصل : تمرى ، (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٧٥) . (٦) بالأصل : النايق . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٧٥) ، (٧) بالأصل : يحن . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٧٥) . (٨) بالأصل : ليمنعه . (٩) هو أحمد بن منير الشاعر . (الروضتين ، حـ/١/ص/٧٦) . (١٠) بالأصل: الايق . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٧٦) .
(١١) بالأصل : تاحيذ . (١٢) الإشارة هنا إلى غزوة أحد . (١٣) بالأصل . واسرت .
(١٤) الإشارة هنا ، إلى غزوة بدر . (١٥) بالأصل : ايدارها . (١٦) الإشارة هنا إلى الصحابى المشهور ، سلمان الفارسى .

وما يوم إنب إلا كتيـ لك(١) بل طال بالبوع أشبارها
وأيامك الغر من بعـده تعيد إلى الطى أغرارها
(١١٨ — أ) ويوم على الجون جون السرا ة عز فسعطها عارها
صدمت عريمتها صدمة أذابت مع الماء أحجارها
فصبحت بالخمس أحفاضها ومسيت بالخمس أبكارها
وفى تل باشر باشرتهم بزحف تسور أسوارها
وإن دالكتهم دلوك فقد شددت فصدقت أخبارها

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان

ملكشاه السلجوقى بهمذان

فى سنة سبع(٢) وأربعين وخمسمائة ، توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان . وكان مرضه حمى حادة نحو أسبوع ، وعهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود وخطب(٣) له ببلاد الجبل .

وكان الغالب على البلاد والعساكر فى أيام السلطان مسعود خاصبك(٤) بن بلنكرى ، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه ، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن السلطان محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له (١١٨ — ب) بالسلطنة ، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً ، ويخلو وجهه من منازع من السلجقية ، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه . فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده ، وسار إليه وهو بهمذان واجتمع به ، وخدمه خاصبك خدمة عظيمة وحمل إليه التحف الكثيرة ، فلما كان الغد من يوم وصول الملك محمد ، دخل إليه خاصبك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا ، واستقر محمد وثبت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها ، وكان قتله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقتل معه زنكى الجاندار . وبقى خاصبك مطروحاً حتى أكلته الكلاب .

وكان ابتداء حاله ، أنه كان من أولاد بعض التركمان ، فخدم السلطان فمال إليه وقدمه حتى

(١) بالأصل : كتالك . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٧٦) .
(٢) بالأصل : سنة أربع . (والتصحيح من ، الكامل ، حـ/٩/ص/٣١) . (٣) بالأصل : وخوطب .
(٤) بالأصل : خاصيك . (والتصحيح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/١٨٠) . وابن الأثير يرسم الإسم فى الكامل (حـ/٩/ص/٣٢) خاص بك .

فاق سائر الأمراء ، فتقدم(١) تقدماً عظيما ، واستولى على أكثر البلاد . وهو كان السبب فى أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود ، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتباعه ، لما كان يعاملهم به من الهوان (١١٩ — أ) والتكبر عليهم .

وفيها ، أعنى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وصل إلى الموصل الأمير إياز قفجاق — وهو من أكابر أمراء العجم — شاكيا من شمس الدين إيلدكز، ومستغيثاً عليه ومستشفعاً إليه، وإنجاده(٢) بعساكر يفتح بها ما بيده من البلاد ، فجهزت العساكر معه ، وجعل مقدمها الأمير قراجه تجنه ، مقطع بلد الهكارية ، فوصلوا إلى سلماس وأقاموا معه وأصلحوا حاله معه إيلدكز ، وهو صاحب تلك البلاد جميعها ، وكان هذا قبل أن يستولى على همذان وأصفهان وسائر بلاد الجبل .

وفيها توفى حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، وولى بعده ابنه نجم الدين ألبى .

فى ذكر ملك نور الدين دمشق

فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ملك نور الدين مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بورى(٣) بن طغدكين أتابك . وكان الذى حمل نور الدين على الجد فى ملكها ، أن الفرنج ملكوا فى السنة الخالية مدينة عسقلان (١١٩ — ب) وهى مدينة فلسطين حسناً(٤) وحصانة ، ولما كانوا يحصرونها ، كان نور الدين يتلهف [عليها] ولا يقدر على إزعاجهم عنها ، لأن دمشق فى طريقه ، وليس له طريق على غيرها لاعتراض بلاد الفرنج فى الوسط ، فقوى الفرنج بها حتى طمعوا فى دمشق ، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبى ، وزاد الأمر بالمسلمين بها ، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يجىء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد . ثم اشتد(٥) البلاء على أهلها ، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند(٦) مواليهم أو العودة إلى أوطانهم ، ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار(٧) إليه ، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه فى القلعة مع إنسان منهم يقال له مؤيد [الدين(٨)] ابن الصوفى . فلما كانت (١٢٠ — أ) الأمور بها هكذا ، خاف أهلها وأشفقوا من العدو ، فجأروا(٩) إلى الله تعالى ودعوه فى أن يكشف ما بهم من الخوف ، فاستجاب لهم وأذن فى خلاصهم

---

(١) بالأصل : فتقدم . (٢) بالأصل : اوانجاده . (٣) بالأصل : نورى . (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٩/ص/٤٥) . (٤) بالأصل : حصناً . (٥) بالأصل : أشد .
(٦) بالأصل : وعند . (٧) بالأصل : صار . (٨) الإضافة من ، ابن القلانسى (ص/٣٢٩) .
(٩) فى الروضتين (ح/١/ص/٩٥) فلجأوا .

مما هم فيه على يد أحب عباده إليه ، وأحسنهم طريقة ، وأمثلهم سيرة ، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود ، فحسن له السعى فى ملك البلد وألقاه فى روعه . فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه ، لأن صاحبه كان متى رأى شيئاً من ذلك ، راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم . وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له فكيف إذا [أخذها و(١)] قوى بها . وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين ، فإن الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل ، فلما رأى الحال هكذا عدل إلى إعمال الحيلة ، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله ، وواصله بالهدايا وأظهر له المودة (١٢٠ — ب) حتى وثق إليه ، ثم صار يكاتبه فى بعض الأوقات ويقول له [إن] فلاناً — ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين — قد كاتبنى فى المخامرة عليك فاحذره ، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم ، وتارة يقبض عليه . فلما خلت دمشق من الأمراء ، قدم أميراً كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمى الخادم(٢) ، وكان شهماً شجاعاً ، وفوض إليه أمر دولته ، وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله ، فقال له عند قتله : إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلنى ، واستبقنى فإنه سيظهر لك ما أقول ، فلم يصغ إلى قوله وقتله . فلما قتل [عطاء] قوى طمع نور الدين فى البلد ، فراسل أحداث البلد(٣) وزناطرته(٤) واستمالهم ، فأجابوه إلى تسليم البلد . فسار إليهم وحصرهم عدة(٥) أيام ، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، وإلى أن جمعوا وجاءوا ، بلغهم أخذ نور الدين البلد فعادوا بخفى حنين .

(١٢١ — أ) وأما نور الدين فإنه لما حصر البلد وضيق على من به ، ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقى ، فدخله بالأمان عاشر صفر . وحصر مجير الدين فى القلعة ، وراسله وبذل له الإقطاع الكثير ، من جملته مدينة حمص ، فأجاب إلى تسليم القلعة ، فسلمها إليه وسار إلى حمص .

ولما استقر نور الدين فى البلد ، عمل مع أهله مكرمة عظيمة ، وأظهر فيهم عدلا عاما سيرد ذكره سنة تسع وستين ، عند [ذكر] سيرة نور الدين رحمه الله تعالى . وألقى الإسلام(٦) بدمشق

---

(١) الإضافة من ، الروضتين (ﺣ/١/ص/٩٥) . (٢) بالأصل : الحاذم . (والتصحيح من ، الكامل ، ﺣ/٩/ص/٤٦) . (٣) الأحداث : رجال الشرطة المكلفون بإخماد الفتن والاضطرابات وعقاب مثيرى الشغب : أو هم رجال الحرس الإقليمى فى العصور الوسطى . (الروضتين ﺣ/١/ق/١/ص/٨٥ /حاشية /٤) . نقلا عن : Dozy, Supp. Dict. Ar ; Reinud, J. A. 1848, II, 281 .

(٤) بالأصل : وزناطريه . (والتصحيح من ، المصدر السابق ، ص/٢٣٩) ، والزناطرة : طبقة معينة من سكان المدن مولعة بتحريك الفتن والقلاقل . (المصدر السابق ، ص/٨٥/حاشية/٥) . نقلا عن : Dozy, Supp. Dict. Ar

(٥) فى الروضتين (ﺣ/١/ص/٩٦) : عشرة أيام . (٦) بالأصل : الا الاسلام .

جرانه ، وثبت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار ، ووهنوا واستكانوا ، فصار جميع ما بالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين .

وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص ، وراسل أهل دمشق فى إثارة الفتنة ، فأنهى الأمر إلى نور الدين ، فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه بل ربما تعذر ، لا سيما مع مجاورة الفرنج : فأخذ حمص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرضها ، وسار عن (١٢١ — ب) الشام إلى العراق ، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور(١) المدرسة النظامية وتوفى بها .

ذكر القبض على سليمان [شاه] وحمله إلى الموصل

فى جمادى الأولى من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، قبض زين الدين [على كوجك(٢)] نائب أتابك قطب الدين مودود ، على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد وحمله إلى الموصل فسجنه بها . وسبب ذلك أن سليمان شاه إستأذن الإمام المقتفى لأمر الله فى قصد خدمته . وسأل أن يشرفه(٣) ويخطب له ويمده(٤) بالعساكر ليقصد بلاد الملك محمد ابن أخيه السلطان محمود ، فأجيب إلى ذلك وأذن له ، فسار إلى بغداد فوصل إليها فى المحرم سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وأحضر بدار الخلافة ، وجمع النقباء والقضاة والشهود ، وحلف سليمان شاه للخليفة على قواعد استقرت بينهما ، وخطب له ببغداد فى المحرم ، ولقبه شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين ، وخلع عليه الخليفة وعلى الأمير قويدان [وجعل الأمير قويدان ، صاحب الحلة أمير حاجب معه(٥)] وسار نحو [بلاد(٥)] الجبل عازماً على قصد بلاد الملك محمد، وخرج الخليفة (١٢٢ — أ) إلى حلوان، وأرسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخى سليمان شاه واستدعاه ، فحضر ومعه(٦) ألفا فارس فقرر الخليفة القواعد بينه وبين سليمان شاه، وحلف كل واحد منهما للآخر، وسيرهما فى العساكر وقواهما بالأموال والعدد .

وبلغ الخبر إلى الملك محمد، فجمع عساكره ولقى سليمان شاه وملكشاه بقرب همذان وتصافوا، فانهزم سليمان شاه وملكشاه ، وظفر الملك محمد بعسكرهما وما معهما وعادوا منهزمين إلى بغداد .

وأما سليمان شاه فإنه سار على شهرزور قاصداً نحو بغداد ، وكان الملك محمد قد أرسل [إلى] أتابك قطب الدين وزين الدين واستمالهما فأجاباه إلى موافقته ،وسار زين الدين نجدة له فى عسكر كثير ، فبلغه خبر الهزيمة وأن سليمان شاه قد سار على شهر زور ، وهى لزين الدين ونائبه بها

---

(١) بالأصل : يحاول . (٢) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٤٨) . (٣) بالأصل : يشرف .
(٤) بالأصل : ويمد . (٥) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٤٩) . (٦) بالأصل : فحضروا معه .

الأمير بوزان ، فوقف زين الدين على طريقه ، فلما وصل إليه أخذه وقبض عليه ، وحمله إلى الموصل فحبسه بها مكرماً معظماً ، وكانت الخطبة له ببغداد .

فى ذكر حصر نور (١٢٢ — ب) الدين قلعة حارم

فى هذه السنة ، سار الملك العادل نور الدين محمود إلى قلعة حارم ، وهى للفرنج ثم لبيمند صاحب أنطاكية فحصرها — وهذا الحصن غربى حلب بالقرب من أنطاكية — وضيق على أهلها ، وهى من أمنع الحصون وأحصنها فى نحور المسلمين ، فاجتمعت الفرنج من قرب منها وبعد ، وساروا نحوه لمنعه . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يعرفون عقله وحسنه ، وحسن رأيه ، ويرجعون إلى قوله ، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم ، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء . وقال لهم : إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها ، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه . ففعلوا ما أمرهم به وأشار عليهم ، وراسلوا نور الدين فى الصلح على أن يعطوه حصة من أعمال حارم ، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية ، فأجابوه إلى ذلك ، فصالحهم وعاد ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء(١) ، من أبيات له يقول فيها(٢) : شعر .

(١٢٣ — أ) ألبست دين محمد يا نوره	عزا له فوق السها إسـاد
ما زلت تمسكه بمنآد القنا(٣)	حتى تثقف عـوده المنآد
لم يبق مذ أرهفت(٤) عزمك دونه	عـدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تـكلما	حمدتك عن خطبائها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادى مهلة	فلهم إلى المرعى(٥) الوبى معاد
ملق بأطراف الفرنجة كـلكلا(٦)	طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردى	حاموا ابرائش(٧) كيدهم أو كادوا
ورأى البرنس(٨) وقد تبرنس ذلة	حرما بحارم(٩) والمصاد مصاد
عجبا لقوم حاولوك وحاولوا	عودا فواتاهم إليه مراد
من(١٠) منكر أن ينسف السيل الربى	وأبوه ذاك العارض المداد

---

(١) فى الروضتين (حـ/١/ص/١٠١) ، أنه أحمد بن منير الطرابلسى . (٢) بالأصل : فيها يقول .
(٣) بالأصل : القنى . (٤) بالأصل : ارهقت . (٥) بالأصل : المراعى . (٦) بالأصل : كلكلا .
(٧) بالأصل : خاموا فرايس . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/١٠١) . (٨) بالأصل : الربس .
(والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/١٠١) . (٩) بالأصل : لحارم . (١٠) بالأصل : فى .

أو أن يعيد(١) الشمس كاسفة السنا … نار لهـا ٠ ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ماسمكوا من الـ … ـعلياء حتى ترفع الأولاد

وهى طويلة .

فى ذكر الزلزلة التى (٢) جرت فى الشام ونواحيها

فى سنة اثنتين(٣) وخمسين وخمسمائة ، كان بالشام زلزلة شديدة (١٢٣ — ب) ذات رجفات عظيمة متتابعة ، أخربت البلاد وأهلكت العباد . وكان أشدها بحماة وحصن شيزر(٤) ، فإنهما خربتا بمرة . وكذلك ماجاورهما كحصن (٥) بارين ، والمعرة وغيرها من البلاد والقرايا . وهلك تحت الهدم من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى ، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع . ولولا أن الله من على المسلمين بنور الدين ، جمع العساكر وحفظ البلاد ، وإلا كان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار .

ولقد بلغنى من كثرة الهلكى ، أن بعض المعلمين بحماة ، ذكر أنه فارق المكتب لمهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل عن صبى كان له فى المكتب ، وأشباه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أن كثرة الهلكى كثيرة جداً .

ذكر ملك نور الدين المرحوم حصن شيزر

نبتدىء بذكر حصن شيزر ولمن كان قبل هذا الوقت الذى ملكه نور (١٢٤ — أ) الدين فيه ، فنقول : هذا الحصن قريب من حماة ، بينهما نحو نصف نهار ، وهو من أمنع القلاع وأحصنها ، على حجر عال له طريق منقور فى طرف الجبل ، وقد قطع الطريق فى وسطه وجعل عليه جسر من خشب ، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه ، وكان لآل منقذ الكنانيين(٦) ، يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبى المرهف نصر بن على بن المقلد بن نصر بن منقذ ابن نصر بن هاشم بعد أبيه أبى الحسن على ، فبقى به مدة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة . وكان شجاعا كريما صواما قواما ، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن على ، فقال : [والله(٧)] لاوليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها ، وكان عالما بالقرآن والأدب ، كثير الصلاح ، فولاها أخاه الآخر أبا العساكر(٨) سلطان بن على ، وكان أصغر منه ، فاصطحبا أجمل صحبة مدة من الزمان ، فأولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور(٩) ، فكبروا

---

(١) بالأصل : بعيد . (٢) بالأصل : الذى . (٣) بالأصل : اثنين (٤) بالأصل : وحمص شيزر . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/١٠٥) . (٥) بالأصل : لحصن . (٦) بالأصل : الكتانيين .
(٧) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١١١) . (٨) بالأصل : بالعسكر . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/١١٢) . (٩) بالأصل : ذكوره .

وسادوا ، منهم : عز الدولة أبو الحسن (١٢٤ — ب) على ، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما ، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر ، فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك، وكان كلما رأى صغر(١) أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ، ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه ، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعرا يعاتبه على أشياء بلغته [عنه فأجابه(٢)] بأبيات جيدة فى معناها ، رأيت إثبات بعضها ، وهى هذه الأبيات ، شعر :

ظلوم أبت فى الظلم إلا تماديا — وفى الصد والهجران إلا تناهيا
شكت هجرنا فى ذلك والذنب ذنبها — فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فى وطالما — عصيت عذولا فى هواها وواشيا
ومال بها تيه (٣) الجمال إلى القلى — وهيهات أن أمسى لها الدهر قاليا(٤)
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها — وإن هى أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتانى من قريضك جوهر — جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لأنه — تولى برغمى حين ولى شبابيا
(١٢٥ — أ) وأين من الستين(٥) لفظ مفوف — إذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخى يرعى بنى وأسرتى — ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
ويجزيهم (٦) مالم أكافه فعله — لنفسى فقد أعددته من تراثيا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتى(٧) — وثلم (٨) منى صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة — وقربك منهم جفوة وتنائيا (٩)
فأصبحت صفر الكف مما رجوته — أرى اليأس قد عفى سبيل(١٠) رجائيا
على أننى ماحلت عما عهدته — ولا غيرت هذى السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فإننى — أراك يمينى والأنام (١١) شماليا
تهن بها عذراء لو قرنت بها — نجوم سماء (١٢) لم تعد دراريا
تحلت بدر من صفاتك زانها — كما زان منظوم اللآلى الغوانيا
وعش بانيا للجود ما كان واهيا — مشيدا من الإحسان ما كان هاويا

---

(١) بالأصل : اصغر . (٢) الإضافة من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٣) بالأصل : بهايته . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٤) بالأصل : فاليا . (٥) بالأصل : السين . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٦) بالأصل : ويجريهم . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٧) بالأصل : صعدنى . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) .
(٨) بالأصل : تلم . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) (٩) بالأصل : وثاييا . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (١٠) بالأصل : سيل . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢)
(١١) بالأصل : والأيام . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢). (١٢) بالأصل : السماء .

وكان الأمر فيه فى حياة الأمير مرشد بعض الستر ، فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن(١) ، وباداهم(٢) بما يسوءهم (١٢٥ — ب) ، وتمادت الأيام بينهم إلى أن قوى عليهم فأخرجهم من شيزر . وكان أعظم الأسباب فى إخراجهم ، ما حدثت به عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ، قال : كنت من الشجاعة والإقدام على ما قد علمه الناس ، فبينما أنا بشيزر ، وإذ قد أتانى إنسان ، فأخبرنى أن بدجلة ، يقاربها ، أسداً ضارياً . قال : فركبت فرسى وأخذت سيفى وسرت إليه لأقتله ، ولم أعلم أحداً من الناس لئلا أمنع من ذلك ، فلما قربت من الأسد ، نزلت عن فرسى وربطته ومشيت نحوه ، فلما رآنى قصدنى ووثب على، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه فى مخلاة فرسى وعدت إلى شيزر، ودخلت على والدتى(٣) وألقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال ، فقالت : يا بنى تجهز للخروج من شيزر ، فوالله لا يمكنك عمك من المقام ولا أحداً من إخوتك ، وأنتم على هذه الأحوال من الإقدام والجراءة . فلما كان الغد وإذا قد أمر عمى بإخراجنا من عنده ، وألزمنا به إلزاما لا مهلة [فيه] فتفرقنا فى (١٢٦ — أ) البلاد ، فقصدوا الملك العادل نور الدين ، وشكوا إليه مالقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده والأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ، ولخوفه من أن يسلم شيزر إلى الفرنج ، وبقى فى نفسه منه أثر . وتوفى الأمير سلطان وولى بعده أولاده ، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج ، فاشتد ما فى نفسه وهو ينتظر الفرصة ، فلما خربت القلعة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان فى الحصن ، فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده ، وعمرها وعمر أسوارها وأعادها كأن لم تخرب . وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت .

ذكر وفاة عز الدين الدبيسى وحصر الجزيرة

فى ذى الحجة من سنة اثنتين(٤) وخمسين وخمسمائة ، توفى الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر ، فسار قطب الدين أتابك مودود ابن(٥) الشهيد إليها ، ظناً منه [أنها] لا تمتنع عليه ، لأنها كانت بيد الدبيسى إقطاعاً منه ، فلما وصل إليها رأى [أنه] قد (١٢٦ — ب) تغلب عليها مملوك للدبيسى اسمه أغلبك ، وقد أطاعه الجند وامتنعوا بالمدينة ، وكان الدبيسى لم يخلف ولداً ، فلهذا تغلب أغلبك بعده . وأقام أتابك قطب الدين محاصراً للمدينه عدة شهور لأنه لم ير أن يضع من قدرها بالإسراع فى ملكها ، ثم تسلمها(٦) وترك بيد أغلبك القلاع المختصة

---

(١) بالأصل : المحن .
(٢) بالأصل : وناداهم .
(٣) بالأصل : والدى .
(٤) بالأصل : اثنين .
(٥) بالأصل : وابن .
(٦) فى الكامل (ح/٩/ص/٥٥) أنه تسلمها فى شهر صفر سنة ٥٥٣ .

بها وهى : كواشى(١) ، والزعفران ، وفرح ، وجميع قلاع الزوزان وغيرها . وعاد أتابك إلى الموصل بعد الإستيلاء على الجزيرة ، وكانا لدبيسى من أكابر الأمراء ، يأخذ نفسه مأخذ الملوك . حكى لى والدى . إنه لم يضع علامته على إطلاق(٢) مال أبداً قل أم كثر . وكان عاقلا حازماً ، ذا رأى وكيد ومكر .

ذكر حصار الملك محمد وزين الدين دار السلام بغداد

فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، سار الملك محمد بن السلطان محمود إلى بغداد ليحصرها ، وأرسل إلى أتابك قطب الدين يستمده ، ويطلب منه أن ينجده بإرسال العساكر . فجهز إليه عسكراً كثيفاً ، وجعل مقدمه زين الدين نائبه (١٢٧ — أ) فى جميع بلاده وسيرهم إليه . واجتمعوا بالملك محمد بنواحى حربى(٣)، وساروا فى الجانب الغربى إلى بغداد فوصلوها فى ذى القعدة . وبلغ الخبر إلى المقتفى لأمر الله ، فأمر بإخراب قصر عيسى ، والمربعة ، والقرية ، والمستجدة ، والنجمى ونهب أصحابه ما وجدوا فى الدور من الأموال والأثاث وغير ذلك ، وخرب عسكر الملك محمد نهر القلائين ، والتوثة ، وباب الميدان ، وقطفتا(٤) ، ولم يتعرض أحد للكرخ وباب البصرة ، وخرج أهلهما(٥) إلى العسكر فاتجروا وكسبوا معهم الأموال الكثيرة . وجد المقتفى لأمر الله فى حفظ بغداد وجمع الغلات ، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة فى هذا الأمر المقام الذى يعجز عنه غيره .

ولما وصل العسكر إلى بغداد نصبوا جسراً على دجلة ، وعبر أكثر العسكر إلى الجانب الشرقى وأقام زين الدين وعسكر أتابك قطب الدين بالجانب الغربى ، نازلين تحت الصراة ، وكان القتال فى الماء على باب البلد ، ولم يقتل بين الفريقين إلا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيراً . وأمر المقتفى لأمر الله فنودى ببغداد : [كل] من جرح (١٢٧ — ب) فله خمسة(٦) دنانير ، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه . فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحا ، فقال له الوزير : هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً . فعاد إلى القتال فضرب فى جوفه فخرجت أمعاؤه ، فعاد إلى الوزير وقال له : يامولانا الوزير : يرضيك هذا . فضحك منه ، وأمر له بصلة وأحضر من عالجه .

---

(١) كواشى : فى (ياقوت) : الكواشى ، بالفتح وشين معجمة . قلعة حصينة فى الجبال التى فى شرق الموصل ، ليس إليها طريق إلا لرجل واحد . وكانت قديماً تسمى « أردمشت » . وكواشى ، إسم لها محدث .

(٢) بالأصل : الاطلاق .

(٣) لعلها « الحربية » الواردة فى الاصطخرى (ص/٥٨) . وهى إحدى القطائع التى بناها الخليفة المنصور العباسى (١٣٦ — ١٥٨ هـ) حول بغداد ، لحاشيته ومواليه وأتباعه .

(٤) بالاصل : وقطيناً ، (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٩/ص/٥١) .

(٥) بالأصل : وأهلها . (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٩/ص/٥١) .

(٦) بالأصل : خمس .

ولم يزل الخليفة يراسل زين الدين ويستميله ، إلى أن تغيرت نيته فى القتال ، وثبط الملك محمد عنه أيضاً(١) ، وكانت كتب الخليفة ورسله ، صادرة إلى جميع أصحاب الأطراف المجاورين للملك محمد ، يحثهم على قصد بلاده ، وأقطع كل صاحب طرف ما يليه منها ، فتحرك أصحاب الأطراف .

وكان قد طال المقام على بغداد ولم ينل [الملك محمد] منها غرضاً ولا غلا بها سعر ، لأن الوزير كان يعطى الأجناد الغلات عوض الأموال ، فيبيعونها لينفقوا ثمنها ، فكانت(٢) الأسعار لا تزال رخيصة بهذا السبب .

ثم إن الخبر وصل إلى الملك محمد ، بأن أخاه ملكشاه قد قصد همذان ودخلها فى عسكر (١٢٨ — أ) كثير ونهبها ، وأخذ نساء الأمراء الذين معه وأولادهم فاختلط العسكر وتفرقوا ، وعاد الملك محمد نحو همذان ، وعسكر الموصل مع زين الدين نحو الموصل ، وعاد كل أمير إلى بلاده على عزم العود إلى بغداد ، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر والمنقطعين ، وشعثوا دار السلطان .

ذكر وفاة المقتفى لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله

[فى] ثانى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، توفى أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله بعلة التراقى . وكان مولده ثانى عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة . وأمه أم ولد تدعى ياغى . وكانت خلافته أربعا(٣) وعشرين سنة وشهرين(٤) .

ولما توفى جددت البيعة لولده أبى المظفر يوسف ولقب المستنجد بالله ، وكان قد عهد إليه قبل وفاته ، وبايعه الأمراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وأعيان الناس . وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة له فلم يمتنع أحد من ذلك . وأقر عون الدين بن هبيرة على وزارته .

فى ذكره مسير سليمان شاه إلى همذان (١٢٨ — ب)

فى أوائل سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وردت رسل الأمراء الأكابر من بلاد الجبل إلى أتابك قطب الدين ، يطلبون منه إنفاذ الملك سليمان شاه بن محمد إليهم ليولوه السلطنة ، وترددت

---

(١) فى الكامل (حـ/٩/ص/٥١) : « وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين فى القتال لأجل الخليفة والمسلمين ، وقيل لأن نور الدين محمود بن زنكى — وهو أخو قطب الدين صاحب الموصل الأكبر — أرسل إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتر وأقصر » .   (٢) بالأصل : فكان .

(٣) بالأصل : أربع .   (٤) فى الكامل (حـ/٩/ص/٦٨) ، وثلاثة أشهر وستة عشر يوما والصواب ، شهرين وخمسة عشر يوما ، لأنه بويع بالخلافة فى ١٨ ذى الحجة سنة ٥٣٠ . (الكامل ، حـ/٨/ص/٣٥٥) .

الرسل فى ذلك حتى استقر الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطاناً ، وقطب الدين أتابكه والمرجع إليه فى جميع مملكته ، وجمال الدين وزيره ، وزين الدين مقدم عسكره . وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه ، وحمل إليه أتابك قطب الدين من الأموال والثياب والخيل والآلات ما يصلح للسلاطين ، وسار ومعه زين الدين فى عسكر الموصل نحو همذان ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت العساكر إلى خدمة سليمان شاه أرسالا(١) ، كل يوم يلقاه طائفة وأمير ، فاجتمع معه عسكر عظيم ، نخافهم زين الدين على نفسه وعلى الموصل أيضاً ، لأنه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للأدب ما أوجب الخوف ، فعاد عنه إلى الموصل . فحين فارقه (١٢٩ — أ) زين الدين لم ينتظم أمره ولم يتم له ما أراد . حكى لى والدى قال : استدعانى جمال الدين الوزير بعد مسير سليمان شاه وقال : قد استقر الأمر كيت وكيت ، فتعود إلى الجزيرة وتقطع علائقك وتقضى أشغالك ، فإنى أريد أن أجعلك نائبى بالعراق . قال : فسرنى [ذلك] من وجه وساءنى من آخر ، إلا أننى لم أر من طاعته بداً . قال : ثم استدعانى بعد ذلك ، وقال لى : عد إلى بلدك ، فإن سليمان شاه لم ينتظم حاله ففارقته(٢) وعدت .

وفيها أعنى سنة خمس وخمسين ، حج(٣) زين الدين نائب قطب الدين ، وحذره أصحابه من الحج لأجل مساعدته(٤) الملك محمد فى حصر بغداد ، فلم يلتفت إلى قولهم وسار . فلما وصل بغداد أكرمه [الخليفة] المستنجد [بالله] ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة — وكان هو قصيراً جداً — فمد يده إلى كمرانه وأخرج ما شد به وسطه وقصر الجبة ، فنظر المستنجد إليه فاستحسن ذلك منه ، وقال لمن عنده : مثل هذا يكون الأمير والجندى لامثلكم . فلما دخل عليه (١٢٩ — ب) قبل يده ، ثم خرج من عنده بعد أن حادثه بالتركية — وكان المستنجد بالله يتكلم بها جيداً — فلما خرج نظر إليه المستنجد من شباك ، [وكان زين الدين] قد أخرج شيئاً من السيف الذى أنعم به عليه من الديوان ، فلم يره جيداً وهو يومىء برأسه — يعنى أنه غير جيد — فأرسل إليه سيفاً آخر ، وقال الرسول : يقول لك أمير المؤمنين ، ذاك السيف يترك ، وهذا يقاتل به أعداء أمير المؤمنين وأعداء المسلمين . فرد وجهه وقبل الأرض وتقلده . وأحسن إلى الناس فى الطريق ، وأكثر الصدقات .

---

(١) بالأصل : دارسالا .

(٢) بالأصل : ففارقه . (٣) بالأصل : حجى . (٤) بالأصل : مساعده .

فى حصر نور الدين قلعة حارم

فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، جمع نورالدين العساكر بحلب ، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجد فى قتالها ، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . فلما علم الفرنج خبرها ، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا ، وأعدوا واستعدوا ، وساروا نحوه ليرحلوه عنها . فلما قاربوه طلب منهم (١٣٠ — أ) المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك ، وراسلوه وتلطفوا الحال معه . فلما رأى أنه لايمكنه أخـــذ الحصن ولا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

وممن كان معه فى هذه الغزوة ، الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ — وكان من الشجاعة فى الغاية التى لامزيد عليها — فلما عاد إلى حلب ، دخل مسجد سيرين(١) — وكان قد دخله فى العام الماضى سائراً إلى الحج — فلما دخله الآن ، كتب على حائطه ، يقول ، شعر :

لك الحمد يامولاى كم لك منة ... على وفضل لايحيط به(٢) شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلا (٣) ... من الغزو وموفور النصيب(٤) من الأجر
ومنه رحلت العيس فى عامى الذى ... مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضى وأسقطت ثقل ما ... تحملت من وزر الشبيبة (٥) عن ظهرى

فى ذكر إنهزام نور الدين بحصن الأكراد وما جرى(٦) له

فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، جمع الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد زنكى عساكره جميعها ودخل بلاد الفرنج ، فنزل بالبقيعة (١٣٠ — ب) تحت حصن الأكراد(٧) — وهو للفرنج — عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس (٨) ، فبينما الناس فى بعض الأيام فى خيامهم وسط النهار ، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه الحصن . وكان سبب ذلك ، أنهم

(١) بالأصل : مرير . (والتصحيح من . الروضتين ، ح/١/ص/١٢٧) .
(٢) بالأصل : بها .   (٣) بالأصل : قايلا .   (٤) بالأصل : النصب .   (٥) بالأصل : السيئة (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٢٧) .   (٦) بالأصل : جرا .   (٧) حصن الأكراد فى (ياقوت) : حصن منيع حصين على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب ، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان . وهو بين بعلبك وحمص . وكان بعض أمراء الشام قد بنى فى موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج . وأجرى لهم أرزاقاً فتديروها بأهاليهم ، ثم خافوا على أنفسهم فى غارة ، فجعلوا يحصنونه إلى أن صارت قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم فنازلوه ، فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم وملكه الفرنج ، وهو فى أيديهم إلى هذه الغاية (أى إلى زمن ياقوت) . وبينه وبين حمص يوم ، ولا يستطيع صاحبها إنتزاعه من أيديهم .
(٨) بالأصل : طرابليس .

اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين فى النهار لأنهم يكونوا آمنين ، فركبوا نحوهم ، فلم يشعر يزك(١) المسلمين إلا وقد قاربوهم، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك، وأرسلوا إلى نور الدين يعلمونه الخبر، فرهقهم الفرنج [بالحملة(٢)] وأخذوهم بين أيديهم ، فوصلوا معا إلى العسكر النورى ، فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوهم ، فكان أقصى(٣) رأيهم الإنهزام ، ووضع الإفرنج فيهم السيف وأكثروا(٤) القتل والأسر ، وكان أشد شىء على المسلمين الدوقس الرومى ، فإنه كان قد خرج إلى الساحل فى جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين فى زعمهم ، فلم يبقوا على أحد، وقصدوا خيام الملك العادل (١٣١ — أ) نور الدين فخرج من ظهر خيمته عجلا بغير قباء(٥) فركب فرسا هناك للنوبة ، ولسرعته ركبه وفى رجله شبحة(٦) ، فنزل إنسان من الأكراد فقطعها ، فنجا نور الدين وقتل الكردى ، وكان أكثر القتل فى السوقة والغلمان . ولما نجا نور الدين سأل عن مخلفى ذلك الكردى فأحسن إليهم جزاء لفعله .

وسار نور الدين إلى مدينة حمص وأقام بظاهرها ، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس ، على فرسخ من حمص ، وبينها وبين مكان الوقعة أربع فراسخ ، فكان الناس لا يظنون أنه يقف دون حلب ، فكان رحمه الله أشجع من ذلك وأقوى عزما .

ولما نزل على بحيرة قدس ، اجتمع إليه كل من نجا من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأى أن تقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجىء إلينا ونحن على هذه الحال ، فوبخه وأسكته وقال : إذا كان معى ألف فارس لا أبالى بهم قلوا أم كثروا (١٣١ — ب) والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأرى .

ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند فأكثر ، وفرق ذلك جميعه على من سلم ، وأما من قتل أو أسر فإنه أقر إقطاعه على أولاده ، فإن لم يكن [له] ولد فعلى بعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد .

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لأنها أقرب البلاد إليهم ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا .

وكان نور الدين قد أكثر الخرج ، إلى أن قسم فى يوم واحد مائتى ألف دينار حمر ، سوى غيرها

---

(١) اليزك : لفظ فارسى معناه ، طليعة الجيش (Dozy : Supp Dict Ar) وفى « الحوادث الجامعة » (ص/٢٩/ حاشية/٢) ، أن اليزك عند الترك ، كالسرية عند العرب . (٢) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٨٣) .
(٣) بالأصل : اقصا . (٤) بالأصل : وأكثر . (٥) القباء ، نوع من الثياب ، مشتق من ذلك لاجتماع أطرافه . والجمع أقبية . (لسان العرب) . (٦) شبحة الفرس : سلسلة يربط بها قدم الحصان ، وفى أحد طرفيها عروة تزر فى القدم ، وفى الآخر وتد يدق فى الأرض . (Dozy : Suppy Dict Ar)

من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك . وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا(١) كل واحد منهم عن الذى أخذ [منه] ومهما(٢) ذكر شيئا أعطوه عوضه(٣)، فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا (١٣٢ — أ) إلى نور الدين ينهون إليه القصة ، ويستأذنوه فى تحليفه على ما ادعاه ، فأعاد الجواب: لا تكدروا عطاءنا بالأذى ، فإنى أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : إن لك فى البلاد إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا وقال : والله [إنى(٤)] لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا [نائم(٤)] فى فراشى بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطىء وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا .

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا(٥)

هكذا هكذا وإلا فلا لا .

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين فى المهادنة فلم يجبهم إليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا .

فى ذكر القبض على جمال الدين الوزير ابن على الأصفهانى

(١٣٢ — ب) فى هذه السنة أيضاً ، قبض أتابك قطب الدين على وزيره جمال الدين محمد بن على الأصفهانى . وكان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين فظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة فأبان عن كفاية وعفة ، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكمه تحكيما لا مزيد عليه . فحكى لى والدى ، قال : أرسلنى دزدار الجزيرة إلى الوزير ضياء الدين الكفرتوثى — وهو وزير الشهيد والحاكم فى بلاده قبل أن أتصل أنا بخدمة جمال الدين وأنوب عنه — يقول له : قد بلغنى أن جمال الدين يقصدنى ويريد أن يعزلنى ، وأنا متعلق بك وبنصير الدين ، ومن أصحابكما ، فكيف ترى الحال . قال : فلما أبلغت الوزير هذه الرسالة ، قال لى : ما سمعت من جمال الدين شيئاً من هذا عند أتابك ، ومع هذا ، فالرجل يدخل قبلى ويخرج بعدى ، فما أعلم

---

(١) بالأصل : ويسأله .   (٢) بالأصل : مهما .   (٣) بالأصل : عوضه .

(٤) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٢٨) .   (٥) ورد بالأصل نثرا ومحرفاً هكذا : هذى المكارم لاقنعان من لبن شبآ بما فعادا بعد وابوالا . (والتصحيح من البيهقى : المحاسن والمساوىء ، ح/١/ص/٧٤) .

ما يكون منه . ولم يزل كذلك (١٣٣ — أ) إلى أن قتل الشهيد ، وكان منه ما قد تقدم ذكره فى حفظ الدولة . ووزر لولده سيف الدين ، ثم لقطب الدين . وكان بينه وبين زين الدين عهود ومواثيق على المصافاة والإتفاق . وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم . وكانت الموصل فى أيامه ملجأ لكل ملهوف ، ومأمنا لكل خائف، فسعى به الحساد إلى أتابك حتى أوغروا صدره عليه ، وقالوا : إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها ، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين ، فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومؤاخاته ، فقبض عليه وحبس بقلعة الموصل ، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه ، لأن خواص أتابك وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين ، فلما قبض انبسطوا فى الأمر والنهى على خلاف غرض زين الدين ، فكان زين يذم أصحابه على تحسين الموافقة على قبض جمال الدين .

(١٣٣ — ب) ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر

فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة(١) سار أسد الدين شيركوه بن شاذى — وهو من أكابر الأمراء الذين فى خدمة الملك العادل نور الدين محمود — إلى الديار المصرية عازما على ملكها واستضافتها إلى المملكة النورية .

ونحن نبتدىء قبل ذكر مسيره وما كان منه ، بذكر حاله وتنقله واتصاله بالخدمة النورية ، فنقول : كان أسد الدين شيركوه [وأخوه(٢)] نجم الدين أيوب — وهو أكبر(٣) أبناء شاذى — من بلد دوين [وهى بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلى الروم(٢)] وأصلهما من الأكراد الروادية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد ، فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، فرأى من نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة ، فجعله دزدار تكريت ، وهى له ، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك الشهيد رضى الله عنه بالعراق من قراجة الساقى على ما ذكرناه قبل ، وصل إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين وأقام له السفن ، فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم (١٣٤ — أ) ثم إن أسد الدين قتل إنسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما ، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، فقصدا أتابك الشهيد ، فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما ، وأقطعهما إقطاعا حسنا ، وصارا من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزدارا فيه . فلما قتل الشهيد حصره عسكر دمشق ، فأرسل إلى الملك سيف الدين غازى

---

(١) فى الكامل (حـ/٩/ص/٨٣) أن مسيره كان فى شهر جمادى الأولى من السنة . (٢) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٢٩) . (٣) بالأصل : الأكبر .

— وقد قام بالملك بعد والده — ينهى الحال إليه ويطلب العسكر(١) ليرحل صاحب دمشق عنه، وكان سيف الدين فى ذلك الوقت فى بداية ملكه ، وهو مشغول بإصلاح السلطان وأصحاب الأطراف الذين يجاورونه، فلم يتفرغ(٢) لبعلبك، وضاق الأمر على من بها من الحصر ، فلما رأى نجم الدين الحال ، وخاف أن تؤخذ قهراً وعنوة وينالُه أذى ، أرسل فى تسليم القلعة وطلب إقطاعا ذكره فأجيب إلى ذلك ، وحلف له صاحب دمشق عليه وتسلم القلعة، ووفى(٣) له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم (١٣٤ — ب) وصار عنده من أكابر الأمراء(٤) ، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد — وكان يخدمه فى أيام والده — فقربه نور الدين وأقطعه ، ورأى منه فى حروبه ومشاهده آثارا(٥) يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته ، فزاده إقطاعا وقربا، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره .

فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق ، أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين أيوب — وهو بها — فى ذلك . وطلب منه المساعدة على فتحها ، فأجاب إلى مايراد منه ، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرا من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها ، فبذل لهما ماطلبا(٦) منه ، وحلف لهما عليه ، ووفى لهما لما ملكها ، وصارا عنده فى أعلى المنازل ، لاسيما نجم الدين ، فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك ، إلا(٧) نجم الدين ، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك .

فلما كان هذه السنة وعزم نور (١٣٥ — أ) الدين على إرسال العساكر إلى مصر ، لم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين فسيره . وكان سبب ذلك أن شاور السعدى — وزير العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر — عزل من الوزارة(٨) ، فسار إلى الملك العادل نور الدين ، فوصل إليه وهو بدمشق ، والتجأ إليه واستجار به ، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه ، وأنعم عليه إنعاما غمره به . وكان وصوله سنة ثمان وخمسين وخمسمائة(٩) ، وطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها ويكون له فيها حصة ذكرها له ، ويتصرف على أمره ونهيه واختياره(١٠) ، ونور الدين يقدم فى ذلك رجلا ويؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور

---

(١) بالأصل : للعسكر . (٢) بالأصل : يتفرغوا . (٣) بالأصل : ووفا .

(٤) فى الكامل (ح/٩/ص/١٥ — سنة ٥٤١) أن صاحب دمشق أعطى نجم الدين « إقطاعا ومالا وملكه عشر قرى من بلاد دمشق ، وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها » . (٥) بالأصل : أثاره .

(٦) بالأصل : طلب . (٧) بالأصل : إلى . (٨) فى الكامل (ح/٩/ص/٨٤) أن ضرغاما نازع شاورا الوزارة وغلبه عليها ، فهرب منه شاور إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين .

(٩) فى الكامل (ح/٩/ص/٨٤) أن وصوله كان فى ربيع الأول من السنة .

(١٠) فى الكامل (ح/٩/ص/٨٤) « ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ويكون شيركوه مقيما بعسكره فى مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين » .

[بابه(١)] وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الإفرنج فيه ، إلا أن يوغلوا فى البر فيتعرضوا الخطر(٢) آخر مع الخوف من الفرنج أيضا(٣). ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه(٤) ، وكان هوى أســد الدين فى ذلك (١٣٥ — ب) وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى بمخافة ، فتجهز وسار مع شاور فى جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وأمره نور الدين بإعادة شاور إلى منصبه ، والانتقام ممن نازعه فى الوزارة ، فساروا جميعا ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلى الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان ظن نور الدين صحيحا(٥) ، فسار(٦) الفرنج لحفظ بلادهم من نور الدين . ووصل أسد الدين إلى مصر سالما هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور فى الوزارة ، وعاد شاور وزيرا وتمكن من منصبه . وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور لما عاد إلى منصبه ، وعاد عن ما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام . فأنف أسد الدين من هذه الحال ، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر ، فلم يجبه شاور إليه . فلما رأى ذلك ، أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس ، وحكم على (١٣٦ — أ) البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين فهم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم ويطلب أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد ، جاءهم فرج لم يحتسبوه ، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته ، وطمعوا فى ملك ديار مصر ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه ، فتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير ، سار بعساكره إلى طرف بلاده مما يلى الفرنج ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر فى مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر ، أشد من الخطر فى مسيرهم(٧)، فتركوا فى بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس فى الباقين(٨) إلى مصر . وكان قد وصل إلى الساحل جميع كثير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس ، فاستعان بهم ملك الفرنج فأعانوه ، وسار بعضهم معه ، وأقام بعض فى البلاد لحفظها(٩) ، فلما قارب الفرنج مصر ، فارقها أسد (١٣٦ — ب) الدين وقصد مدينة بلبيس ، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا له يتحصن به . فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس

---

(١) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٨٤) . (٢) بالأصل : بخطر . (٣) فى الكامل (ح/٩/ص/٨٤) سبب آخر عن تخوف نور الدين من إرسال أسد الدين إلى مصر ، وهو الخوف من « أن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفى » . (٤) فى الروضتين (ح/١/ص/١٣٠) ، أن نور الدين أرسل أسد الدين إلى مصر « قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وجسا للبلاد وتطلعاً على أحوالها » . وينقل أبو شامة (ص/١٣٢) عن العماد الكاتب ، أن نور الدين أرسل أسد الدين مع شاور « على قرار عينه ، وأمر بينه ، وبغية يدركها ، وخطة يملكها ، ومحجة واضحة فى الملك يسلكها » . (٥) بالأصل : صحيح . (٦) بالأصل : فصار . (٧) بالأصل : لمسيرهم . (٨) بالأصل : الباقيين . (٩) بالأصل : يحفظها .

وحصروه بها ثلاثة أشهر، وقد امتنع بها أسد الدين، وسورها من طين قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا. فبينما هم كذلك، أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط فى أيديهم ولات حين مناص، فأراد الفرنج العود إلى بلادهم ليحفظوها، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلا وقد ملكها على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج فى الساحل. فحدثنى من رأى أسد الدين حين خرج (١٣٧ — أ) من بلبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم، وبيده لت حديد يحمى ساقتهم، والمسلمون(١) والفرنج ينظرون. قال: فأتاه إفرنجى من الفرنج الغرباء، فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء — المسلمون والفرنج — وقد أحاطوا بك [وبأصحابك(٢)] فلا(٣) يبقى لكم معهم بقية. فقال شيركوه: ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى(٤) مالم تر مثله، كنت والله أضع [فيهم(٢)] السيف، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل [منهم] رجالا، وحينئذ(٥) يقصدهم الملك العادل نور الدين — وقد ضعفوا وفنى أبطالهم — فيملك بلادهم ويفنى(٦) من بقى منهم، ووالله لو أطاعنى هؤلاء — يعنى أصحابه — لخرجت إليكم [من(٧)] أول يوم، لكنهم امتنعوا. فصلب الفرنجى على وجهه، وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار، ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم(٨). ثم رجع عنه(٩) وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالما(١٠).

فى ذكر فتح (١٣٧ — ب) حصن حارم من الإفرنج

فى هذه السنة فى رمضان، فتح الملك العادل نور الدين قلعة حارم وملكها من الفرنج. والسبب فى هذا الفتح، أن نور الدين لما عاد منهزما على ما ذكرناه(١١) قبل، أقبل على الجد والإجتهاد، والإستعداد للجهاد، والأخذ بثأره، وغزو العدو فى عقر داره، وليرفو ذلك الخرق، ويرتق ذلك الفتق، ويمحو سمة(١٢) الوهن، ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين(١٣) بالموصل،

(١) أى المصريون. (٢) الإضافة من، الروضتين (ح/١/ص/١٣٢). (٣) بالأصل: ولا.
(٤) بالأصل: ترا. (٥) بالأصل وحينئذهم. (٦) بالأصل: ويملك. (والتصحيح من، الروضتين، ح/١/ص/١٣٢). (٧) الإضافة من، الكامل (ح/٩/ص/٨٥). (٨) بالأصل: غدرنا بهم. (والتصحيح من، الروضتين، ح/١/ص/١٣٢). (٩) بالأصل: عنهم. (والتصحيح من، الروضتين، ح/١/ص/١٣٢).
(١٠) فى الكامل (ح/٩/ص/٨٥) أن شيركوه خرج من بلبيس فى شهر ذى الحجة من السنة.
(١١) أى هزيمته عند البقيعة تحت حصن الأكراد. (١٢) بالأصل: اسمه. (١٣) هو قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى، صاحب الموصل (٥٤٤ — ٥٦٥).

وفخر الدين قرا أرسلان(١) بالحصن ، ونجم الدين ألبى(٢) بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف [يستنجدهم(٣)] .

فأما قطب الدين أتابك ، فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه .

وأما فخر الدين قرا أرسلان فبلغنى عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أى شىء عزمت، فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقى نفسه والناس معه فى المهالك . فكلهم وافقه(٤) على ذلك ، فلما كان الغد ، أمر (١٣٨ — أ) بالنداء فى العسكر بالتجهز للغزاة . فقال له أولئك : ماعدا مما بدا ، فارقناك بالأمس على حال نرى(٥) الآن ضدها . فقال : إن(٦) نور الدين قد سلك معى طريقا ، إن لم أنجده ، خرج أهل بلادى عن طاعتى ؛ وأخرجوا البلاد عن يدى، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين(٧) عن الدنيا، يذكر لهم مالقى(٨) المسلمون من الفرنج ، ومانالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء، ويطلب [منهم(٩)] أن يحثوا المسلمين على الغزاة(١٠)، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرءون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنونى ويدعون(١١) على ، فلا بد من إجابة دعوته . ثم تجهز أيضا وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين فإنه سير عسكرا . فلما إجتمعت العساكر سار نحو حارم ، فى كل بطل بسلاحه شاكى ، ولشدة المراس غير شاكى ، [كما] يقول [الشاعر] :

فى كل أروع يرتاع المنون له   إذا تجرد لا نكس(١٢) ولا جهد
(١٣٨ — ب) يكاد حين يلاقى القرن من حنق   قبل السنان إلى حوبائه(١٣) يرد

وكانوا حقا جيش الطواويس(١٤) ، وكل منهم فى بيض(١٥) الحديد وألوان التشاهير يختال ويميس ، وأشرقت عليهم الشمس فرقت لها الأحداق ، وتلألأت الآفاق ، ونزل عليها وحصرها، وأطار إليها من القسى والمجانيق سهامها وحجرها .

---

(١) هو فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ، صاحب حصن كيفا (٥٣٩ — ٥٦٢) .
(٢) هو نجم الدين ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق ، صاحب ماردين (٥٤٧ — ٥٧٥) .
(٣) : الاضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٨٦) . (٤) بالأصل واقفه . (٥) بالأصل : بدى . (والتصحيح من ، الروضتين، ح/١/ص/١٣٣) . (٦) بالأصل : انه (والتصحيح من، الروضتين، ح/١/ص/١٣٣)
(٧) بالأصل : والمقطعين . (٨) بالأصل : لسق . (٩) الإضافة من ، الروضتين ، (ح/١/ص/١٣٣) . (١٠) بالأصل : القرآه . (والتصحيح من، الروضتين، ح/١/ص/١٣٣).
(١١) بالأصل : ويدعونى . (١٢) بالأصل : نلس . (١٣) بالأصل جوبآيه . (١٤) جيش الطواويس : فى الكامل (ح/٤/ص/٧٤ — ٧٥ ، حوادث سنة ٨٠) ، أن الحجاج بن يوسف الثقفى أرسل جيشا لقتال رتبيل — وفى رواية أخرى لقتال هميان بن عدى السدوسى — ثم أمد الحجاج الجيش « بالخيل الرائقة والسلاح الكامل » فسمى « جيش الطواويس لحسنه » . (١٥) بالأصل : وبيض .

وبلغ الخبر إلى الفرنج من بقى منهم بالساحل لم يسر(١) إلى مصر ، فجاءوا فى حدهم وحديدهم، وعدهم وعديدهم ، وقضهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا حتى أرباب الصوامع .ولم يشعروا أنهم رزق الذئاب والخوامع ، وأقبلوا(٢) إليه رجالا وعلى كل ضامر(٣) ، فى كل قرن مساور وبطل مهاصر ، قد ألف النزال ، واعتاد اقتناص الأبطال ، فهم لكثرتهم من كل حدب(٤) ينسلون ، فارتاع لكثرتهم المسلمون . وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين — وهو من مشاهير (١٣٩ — أ) الفرنج وأبطالها ، والدوك — وهو رئيس الروم ومقدمها — وجمعوا معهم من الراجل مالا يقع عليه الإحصاء ، قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ، فحرض نور الدين أصحابه ، وأطمع فيهم أحزابه ، وفرق نفائس الأموال ، على شجعان الرجال ، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح(٥) ، وهو إلى لقائهم قد ارتاح ، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه ، ويتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه ، فساروا حتى نزلوا على « عم(٦) » ، وهو على الحقيقة تصحيف مالقوه من الغم ، ثم تيقنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير ، وحلت إليهم كل وهن وضير ، فلما عادوا عن «عم» تبعهم نور الدين فى عساكر المسلمين ، وأبطال الموحدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا إصطفوا للقتال ، وتهيأوا للنزال ، وتدانت الخطى ، وكشف الغطا ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبددوا نظامهم ، وزلزلوا (١٣٩ — ب) أقدامهم ، وولوهم الأدبار ، وركنوا إلى الفرار [فتبعهم الفرنج(٧)] . وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعدوهم عن راجلهم ، فيميل عليهم من يبقى من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجأون إليه ، ولا وزرا يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون فى آثارهم ، يكسعون أدبارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فيعجل لهم بوارهم وحتفهم . وكان الأمر على مادبر ، والحال على ماقدر ، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين فى عسكر الموصل على راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت(٨) خيالتهم ولم يمعنوا(٩) فى الطلب خوفا على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين(١٠) ، وبدمائهم مضرجين(١١) ، فسقط فى(١٢)

---

(١) بالأصل: يسر . (٢) بالأصل: واقبلوا . (٣) بالأصل: ضام . (٤) بالأصل: حرب .

(٥) أرتاح : فى (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وتاء فوقها نقطتان وألف وحاء مهملة . إسم حصن منيع كان من العواصم ، من أعمال حلب . (٦) عم : فى (ياقوت) : بكسر أوله وتشديد ثانيه . ولا أراها إلا أعجمية لا أصل لها فى العربية . وهى قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية ، بين حلب وأنطاكية ، وكل من بها اليوم (فى زمن ياقوت) نصارى . (٧) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٨٦) .

(٨) بالأصل: وعاد (٩) بالأصل : يعنموا . (١٠) بالأصل: معرفين .

(١١) بالأصل: مصرخين . (١٢) بالأصل : ما فى . (وقد أسقط المحقق ، اللفظ : ما ، لأنه زائد) .

أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون أعنتهم ، وعاودوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقى العدو (١٤٠ — أ) فى الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمى الوطيس ، وباشر الحرب المرءوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من أيس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم اللزام ، وبطل العامل(١) وعمل الحسام ، وانقضت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصقور على إناث الطيور ، فمزقوهم بددا ، وجعلوهم طرائق قددا ، وألقى الفرنج بأيديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، فأكثر المسلمون فيهم القتل ، وأوردوهم(٢) مناهل الفناء والهلاك ، فزادت عدة(٣) القتلى على عشرة ألف وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلا على كثرتهم ، أن ملوكهم أسروا ، مثل : البرنس بيمند صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها فى الحادى والعشرين من رمضان .

وأشار أصحابه عليه(٤) بالمسير إلى أنطاكية ليملكها لخلوها(٥) ممن يحميها ويدفع عنها ، (١٤٠ — ب) فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التى لها فهى منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه ، ومجاورة بيمند أحب إلى من جوار ملك الروم . وبث(٦) سراياه فى تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا لاذقية ، وسويدا(٧) وغير ذلك وعادوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم .

فى ذكر خبر الوقعة(٨) التى(٩) جرت فى حرب قلعة حارم(١٠)

قال صاحب التاريخ . وحكى أن السلطان نور الدين الشهيد — رحمه الله — لما كسرت ميسرة عسكره(١١) ، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول : يا إلهى وسيدى ومولاى ،

---

(١) العامل : عامل الرمح ، ما يلى السنان وهو دون الثعلب . (٢) بالاصل : واوردهم . (٣) بالأصل : فزادة عدده .

(٤) بالأصل : اليه . (٥) بالأصل : لخلوها . (٦) بالأصل : ووثب . (٧) لعل ابن الأثير يقصد « السويدة » وهى حصن وميناء لأنطاكية (السلوك ، ح/١/ص/٥٦٧/حاشية/١) التى تقع شمال اللاذقية . أما سويدا — أو — السويداء ، اسم لمكانين ، أحدهما بلدة قرب حران والآخر ، قرية بحوران من نواحى دمشق . وهما كما ترى ، بعيدان عن مكان المعركة . (٨) بالاصل : وقعت (٩) بالأصل : الذى . (١٠) بالأصل : قلعة الروم . وهذا وهم من ابن الأثير أو خطأ من الناسخ ، ويثبت هذا الوهم أو الخطأ سياق الخبر نفسه . وقلعة الروم (كما فى ياقوت) تقع غربى الفرات فى شماله بين ألبيرة وسميساط . (١١) يدل هذا الخبر على أن ابن الأثير لم يعطنا تفاصيل حرب حارم كاملة ، لا فى نصنا هذا ولا فى الكامل ، إذ لم يرد فى حرب حارم خبر هزيمة ميسرة جيش نور الدين ، وإنما ورد خبر هزيمة ميمنة الجيش التى كان متفقاً عليها ، كما فى النص .

من محمود عبدك ابن زنكى بن آقسنقر حتى لا تخذله ، إن تنصره تنصر دينك الذى أظهرته(١) لنبيك الذى أرسلته ، استجب دعائى ، وأحسن منقلبي ومثوائى (١٤١ — أ) ولا تشمت [بى] أعدائى ، ولم يزل متضرعا باكيا(٢) ، ويقلب وجهه على التراب ودموعه تجرى على خديه ، إلى أن بلغه الله مراده من خذلانهم ونصره عليهم .

ومن عجائب(٣) الإتفاق ، ماحكاه كمال الدين بن العديم فى كتاب «أخبار حلب» ، أن الزكى أحمد ابن مسعود الموصلى المقرى أخبرنى ، قال : كنت ألم بعلم الدين سليمان بن الجندار ، قال : فاتفق أن خرجت معه إلى حرب حارم فى سنة تسع(٤) وخمسين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية — داية الشهيد رحمه الله — وصلاح الدين يوسف بن أيوب تحت هذه الشجرة نتحدث ، ونور الدين الشهيد يحاصر حارم وهى فى أيدى الفرنج ، فقال مجد الدين : أتمنى أن يفتح نور الدين حارم(٥) ويعطينى إياها نيابة . فقال صلاح الدين يوسف : أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطينى إياها . ثم قال : تمن أنت أيضا بما تريد ، قلت : يامولاى ، إذا كنت أنت صاحب مصر ومجد الدين (١٤١ — ب) صاحب حارم ، ما أصنع(٦) بينكما . فقالا : لابد أن تتمنى شيئا ، فقلت : إذا كان ولابد من ذلك ، فأتمنى « عم » ، [وبينما] نحن(٧) فى الكلام — والله تعالى قاض(٨) بما أراد فى حكمه — فقدر الله عز وجل ، أن نور الدين كسر الإفرنج وفتح حارم ، وأعطاها مجد الدين بن الداية ، وأعطانى قلعة « عم » ، وقدر الله ، أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى ، أسد الدين شيركوه إلى مصر وفتح مصر على يده ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على مانذكر إن شاء الله تعالى الرحمن فى وقته ، وتملك مصر ، والشام ، والشرق(٩) والكرك ، واليمن ، وبلاد الشرق وعارض الملوك والسلاطين ، وحاصر القلاع ، وفتح البلاد ، وجند الأجناد ، وهذه الجراكسة التى(١٠) هى اليوم ملوك مصر والشام وحامى(١١) الحرمين الشريفين ، مماليك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبى المعالى(١٢) ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر(١٣) بن أيوب ، أبو الملوك الأيوبية .

---

(١) بالاصل : ظهرته

(٢) بالأصل : باليا . (٣) بالأصل : العجايب . (٤) بالأصل : سبعة ، وهذا تحريف من الناسخ والنص يؤكد تصحيحنا . (٥) بالأصل : لحارم . (٦) بالأصل : لا اصنع . (٧) بالأصل : ونحنوا .

(٨) بالأصل : قاضى . (٩) لعل صحة اللفظ : الشوبك . لأن فى النص أنه ملك « بلاد الشرق » ، أى الجزيرة . (١٠) بالأصل : الذى . (١١) بالأصل : حاميين . (١٢) بالأصل : أبو المعالى .

(١٣) بالأصل : أبا بكر .

وفاة جمال الدين الوزير (١٤٢ — أ)

فى شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفى الوزير جمال الدين(١) محبوسا . وكان له نحو سنة مذ مرض فمضى لسبيله .

[وكان] عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ؛ عديم النظير(٢) فى سعة نفسه . لم يرو فى كتب الأولين ، أن أحدا من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقد كان عظيم الفتوة ، كامل المروة ، وسيرد من أخباره ماتعلم [منها] صحة قولى .

حكى لى جماعة عن الشيخ أبى القاسم — وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمة جمال الدين فى محبسه — قال : لم يزل جمال الدين مشغولا بأمور آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن أنقل من الدست(٣) إلى القبر . قال : فلما مرض ، قال لى بعض الأيام : ياأبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفنى . قال : فقلت فى نفسى ، قد اختلط عقله ، فلما كان الغد، أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط . فقلت له: جاء الطائر ،فاستبشر ثم قال: جاء الحق (١٤٢ — ب) وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفى . فلما توفى طار ذلك الطائر ،قال: فعلمت أنه رأى شيئا فى معناه. ودفن بالموصل نحو سنة. وكان قد قال للشيخ أبى القاسم : إن بينى وبين أسد الدين شيركوه عهدا ، من مات منا قبل صاحبه حمله الحى إلى المدينة [النبوية] على ساكنها السلام ، فدفنه بها فى التربة التى عملها ، فإذا أنامت فامض إليه وذكره(٤) . فلما توفى سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين فى المعنى ، فأعطاه مالا صالحا ليحمله به إلى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدى تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون فى الطريق ، وينادون فى البلاد للصلاة عليه ، ففعلوا ذلك . فكان يصلى عليه فى كل مدينة خلق كثير . فلما كان « بالحلة » ، اجتمع الناس للصلاة عليه ،وإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ، ونادى بأعلى صوته ملعلعا يقول :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونايله(٥)
يمـــر على الوادى فتثنى رماله عليه وبالنادى(٦) فتبكى (٧) أرامله

(١٤٣ — أ) فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم . ثم وصلوا به إلى مكة ، وطافوا به حول

---

(١) هو محمد بن على بن منصور الأصفهانى . (٢) بالاصل : النظر . (٣) الدمت : الوزارة .
(٤) بالأصل : واذكره . (٥) عن الروضتين (ح/١/ص/١٣٧) وبالأصل : فضائله .
(٦) بالأصل : وينادى (والتصحيح من، الروضتين ، ح/١/ص/١٣٧). (٧) عن الروضتين(ح/١/ص/١٣٧) وبالأصل : فيثنى . (وقد فضل المحقق ما فى الروضتين ، فقد نقل أبو شامة الخبر والشعر من ابن الاثير ،

الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم(١) وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضاً . ودفنوه بالرباط الذى أنشأه بها ، بينه وبين قبر النبى ، نحو خمسة عشر ذراعاً .

فى ذكره شىء من أخبـاره رحمه الله

كان رحمه‌الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال ، رحيما بالناس متعطفاً عليهم ، عادلا فيهم . فمن أعماله الحسنة ، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالا جزيلة عظيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة ، ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبنى غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة(٢) ، فكل مافيها من ذلك ، فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك ، أرسل إلى الإمام المقتفى لأمر الله هدية جليلة حتى أذن له فيه ؛ وأرسل إلى أمير مكة ، عيسى بن أبى هاشم ، خلعا سنية وهدية كثيرة حتى مكنه [منه] .

وعمر أيضاً المسجد الذى (١٤٣ — ب) على جبل (٣) عرفات ، وعمل الدرج التى يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة فى صعودهم .

وعمل بعرفات [أيضاً] مصانع للماء ، وأجرى الماء إليها من نعمان(٤) فى طرق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالا كثيراً . وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا [كثيراً(٥)] ليتركوا(٦) الماء يجرى إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

ومن أعظم الأعمال التى عملها نفعا ، أنه بنى سوراً على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور تنهبها الأعراب ، وكان أهلها فى ضنك وضر معهم ، رأيت بالمدينة إنسانا يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا فى ضر وضيق، ونكد عيش مع العرب ، لايتركون لأحدنا مايوارى عورته ، ولا مايشبع جوعته ، فبنى علينا سوراً إحتمينابه ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا(٧) فكيف لاندعو(٨) له (١٤٤ — أ) وكان الخطيب بالمدينة يقول فى خطبته : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن على بن أبى منصور . فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها .

---

(١) بالأصل : الجرم . (٢) النقرة : الفضة . (المعجم فى اللغة الفارسية) . (٣) بالأصل : الجبل . (٤) نعمان : فى (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وآخره نون . واد بين مكة والطائف . (٥) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٣٧) . (٦) بالأصل : ليتركوه . (٧) بالأصل : فاستغنيا . (والتصحيح من الروضتين ، حـ/١/ص/١٣٧) . (٨) بالأصل : تدعوا .

وسمعت عن متولى ديوان صدقاته التى يخرجها على [باب(١)] داره للفقراء سوى الإدرارات والتعهدات ، قال : كان له كل يوم مائة دينار يتصدق بها على باب داره .

ومن أبنيته(٢) العجيبة التى لم ير الناس مثلها ، الجسر الذى بناه على الدجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ، إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه . وبنى أيضاً جسراً على نهر الأريار عند الجزيرة أيضاً .

وبنى الربط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها . وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أن الذى احتاج إليه [مثل] ابن الخجندى(٣) رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان ، وابن الكافى قاضى [قضاة(٤)] همذان وقصداه(٥) ، فأخرج عليهما(٦) مالا جزيلا ، وكذلك غيرهما(٧) من الصدور ، والعلماء ، ومشايخ الصوفية .

وصارت الموصل فى أيامه (١٤٤ — ب) مقصداً وملجأ . وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال فى الصدقات ، فكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق . حكى لى والدى قال : كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندزاً ليعمل على وبر له ليلبسه بخمسة دنانير ، فقال : هذا كثير ، اشتروا لى قندزا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير . قال : فراجعناه غير مرة فلم يقبل . وحكى لى من أثق إليه من العدول بالموصل : إن الأقوات تعذرت فى بعض السنين بها وغلت الأسعار ، وكان بالموصل رجل(٨) من الصالحين ، يقال له الشيخ عمر الملاء ، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا ، وقال له : تخرج هذا المال على مستحقه ، وكلما فرغ إرسل إلى لأنفذ(٩) غيره فلم تمض إلا أيام يسيرة ، حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين ، فأرسل إليه يعرفه بنفاد ذلك المال ، فأنفذ له شيئاً آخر ففنى ، ثم أرسل يطلب مايخرجه ، فقال جمال الدين للرسول : والله ماعندى شىء ، ولكن خذ هذه المحافر [التى فى دارى(١٠)] وتصدقوا بثمنها [إلى أن يأتينى شىء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر، فبيعت وتصدقوا بثمنها(١١)] وعرفوه ذلك ، فلم يكن (١٤٥ — أ) عنده مايرسله ، فأعطاه ثيابه التى كان يلبسها مع العمامة التى على رأسه وأرسل الجميع ، وقال للرسول: قل للشيخ : لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة ، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر ، بكى وباعها وتصدق بثمنها . وحكى لى بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائى شيخ الشيوخ بالموصل ، قال : أحضرنى الشيخ وقال لى : إنطلق إلى مسجد الوزير(١٢) — وهو بظاهر

---

(١) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٣٨) . (٢) بالأصل : ابنيه .

(٣) هو صدر الدين أبو بكر بن عبد اللطيف الخجندى توفى سنة ٥٥٢ (شذرات الذهب ، حـ/٥/ص/١٦٣)

(٤) الإضافة من الروضتين (حـ/١/ص/١٣٨) (٥) بالأصل : قصداه . (٦) بالأصل : عليهم .

(٧) بالأصل : غيره . (٨) بالأصل : رجلى . (٩) بالأصل : لاينفد (١٠) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٣٨) (١١) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٣٨)

(١٢) بالأصل : وزير (والتصحيح من الروضتين ، حـ/١/ص/١٣٨) .

الموصل — واقعدهناك ، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافى والخام ، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ، ومعها قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير(١) من الجمال ، فقال لى : تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربى توصل [إليه] هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربى توصل إليه هذه الرزمة وهذا (١٤٥ — ب) الكتاب(٢) ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام ، توصل إلى وكيلى فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذى(٣) عليها اسم المدينة ليخرجها بمقتضى مافى هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقى الذى عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيلى بها على مافى هذه الجريدة الأخرى .

قال : فسرنا كذلك إلى وادى القرى ، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصرى — والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادى — فلما رأوا الطعام والمال ، اشتروا كل سبعة أصوع بدينار ، فضج أهل المدينة بالدعاء له . ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ماأمرنا (١٤٦ — أ) وحكى لى والدى ، قال : رأيت جمال الدين بالرقة ، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً وطلب شيئاً ، وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن أبواب الكلاب ، وكرر ذلك غير مرة ، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين ، ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت وهى ظاهرة لاتحتاج إلى بيان ، فلهذا تركنا أكثرها .

ذكر فتح قلعة بانياس (٤)

فى سنة ستين وخمسمائة (٥) فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقى من الفرنج همهم حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين مجدا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين (٦) عنها ، ونازلها وضيق عليها وقاتلها . وكان فى جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران (١٤٦ — ب) فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نور الدين قال له : لو

---

(١) بالأصل : كثيرة .

(٢) وردت بعض المراحل من « الرحبة » إلى « المدينة » مكررة بالأصل ، وقد اعتمد المحقق فى ضبطها على أبى شامة (الروضتين ، ح/١/ص/١٣٨) ، حيث نقل الخبر من « النص » .

(٣) بالأصل : التى .

(٤) بالأصل : باياس .

(٥) فى ، الكامل (ح/٩/ص/٨٧) أن فتح بانياس كان فى ذى الحجة سنة ٥٥٩ .

(٦) بالأصل : للمانيين .

كشف لك عن الأجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ، وجد فى حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها ، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم ، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا .

وعاد نور الدين إلى دمشق ، وفى يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده فى شعراء (١) بانياس - وهى كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان - فلما أبعد من المكان الذى ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه فى طلبه ودلهم على مكانه ، وقال : أظن أنه هناك ضاع ، فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، أظنه ابن منير من أبيات يمدحه ويهنئه بهذه (٢) الغزاة وعود الجبل الياقوت . شعر (٣) :

إن تمتر الشكاك فيك بأنك المـ	ـهدى مطفى جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذى أضللته	بالأمس بين غياطل وجبال
(١٤٧ - أ) مسترجعا لك بالسعادة آية (٤)	ردت مطال الفال غير مطال
لم يعطها إلا سليمان وقد	نلت الرباء بموشك الاعجال
زجر جرى لسرير ملكك إنه	كسريره عن كل حد عال
فلو البحار السبعة استهوينه	وأمرتهن قذفنه فى الحال

ولما فتح الحصن ، كان ولد معين الدين أنر - الذى سلم بانياس إلى الفرنج - قائما على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان . فقال : كيف ذلك . قال : لأن اليوم برد الله جلدة والدك من نار جهنم .

ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

فى سنة إحدى وستين وخمسمائة ، سار نور الدين إلى حصن المنيطرة (٥) - وهو أيضاً للفرنج - ولم يحشد له ولا جمع عساكره ، إنما سار [إليه] على غرة (٦) من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة (١٤٧ — ب) وحصرها ، وجد فى قتالها وأخذها عنوة وقهرا ، وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة لأمن من بها (٧) فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون . ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه . ولو علموا أنه جريدة (٨) لأسرعوا إليه ، إنما لم يظنوا إلا أنه فى جمع كثير . فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

---

(١) بالأصل : شعره . (والتصحيح من ، الكامل ٢ ح/٩/٨٧) . (٢) بالأصل : بهذاه .
(٣) بالأصل : يقول شعر (وقد اسقط المحقق ، اللفظ : يقول ، لأنه زائد) . (٤) بالأصل : أنه .
(٥) المنيطرة : فى (ياقوت) : حصن بالشام قريب من طرابلس . (٦) بالأصل : غيره .
(٧) بالأصل : به . (٨) الجريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها (محيط المحيط) .

ذكره عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

فى ربيع الآخر من سنة اثنتين وستين وخمسائة ، عاد أسد الدين وسار(١) إلى مصر . وكان بعد عوده من مصر ، لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها ، يتحدث به مع كل من يثق(٢) إليه . وكان مما يهيجه على العود ، زيادة حقده على شاور وما عمل معه . فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأمراء ، فجد فى السير على البر ، وترك بلاد الفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصد [إطفيح] (١٤٨ — أ) وعبر النيل(٣) عندها إلى الجانب الغربى ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف فى البلاد الغربية(٤) ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور لما بلغه مجىء أسد الدين ، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ، فأتوه على الصعب والذلول ، فتارة يحثهم طمعهم فى ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النورى ، فجدوا على الإسراع فى المسير ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربى ، وكان أسد الدين والعسكر النورى قد ساروا(٥) إلى الصعيد ، فبلغوا(٦) مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه ، فأدركوه به فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى(٧) ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة(٨) عددهم وعددهم وجدهم فى طلبه ، فعزم على لقائهم وقتالهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم،إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات فى (١٤٨ — ب) فى هذا المقام الخطر ، الذى عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا — وهو الذى لاشك فيه — فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمى(٩) ، وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا ، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس — قد بعدت ديارهم ونأى ناصرهم — أن ترتاع من [لقاء(١٠)] عشرات ألوف، مع أن كل أهل البلاد

---

(١) بالأصل : سار . وقد اختلف المؤرخون فى اليوم الذى سار فيه أسد الدين من دمشق إلى مصر . ففى الروضتين (ح/١/ص/١٤٢) أن مسيره كان فى تاسع ربيع الأول ، وفى مرآة الزمان (ح/٨/ص/٢٦٨) فى منتصف ربيع الأول ، وفى ابن شداد (ص/٣٠) فى ١٢ ربيع الأول . أما فى الكامل (ح/٩/ص/٩٥) فى شهر ربيع الآخر ، دون تحديد اليوم .

(٢) بالأصل : يبق .

(٣) بالأصل : « قصد أن يفتح وعبر النيل ... » دون ذكر اطفيح . (والتصحيح من الروضتين ج/١/ص/١٤٣) واطفيح ، كما فى (ياقوت) ، بالكسر فى أوله والفاء والياء ساكنة وحاء مهملة . بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء النيل فى شرقيه .

(٤) بالأصل : الغريبة .

(٥) بالأصل : سار .

(٦) بالأصل : فبلغ .

(٧) فى الكامل (ح/٩/ص/٩٧) جمادى الآخرة .

(٨) بالأصل : بكثر .

(٩) بالأصل : يحتمى .

(١٠) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٤٣) .

عدو لهم . فلما قالوا ذلك،قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش — وكان من الشجاعة بالمكان المشهور ـ وقال : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحا أو فى بيته مع النساء ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر تعذرون فيه ليأخذن إقطاعكم ، وليعوذن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مذ خدمتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون (١٤٩ — أ) أموال المسلمين وتفرون(١) عن عدوهم ، وتسلمون مثل الديار المصرية تتصرف فيها الكفار . فقال أسد الدين : هذا رأيي وبه أعمل ، ووافقهما صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، ثم كثر الموافقون لهم على القتال . فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ، وقد جعل الأثقال فى القلب يتكثر بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فتنهبها أهل البلاد . ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه فى القلب ، وقال له ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أننى فى القلب ، فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فإذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم فى الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان ، فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب، ظنا منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا (١٤٩ — ب) وانهزموا بين أيديهم فتبعوهم ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين(٢) حملوا [على القلب(٣)] — من المسلمين والفرنج — فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن فيهم الجراح، وأكثر القتل والأسر وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا فى القلب ، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس بها منهم ديار، فانهزموا أيضا. وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفى(٤) فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

ذكره ملك أسد الدين ثغر الإسكندرية(٥)

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر الإسكندرية ، وجبى(٦) ما فى طريقه من(٧) القرايا والسواد من الأموال ، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها بغير قتال ، سلمها أهلها إليه . فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبى أمواله ، وأقام به حتى صار شهر رمضان .

---

(١) بالأصل : وتفرقون . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/١٤٣) (٢) بالأصل : عن الفرنج الذين ... (وقد أسقط المحقق لفظ : الفرنج ، لأنه زائد) . (٣) الإضافة ، من الروضتين (ح/١/ص/١٤٣) .
(٤) بالأصل : ألف . (والتصحيح من النص نفسه ص/١٣٢) . (٥) بالأصل : ذكره ملك الشهيد رحمه الله ذكره ملكه ثغره الاسكندرية . (والتصحيح والترتيب من الكامل ح/٩/ص/٩٥) .
(٦) بالأصل : وجى . (٧) بالأصل : فى .

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا وحشدوا وساروا إلى (١٥٠ — أ) الإسكندرية — وبها صلاح الدين — فى عسكر يمنعونها منهم ، فقد أعانهم أهلها خوفا من الفرنج . فاشتد الحصار ، وقل الطعام بالبلد ، فصبر أهله على ذلك .

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم (١) — وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان — ووصلته رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ، فأجابهم إلى (٢) ذلك . وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام ، فوصل دمشق ثامن عشر ذى القعدة (٣) ، وتسلم المصريون الإسكندرية فى النصف من شوال .

وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل نور الدين من إنفاذ (٤) عسكر إليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار . هذا جميعه يجرى بين الفرنج وشاور . وأما العاضد صاحب مصر (١٥٠ — ب) فليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم بشيء من ذلك ، قد حكم شاور عليه وحجبه .

وعاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل الملك العادل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمى — وهو من أكابر أمرائه ، وخال صلاح الدين يوسف — ينهى محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته وبجمع كلمة الإسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا ، فبقى الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

عصيان غازى

فى هذه السنة عصى الأمير غازى بن حسان المنبجى [صاحب منبج] بها على نور الدين — وكان هو أقطعه إياها — فأرسل إليه نور الدين عسكرا حصروه بها وأخذها منه ، وأقطعها أخاه

---

(١) بالأصل : نحواهم (٢) بالأصل : على .
(٣) بالأصل : ذى الحجة القعدة . (والتصحيح من : الروضتين ، ح/١/ص/١٤٣) .
(٤) بالأصل : انقاد .

قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيراً حسن السيرة ، فبقى بها إلى أن أخذها صلاح الدين (١٥١ — أ) منه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية

فخر الدين عبد المسيح قلعة الموصل

فى سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، سار زين الدين على بن بكتكين ، نائب أتابك قطب الدين عن الموصل ، إلى إربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجار، وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها . وكان نائبه بتكريت الأمير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت ، ولا بد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلى ، فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد . وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان ، فقال مثله أيضا ، فأقرت بيده ، وكان فى طاعة أتابك قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين ، أنه أصابه عمى وصمم ، وأقام بإربل إلى أن توفى بها من سنته وكان قد استولى عليه الهرم ، وضعفت قوته . وكان خيرا عادلا، حسن السيرة، جوادا (١٥١ — ب) محافظا على حسن العهد وأداء الأمانة ، قليل الغدر بل عديمه . وكان إذا وعد بشيء لا بد له من أن يفعله وإن كان فعله خطيرا ، وكان حاله من أعجب الأحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغنى أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ، فأخذ ذلك الذنب أيضا غيره من الأجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابة ، فأمر له بفرس ، فتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا ، فلما أحضره آخرهم ، قال له : أما تستحيون منى كما أستحى منكم ، قد أحضر هذا الذنب عندى إثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم ، أتظنون أننى لا أعرفه ، بلى والله ، إنما أردت أن يصلكم عطائى بغير منّ ولا تكدير ، فلم تتركونى ، وأمر له بفرس آخر ، كما قال بعضهم فى شأنه :

ليس الغبى بسيد (١) فى قومه ‏ ‏ ‏ ‏ لكن سيد قومه المتغابى

(١٥٢ — أ) وكان يعطى كثيرا ويخلع عظيما ، وكان له البلاد الكثيرة فلم يخلف شيئا ، بل أنفذه (٢) جميعه فى العطاء والإنعام على الناس ، فكان يلبس الغليظ ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندى إليه من سكين ، ودرفش (٣) ، ومطرقة ، ومسلة ، وخيوط ، ودسترك (٤)

---

(١) بالأصل : بسد . ‏ ‏ ‏ ‏ (٢) بالأصل : انفد . (والتصحيح من ، الروضتين ح/١/ص/١٥٢) .

(٣) درفش : لفظ فارسى له أكثر من معنى ، منها : مخراز ، وهو المعنى المقصود هنا . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

(٤) دسترك : لفظ فارسى ، معناه ، منشار صغير . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

وغير ذلك . وكان من أشجع الناس ، ميمون (١) النقيبة (٢) لم تهزم له راية . وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسمر اللون ، خفيف العارضين ، قصيرا جدا . وبنى مدارس وربطا بالموصل وغيرها . بلغنى أنه مدحه الحيص بيص (٣) ، فلما أراد الإنشاد قال له : أنا لا أدرى ما تقول ، لكننى أعلم أنك تريد شيئا ، وأمر له بخمسمائة دينار [وأعطاه](٤) فرسا وخلعا وثيابا ، يكون مجموع ذلك نحو ألف دينار . ومكارمه كثيرة نقتصر على بعضها .

ولما توفى كان الحاكم بإربل خادمه مجاهد الدين قايماز والمتولى لأمورها . وولى بعد زين الدين ولده الملك المعظم مظفر الدين كوكبورى مدة ، ثم فارقها لخلف كان بينه (١٥٢ — ب) وبين مجاهد الدين ، وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل ، إستناب أتابك قطب الدين بالقلعة بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طريق زين الدين ، فكرهه الناس وذموه ، فلم تطل أيامه . وسيجىء ذكر عزله سنة ست وستين وخمسمائة إن شاء الله تعالى .

ملك نور الدين

قلعة جعبر من صاحبها وكيف [ملكها]

فى أول سنة أربع وستين وخمسمائة ، ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن على بن مالك(٥) العقيلى ، فكانت بيده ويد آبائه [من] قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك . وهى من أمنع الحصون وأحسنها ، مطلة على الفرات ، لا يطمع فيها بحصار .

وأما سبب ملكها ، فإن صاحبها نزل منها يتصيد ، فأخذه بنو(٦) كلب أسيرا وحملوه إلى نور الدين فى رجب سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فاعتقله بحلب وأحسن إليه ، ورغبه فى الإقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل (١٥٣ — أ) أيضا ، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبى على بن الزعفرانى فحصروها مدة فلم يظفروا منها بشىء ، فأمدهم بعسكر(٧) جرار ، وجعل على الجميع الأمير

---

(١) بالأصل مقيمون . (٢) بالأصل : النقية . (٣) بالأصل : الحيض بيض . وهو الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد بن صيفى ، توفى سنة ٥٧٤ ، ترجمته فى (شذرات الذهب ح/٤/ص/٢٤٧) ، ابن خلكان .

(٤) الإضافة من الروضتين (ح/١/ص/١٥٢) (٥) بالأصل : ملك .

(٦) بالأصل : بنوء . (٧) بالأصل : بعسكرا ،

مجدالدين أبا بكر المعروف بابن الداية — وهو رضيع نور الدين ، وهو واحد أمرائه — فحصرها أيضاً فلم ير(١) له فيها مطمعا ، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ(٢) العوض من نور الدين مدينة سروج وأعمالها والملاحة التى بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة ، وهذا إقطاع عظيم جداً لكنه لا حصن فيه . وتسلم نورالدين القلعة فى أول هذه السنة ، ولما أخذها نور الدين سلمها إلى مجد الدين بن الداية . وكان هذا آخر ملك بنى مالك(٣) ولكل أمر أمد ، ولكل ولاية نهاية ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . (١٥٣ — ب) بلغنى أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب إليك وأحسن مقاما ، سروج والشام [أم] القلعة . فقال : هذه أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقناه .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ثالثة وملكها

وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

فى ربيع الأول من سنة أربع وستين أيضا ، سار أسد الدين شيركوه فى العساكر النورية إلى ديار مصر وملكها واستولى عليها . وسبب ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بمصر ، وأنهم جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم ، وتحكموا تحكما كثيرا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا(٤) ، فنال المسلمين منهم أذى شديد ، وجور عظيم ، وقهر زائد ، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم ، وهو « مرّى » ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه لتملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأى والتقدم (١٥٤ — أ) وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأى عندى أننا لا نقصدها فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نورالدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة [أهل (٥)] بلاده وفلاحيها(٦) لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم(٧) الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم(٨) من أرض الشام فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حافظ ، وإلى أن يصل الخبر إلى نورالدين ويجهز العساكر ويسيرهم

---

(١) بالأصل : فلم يرى . (٢) بالأصل : ياخذا .

(٣) بالأصل : ملك . (٤) بالأصل : حايرا .

(٥) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٥٤) . (٦) بالأصل : وفلاحوها .

(٧) بالأصل : ويحملونها . (٨) بالأصل : فاخلاوهم .

إلينا ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها . وكانوا قدعرفوا البلاد ، وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة(١) مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين [بذلك] كاتب عساكره وأجناده وأمرهم بالقدوم عليه .

وجد الفرنج (١٥٤ — ب) فى السير إلى مصر فقدموها ، ونازلوا مدينة بلبيس وحصروها ، فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر . وكان جماعة من أعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة قد كاتبوا الفرنج .

وساروا من بلبيس إلى مصر ، فنزلوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه ، فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس لملكوا مصر والقاهرة ، لكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضى أمرا كان مفعولا . وكان شاور [قد] أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج ، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب ديار مصر إلى الملك العادل نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل فى الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائى (١٥٥ — أ) من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ، فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع فى تجهيز العساكر إلى مصر .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على من فيها ، وشاور هو متولى أمر البلد والعساكر والقتال ، فضاق به الأمر وضعف عن ردهم ، فأخذ إلى إعمال الحيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة ، وأن هواه معـــه لخوفه من نور الدين والعاضد ، وإنما المسلمون(٢) لا يوافقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين ، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض ، واستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم ، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين ، وقالوا : نأخذ المال نتقوى به ، ونستكثر من(٣) الرجال ونعود إلى البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين ولا غيره ، ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين(٤) ﴾ فعجل (١٥٥ — ب) لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريباً .

وعاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه مالقى المسلمون من الفرنج ، ويبذل له ثلث بلاد

---

(١) بالأصل : وخلاصه (٢) بالأصل : المسلمين . (٣) بالأصل : ومن .
(٤) سورة آل عمران : ٥٤ .

مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده فى عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذى لنور الدين .

وكان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد ، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص — وهى إقطاعه — فلما خرج القاصد من حلب لقى أسد الدين قد وصلها . وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته فى المعنى ، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله ، فعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة فى ذلك ، وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة وغير ذلك ، وحكمه فى العسكر والخزائن ، فاختار من العسكر ألفى فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركمان ستة ألف فارس وسار (١٥٦ — أ) هو ونور الدين إلى دمشق ، فوصلاها(١) سلخ صفر ، ورحلا فى جميع العساكر إلى رأس الماء ، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة له على طريقه ، غير محسوبة من القرار الذى له ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك ، منهم مملوكه عز الدين جرديك(٢) وعز الدين قليج ، وشرف الدين برغش(٣) ، وعين الدولة الياروقى ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وصلاح الدين يوسف ابن أيوب على كره منه ، ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم(٤)﴾ ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه . وسيرد ذكر ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه .

ثم إن أسد الدين شيركوه سار مجداً من رأس الماء منتصف ربيع الأول ، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفى حنين خائبين مما أملوا ، وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر ، وبلغ خبر عودهم (١٥٦ — ب) نور الدين فسره ذلك وأظهر الاستبشار ، وأمر بضرب البشائر فى سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق مبشراً به ، والحق بيده ، فإنه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها .

وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الآخر ودخلها ، واجتمع بالعاضد لدين الله ، فخلع(٥) عليه وعاد إلى خيامه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك ، لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ، ورأى هوى العاضد معهم من داخله ، فلم يتجاسر على إظهار ما فى نفسه فكتمه ، وهو يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذل

---

(١) بالأصل : فوصلها .

(٢) بالأصل : جوردك . (والتصحيح من ، الكامل ح/٩/ص/١٠٠) .

(٣) بالأصل : برعس . (والتصحيح من ، الكامل ح/٩/ص/١٠٠) .

(٤) سورة البقرة : ٢١٦ .

(٥) بالأصل : وخلع .

له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه، ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً(١)﴾ ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه إبنه الكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن (١٥٧ — أ) أسد الدين. فقال [له] أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد ويظهرون الفساد، فترك ما كان عزم عليه. فلما رأى العسكر [النوري(٢)] المطل من شاور، إتفق صلاح الدين بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم، فقالوا: إننا ليس لنا فى البلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكر ذلك، فاتفق أن بعض الأيام سار أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للإجتماع به، فلقيه صلاح الدين يوسف، وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العساكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين فى الزيارة، فقال: نمضي إليه، فسار وهما معه قليلا، ثم ساوروه(٣) وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه فأخذ أسيراً، ولم يمكنهم (١٥٧ — ب) قتله بغير أمر أسد الدين فسجنوه فى خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلا إتمام(٤) ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر فى الوقت إلى أسد الدين، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور فى يومه وهو السابع عشر من ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه(٥) على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه، وقصد(٦) أسد الدين قصر العاضد، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة — وهى التى كان فيها شاور — فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقر فى الأمر وغلب عليه، ولم يبق(٧) له منازع ولا مناوىء، وولى الأعمال من يثق إليه واستبد(٨) بالولاية، وأقطع البلاد العساكر التى قدمت معه إليها.

---

(١) سورة النساء: ١١٩ (٢) الإضافة من الروضتين (حـ/١/ص/١٥٧)

(٣) بالأصل: شاوروه. (٤) بالأصل: تمام. (٥) بالأصل: خاف. (والتصحيح من الروضتين حـ/١/ص/١٥٧).

(٦) بالأصل: وقصدوا. (٧) بالأصل: يثق. (٨) بالأصل: استد.

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب (١٥٨ — أ)

﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾(١) لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه ، وخلا وجهه ممن يخافه ، وصفت له دنياه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصى والدانى لاسيما الفرنج ، أتاه أمر الله الذى لامحيد عنه ولامفر منه ولايحتمى عليه ، ملك بكثرة رجال ولايمنع عنه المعاقل والمال، فمرض وتوفى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفى كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب بن شاذى ، قد سار معه على كره منه . حكى لى عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضى الله عنه مستصرخين ومستنجدين ، أحضرنى وأعلمنى الحال ، وقال : تمضى إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولى إليه ، يأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال : ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما فى هذا المعنى ، فقال له نور الدين: تجهز(٢) للمسير، فامتنع خوفا من غدرهم أولا (١٥٨ — ب) وعدم ماينفقه فى العساكر ثانيا ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولايبقى [لنا(٣)] معهم مقام بالشام [وغيره(٣)] قال: فالتفت إلىّ عمى أسد الدين ، وقال : تجهز يايوسف. [قال(٣)] : فكأنما ضرب قلبى بسكين ، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها ، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبدا ، فقال [عمى(٣)] لنور الدين : لابد من مسيره معى فترسم له ، فأمرنى نور الدين وأنا أستقيله ، فانقضى المجلس . ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال(٤) لى نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك ، فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه ، فأعطانى ماتجهزت به فكأنما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفى، أعطانى الله من ملكها مالا كنت أتوقعه . هكذا (٥) حكى لى عنه .

وأما كيفية ولايته، فإن (١٥٩ — أ) جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم: الأمير عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين خسرو بن تليل —

---

(١) سورة الأنعام : ٤٤ .

(٢) بالأصل : ليتجهز . (والتصحيح من ، الروضتين حـ/١/ص/١٥٥) .

(٣) الإضافات من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٥٥) .

(٤) بالأصل : وقال .

(٥) بالأصل : هذا .

وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل — ومنهم: سيف الدين علي بن أحمد الهكاري — وجده كان صاحب قلاع الهكارية —، ومنهم: شهاب الدين محمود الحارمي — وهو خال صلاح الدين —، وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين — وليس له عسكر ولا رجال — كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين (١) وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين(٢) (١٥٩ — ب) «أردت عمرا وأراد الله خارجة» فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزمه به وأخذ كارهاً، «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل»(٣)، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة، الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه. وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين. ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك، ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له. ثم عدل إلى قطب الدين(٤)، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي (١٦٠ — أ) وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا. وعدل إلى عين الدولة الياروقي — وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا(٥) — فلم تنفعه رقاه ولا نفذ(٦) فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبدا، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه، وقد فات الأمر ليقضي الله أمراً كان مفعولا. وثبت قدم صلاح الدين، ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره. وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلار(٧)، ويكتب

---

(١) بالأصل: الباقيين.

(٢) يختلف ابن أبي طي مع ابن الأثير في سبب تولية الخليفة العاضد، صلاح الدين بعد وفاة عمه. حيث يقول ابن أبي طي: «وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله وسداد رأيه، وشجاعته وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف، فسارع إلى تقليده الوزارة». (الروضتين ح/١/ص/١٧٣)

(٣) بالأصل: بالسلاسل. (والتصحيح من الروضتين ح/١/ص/١٦١).

(٤) لفظ: الدين، من اسم قطب الدين، ساقط بالأصل.

(٥) بالأصل: جميعا.

(٦) بالأصل: تفد.

(٧) الأسفهسلار: لفظ مركب من مقطعين، أسفه، وهو فارسي ومعناه «المقدم»، سلار، وهو تركي، ومعناه العسكر، ومعنى اللفظ، مقدم العسكر. (القلقشندي، ح/٦/ص/٧/٨).

علامته فى الكتب تعظيا أن يكتب إسمه ، وكان لايفرده فى كتاب : بل يكتب الأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا . واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل [لهم] الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه (١٦٠ — ب) فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه . وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم، شمس الدولة توران شاه بن أيوب — وهو أكبر من صلاح الدين — فلما أراد أن يسير ، قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم [فيها] مقامى، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى، فسر إليه وأشدد أزره وساعده على ماهو بصدده. فقال : أفعل معه من الخدمه والطاعة مايتصل بك [خبره] إن شاء الله تعالى . فكان معه كما قال.

(١٦١ — أ) ذكر حصر الإفرنج مدينة دمياط

فى سنة خمس وستين

فى سنة خمس وستين وخمسمائة ، فى أوائل صفر ، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا(١) ﴾ . فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر فى النيل(٢) ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن (١٦١ — ب) دمياط ملكها الإفرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون فى مخلفيه ومخلفى عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وصاروا(٣) من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضاً .

---

(١) سورة الأحزاب : ٢٥ .
(٢) بالأصل : الليل . (والتصحيح من ، الروضتين ج/١/ص/١٨٠)
(٣) بالأصل : وساروا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الفرنج فنهبها وأغار عليها [واستباحها] ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخرابها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء؛ وهذا موضع المثل: ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين. فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها. وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما، أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى، حكى لى عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلىّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرى، سوى الثياب وغيرها.

(١٦٢ – أ) ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفى هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فحصر حصن الكرك(١) فى رجب. وكان سبب حصره، أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر، وسير معه نور الدين عسكراً، واجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالا يعد، فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك ونزل عليه وحصره، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفرى، وفيليب بن الرفيق(٢) — وهما فارسا الفرنج فى وقتهما — فى المقدمة إليه، فرحل نور الدين نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلحق(٣) بهما باقى الفرنج، فكانا فى مائتى فارس وألف تركبلى(٤) ومعهم من الراجل عالم كثير، فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج، وقصد نور الدين الشام فى وسط بلادهم، ونهب ما كان على طريقه إلى أن وصل الشام، فنزل بعشترا(٥) (١٦٢ — ب) وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه. وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة بحلب وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل.

---

(١) حصن الكرك: فى (ياقوت). كرك. بفتح أوله وثانيه وكاف أخرى. كلمة عجمية. اسم لقلعة حصينة جداً فى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها، بين أيلة وبحر القلزم والبيت المقدس. وهى على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الربض.

(٢) بالأصل: قريب بن الدقيق (والتصحيح من «الرضتين» ح/١/ص/١٨٣).

(٣) بالأصل: يلتحق.

(٤) تركبلى: تعريب Turcopole جند فى خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك (أو عرب) وأمهاتهم يونان. (الاعتبار تحقيق فيليب حتى. ص/٥١/حاشية/٦٥).

(٥) عشترا: فى (ياقوت) بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح التاء المثناة من فوق. موضع بحوران من أعمال دمشق.

ذكر الزلزلة التي جرت بالشام

وما فعله نور الدين

وفى هـذه السنة أيضاً فى ثانى عشر شوال ، كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد من الشام ، ومصر ، وديار الجزيرة ، والموصل ، والعراق وغيرها . إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشيزر ، وبعرين (١)، وحلب وغيرها من البلاد ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم مايخرج عن الحد والإحصاء ، فلما أتاه هذا الخبر، سار إلى بعلبك ليعمر ماانهدم من أسوارها وقلعتها ، وكان لم يبلغه خبر غيرها . فلما وصل أتاه خبر باقى البلاد بخراب أسوارها وخلوها من أهلها ، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار الى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماه (١٦٣ — أ) ثم إلى بارين . وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين ، فإنها مع قربها منهم(٢) لم يبق من سورها شيء ألبته ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهارا . ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد ، فإنها كانت قد أتت عليها ، وبلغ الرعب بمن(٣) نجا كل مبلغ ، وكانوا لا يقدرون على أن يأووا إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة . وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلماشاهد ماصنعت الزلزلة بها وبأهلها، أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين(٤) ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها ، فأخرج من المال مالا يقدر قدره .

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا ، وهم أيضاً يخافون نور الدين على (١٦٣ — ب) بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده [من قصد الآخر(٥)] .

ذكره غزوة لسرية نورية(٦)

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازى بن أرتق صاحب قلعة ألبيرة ، قد سار فى عسكره — وهم مائتا فارس — إلى الخدمة النورية وهو بعشترا ، فلما وصل إلى [قرية] اللبوة — وهى من أعمال بعلبك — ركب متصيدا ، فصادف ثلاثمائة فارس للفرنج قد ساروا للإغارة

---

(١) بالأصل : معرين .
(٢) بالأصل : منه . (٣) بالأصل : ممن .
(٤) بالأصل : والبنائيين . (٥) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٨٦) . (٦) بالأصل : كسيره النورية . (والتصحيح من ، الكامل ، حـ/٩/ص/١٠٦) .

على بلاد(١) الإسلام ، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، واشتد(٢) القتال ، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون ، فإن ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج ، وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج وعمهم القتل والأسر ، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به . قال(٣) تعالى : ﴿ ولو تواعدتم لا ختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا(٤) ﴾ . ثم إن شهاب الدين سار بالأسرى ورءوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو والعساكر إلى لقائه ، واستعرض الأسرى ورءوس القتلى ، فرأى فيها رأس (١٦٤ — أ) مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد ، وكانت الإفرنج تعظمه لشجاعته ودينه ، ولأنه شجا(٥) فى حلوق المسلمين ، وكذلك رأى رأس غيره من مشهورى الفرنج فازداد سروره ، ﴿ وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين(٦) ﴾ .

فى ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكى

ابن آقسنقر رضى الله عنه وملك ابنه سيف الدين

فى شوال من سنة خمس وستين وخمسمائة ، توفى أتابك قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد زنكى بن آق سنقر رضى الله عنه بالموصل . وكان مرضه حمى حادة . ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى — وهو أكبر أولاده [وأعزهم عليه وأحبهم إليه(٧)] — ، وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لأنه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته [وكان عزيزه وحبيبه(٧)] ، وكان نور الدين يبغض فخر الدين لظلم كان فيه ويذمه ، ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور ، فخاف فخر الدين أن (١٦٤ — ب) يتصرف عماد الدين فى أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش — زوجة قطب الدين — [فردوه(٧)] عن هذا الرأى . فلما كان الغد أحضر الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازى وتوفى [قطب الدين] وقد جاوز عمره أربعين سنة . وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون ، واسع الجبهة ، جهورى الصوت ،وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة(٨) أشهر ونصفاً(٩) .

ولما توفى استقر سيف الدين فى الملك ، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً(١٠) وكان فخر الدين هو الذى يدبر أمور سيف الدين ويحكم فى مملكته ،وليس لسيف الدين من الأمر إلا إسمه ، فإنه كان فى عنفوان شبابه وغرة حداثته .

---

(١) بالأصل : البلاد . (٢) بالأصل : أشد (٣) بالأصل : قوله . (٤) سورة : الأنفال : ٤٢ .
(٥) بالأصل : شجى . (٦) سورة البقرة : ٢٤٩ . (٧) الإضافات من الروضتين (ح/١/ص/١٨٦).
(٨) بالأصل : وخمس . (٩) بالأصل : ونصف . (١٠) بالأصل : مستنصرا . (والتصحيح من ، الروضتين ح/١/ص/١٨٦) .

حادثة تحث على العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر ، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة ، يفصل بينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب(١) من الأرض التى قد زرعت شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها(٢) (١٦٥ — أ) مطلق منهما ، فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين . فحكى لى والدى قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة — وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم إلى فيه على ما شوهد — يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة . قال : فشق ذلك على لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولى بهم أنس ، وهم فقراء . قال : فراجعته ، وقلت له : لا تظن أنى أقول هذا لأجل ملكى ، لا والله ، إنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكى جميعه . قال : فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ، ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدى بك غيرك ، ونحن نطلق لك ما يكون عليه . قال : فاظهرنا الأمر ، وشرع النواب يمسحون . وكان بالعقيمة رجلان صالحان وبينى وبينهما مودة ، إسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، قال : فحضرا عندى وتضررا من هذه الحال ، وسألانى المكاتبة فى المعنى ، فأظهرت لهما كتاب فخر الدين جواباً عن كتابى ، فشكرانى (١٦٥ — ب) ثم قالا : وأيضاً تعود تراجعه . فعاودت القول ، فأصر على المساحة فعرفتهما الحال . قال : فلما مضى عدة أيام(٣) ، عدت يوماً إلى دارى راكباً ، وإذا هما قد صادفانى على الباب ، فقلت فى نفسى : عجباً لهذين الشيخين ، قد رأيا مراجعتى وهما يطلبان منى ما لا أقدر عليه . قال : فسلمت عليهما وسلما على ، وقلت لهما : والله إنى أستحى منكما كلما جئتما فى هذا الأمر ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . قال : فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل إلى من يشفع لهما ، فدخلت دارى وأدخلتهما معى ، وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذى سعى لهما ، فقالا : إن رجلا من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا فقال : قد قضيت(٤) حاجة أهل العقيمة جميعهم . قال : فوقع عندى من هذا فكر ، تارة أصدقهما لما أعلم من صلاحهما ، وتارة أعجب من سلامة صدريهما ،

---

(١) الجريب هنا مقياس الأرض ، ومقداره عشر قصبات فى عشر قصبات ، على أنه قد يختلف بإختلاف المكان والزمان . والجريب فى الأصل ، مكيال ، وسعته ما يكفى من الحب لبذر مساحة معينة . ومن هنا سميت تلك المساحة باسم الجريب . (ابن واصل ح/١/ص/١٨٩/ حاشية/٢) . وفى كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ، أن الجريب أشل فى أشل (الأشل ستون ذراعا) ومعناه ستون ذراعا طولا فى مثلها عرضا ، فيكون تكسيرها ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة . (نقلا عن المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، سنة ١٩٥٨ ، ص/٢٣٧) .

(٢) بالأصل : وبعضهما .

(٣) تكرار بالأصل ، هكذا : عدت أيام .

(٤) بالأصل : قضت .

كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعاً لا شك فيه . قال : فلما كان بعد أيام (١٦٦ — أ) وإذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة ، وإطلاق كل مسجون ، وبالصدقة . فسألنا القاصد عن السبب ، فقال : إن أتابك شديد المرض . قال : فأفكرت فى قولهما وتعجبت منه ، ثم توفى بعد يومين من هذا . ورأيت والدى إذا رأى أحد الرجلين يبالغ فى إكرامه ويحترمه ويقضى أشغاله ، واتخذهما أصدقاء .

فصل فى ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين

رضى الله عنه

كان رحمه الله ورضى عنه من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسنا إليهم كثير الإنعام عليهم ، محبوبا إلى صغيرهم وكبيرهم ، عطوفا على مأمورهم وأميرهم ، حليما عن المذنبين منهم ، قليل المؤاخذة لهم على زللهم ، كريم الأخلاق حسن الصحبة لهم ، فكأن القائل أراده بقوله(١) :

خلق كماء المزن طيب مذاقه والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع عمن جنى والسيف غير حليم
(١٦٦ — ب) كالغيث إلا أن وابل جوده أبداً وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة والدهر قاسى القلب غير رحيم

وكان رضى الله عنه سريع الانفعال للخير ، بطيئاً عن الشر . حدثنى والدى قال : إستدعانى يوما وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها له ، فلما حضرت عندة قال لى : بلغنى أنك تهمل هذه هذه الجنايات(٢) ولا تحفظها ، فقلت له : إنى أعجز عن حفظها لأنى أكون فى بيتى والدزدار يفعل فى القلعة ما يريد ، ثم التفاوت ليس بعظيم وأخاف من الاستقصاء فيها ، لو دعى على بعض هؤلاء الملوك — وأومأت إلى أولاده — لكانت شعرة منه تساوى الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العمارة [لو عمرت(٣)] يتحصل منها أضعاف هذا(٤) . فقال لى : جزاك الله خيراً ، فلقد نصحت وأديت الأمانة ، واشرع فى عمارة هذه الأماكن التى تحتمل العمارة . قال : ففعلت وكبرت منزلتى عنده ، ولم يزل يثنى على(٥) .

---

(١) بالأصل : بقوله يقول . (وقد أسقط المحقق اللفظ : يقول ، لأنه زائد) .

(٢) الجنايات : جمع جناية ، ومعناها فى الإصطلاح التاريخى ما يفرضه السلطان من الضرائب والغرامات التأديبية على رعيته . (السلوك ، حـ/١/ص/٤٨٨/حاشية /١/) .

(٣) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٧٨)

(٤) لم يستطع المحقق فهم هذا الخبر بحذافيره . والمفهوم بجمل من الخبر أنه يتعلق بأولاد قطب الدين . وقد ورد فى الروضتين (حـ/١/ص/١٨٧) بنفس الغموض الموجود هنا فى النص .

(٥) بالأصل : عايه . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/١٨٧) .

قال : وكان(١) السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه ، لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين (١٦٧ - أ) وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه .

وكان حسن الإتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله ، حضر معه المصاف بحارم وفتحها ، وفتح بانياس ، وكان يخطب له فى بلاده باختياره من غير خوف .

وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعا من غير طلب منهم ولا تعريض . حكى لى والدى قال : دخلت إليه مرة ، فسألنى عن ما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره . ثم سألنى(٢) عن القرايا التى خاصه ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها ، فقلت له : أنا أفعل ذلك بنفسى ، فقال: وما الذى قرر لك عليها فى مقابل تعبك . فقلت : لى من إنعام مولانا مالا حاجة لى إلى تقرير شىء آخر ، ثم المقرر لى من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملتها هذه القرايا . فقال : لا يجوز تتعب بدون فائدة . ثم أمر لى بعمالة الخاص جميعها فى بلد الجزيرة ، فدعوت له . ولما خرجت رأيتها كثيرة يحصل منها ما يزيد على سبعمائة دينار (١٦٧ — ب) أميرى ، وليس لى بها من العمل كثير أمر . فقلت فى نفسى : ربما لا يعلم مقدارها ، فإذا علمه يظن أننى اغتنمت غرته ، فأرسلت إليه مع حاجبه أقول له : إن هذه العمالة يتحصل منها فى هذا الرخص كذا وكذا دينار ، وأنا أقنع ببعض ذلك . قال : فلما سمع قولى ضحك ، وقال : هـذا كلام رجل عاقل والجميع له . قال : وكان يدخل إلى الخزانة بعض الأوقات ونحن فيها — إذ كنت أتولاها — فلا يخرج منها منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئآ صالحا ، وربما أرسل إلى من غاب ، سهمه .

قال : وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله من أصحابه ، فمن ذلك أن نائبين كانا له بالجزيرة اختصما وترافعا إليه ، فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السلطان فى ماله ، وأخذ من أموال الرعية أيضا رشا(٣) على مالا يجوز له فعله . قال : فأحضرهما بالموصل وأرسل إليه(٤) وهما فى ديوانه يقول : قد قلت عن فلان كذا وكذا ، فإن صح عليه أنه أخذ من أموال رعيتى دينارا واحدا صلبته ، فإننى قد وسعت عليه وكثرت إقطاعه (١٦٨ — أ) لئلا يمد عينه إليهم ، وإن لم يصح عليه شىء عاقبتك على كذبك . فلم يصح عليه قول شىء فأعاده إلى شغله ، وقال للآخر: لولا أن لك على حق خدمة لكنت عاقبتك على كذبك ، فعزله .

وكان رضى الله عنه واسع الكرم ، كثير البذل للمال ، يكثر تعهد أصحابه ونوابه(٥) بالصلات السنية والعطايا الجزيلة(٦) ، ففرق أموالا لا تحصى ولا تحد ، فمنها : ما كان جمع فى الأيام الشهيدية

---

(١) بالأصل : فكان . (٢) بالأصل : سايلنى .
(٣) بالأصل : رشى . (٤) بالأصل : إليهما . (٥) بالأصل : وانوابه .
(٦) بالأصل : والجزيلة.

والأيام السيفية(١) ، وما كان قد ادخره نصير الدين جقر ، وما تحصل له هومن البلاد فى أيامه .

أعطى فأكثر واستقل هباته فاستحيت الأنواء وهى هوامل
فاسم(٢) الغمام لديه وهو كنهور(٣) آل وأسماء البحار جداول
لم تخل أرض من نداه(٤) ولاخلا من شكر ما يولى لسان قايل

وكان رضى الله عنه يقول لمن ينهاه عن كثرة الإنفاق(٥) وإخراج الأموال : متى سمعتم أن ملكا حبسه القاضى ، وإذا لم يظهر إحسانى على من يخدمنى فمن الذى يحسن إليهم ، وبالله أقسم إذا فكرت فى (١٦٨ - ب) الملوك أولاد الشهيد عماد الدين زنكى : سيف الدين ، ونور الدين ، وقطب الدين ، وماجمع الله سبحانه فيهم من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، وحسن السيرة ، وعمارة البلاد ، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الأسباب التى يحتاج الملك إليها ، أظن أن القائل أرادهم بقوله : شعر

هينون لينون أيسار بنو يسر سواس مكرمة أبناء أيسار
لا ينطقون على العوراء إن نطقوا ولا يمارون إن ماروا بإكبار
من يلق منهم يقل(٦) لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السار

واذكر قول بعضهم - وقد سئل عن أولاد المهلب بن أبى صفرة(٧) - أيهم أفضل ، فقال : هم كالحلقة المفرغة . وقول فاطمة ابنة الحريث - وقد سئلت عن أولادها الكملة أيهم خير - فقالت : فلان ، بل فلان ، بل فلان ، ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم(٨) خير . وهكذا كانوا رضى الله عنهم .

ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين (١٦٩ - أ) وخلافة

ولده المستضىء بأمر الله . رضى الله عنهم

توفى الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين فى تاسع شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسمائة . واسمه يوسف بن المقتفى لأمر الله . وتمام نسبه عند وفاة المستظهر بالله رضى الله عنه .

(١) المقصود بالأيام الشهيدية ، أيام عماد الدين زنكى . وأما الأيام السيفية ، فهى أيام سيف الدين غازى ابن عماد الدين زنكى .
(٢) بالأصل : قاسم .
(٣) الكنهور من السحاب : المتراكم الثخين ، وهو أيضا قطع من السحاب أمثال الجبال . (لسان العرب) .
(٤) بالأصل : نداه .
(٥) بالأصل : الاتفاق .
(٦) بالأصل : يقول .
(٧) ولى المهلب بن أبى صفرة على خراسان سنة ٧٨ . وتوفى سنة ٨٢ ، وقد اشتهر أبناؤه فى حياته وبعد مماته ، وأخبارهم فى « الكامل » موزعة على السنين .
(٨) بالأصل : أنهم .

وأمه أم ولد اسمها طاووس رومية . ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة . وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام . وكان أسمرا ، تام القامة ، طويل اللحية .

وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز — وهو من مماليك المقتفى لأمر الله — وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد ، وله من الأتباع مثل علاء الدين تنامش(١) ويزدن(٢) وغيرهما ، وكان محسناً إلى الأجناد . فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقا ووضعا الطبيب(٣) على أن يصف له ما يؤذيه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع المستنجد بالله لضعفه ، ثم إنه أدخله(٤) وأغلق عليه الباب إلى أن مات . هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم (١٦٩ — ب) الحال .

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدى — وهو الحاكم فى الدولة — وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوة مستحكمة ، لأن المستنجد بالله كان يأمره فيما يتعلق بهما بأشياء فيفعلها ، فكانا يظنان أنه هو الذى يسعى بهما ، فلما مرض المستنجد بالله وأرجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدة الكاملة فلم يتحقق عنده خبر موته ، وأرسل إليه أستاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت [عليه] العافية . فخاف الوزير أن يدخل إلى دار الخلافة بالجند فربما جرى عليه عتب وإنكار ، فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه . وكان أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير [خوفاً منه(٥)] إن دخل الدار [أن يأخذهما(٥)] ، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبوابها وأظهر وفاة المستنجد ، وأحضر هو وقطب الدين إبنه ، أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه(٦) المستضىء بأمر الله ، وشرطا عليه (١٧٠ — أ) شروطاً ، منها : أن يجعل عضد الدين وزيراً وإبنه كمال الدين أستاذ الدار(٧) ، ويجعل قطب الدين أمير العسكر ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن البلدى الحال ، فصفق يداً(٨) على يد ، وقرع سنه ندماً على ما فرط فى عوده إلى داره ، حيث لا ينفعه الندم ، وأتاه من يستدعيه للجلوس(٩) للعزاء والبيعة للمستضىء ، فمضى إلى دار الخلافة ومعه زعيم الدين بن جعفر ، وهو صاحب المخزن ، فلما دخلها صرف إلى موضع من الدار وقتل وقطع قطعاً وألقى فى دجلة ، رحمه الله تعالى . وأرسل عضد الدين وقطب الدين إلى داره فحمل جميع ما له فيها من مال وغيره ، فرأيا فى ذلك خطوط المستنجد بالله إليه يأمره

---

(١) بالأصل : شامش ، (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٩/ص/١٠٨) (٢) بالأصل : يزدان ، (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٩/ص/١٠٨) . (٣) بالأصل : الطيب . (٤) بالأصل : أدخلها .
(٥) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/١٠٩) . (٦) بالأصل : ولقب . (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٩/ص/١٠٩) . (٧) بالأصل : أستاذ دار . (والتصحيح من ، الكامل ح/٩/ص/١٠٩)
(٨) بالأصل : فسفق يد . (٩) بالأصل : للجوس .

فيها(١) بالقبض عليهما ، وخط الوزير قد راجعه فى ذلك وصرفه عنه ، فلما وقفا عليه ، علما براءته مما كانا يظنان فيه ، فندما حيث لم ينفعهما(٢) ندمهما(٣). وأما زعيم الدين جعفر، فإن عماد الدين بن الوزير عضد الدين شفع فيه ، وهذا عماد الدين كان قد تصوف وترك الأعمال(١٧٠ — ب).

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلا فيهم، كثير الرفق بهم، وأطلق من المكوس كثيراً ولم يترك بالعراق مكساً. وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس. بلغنى أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة آلاف دينار ، فقال : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى إنساناً آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس ولم يطلقه .

فصل فى ذكر ملك نور الدين الموصل

وغيرها من البلاد الجزرية

وتقرير الموصل على سيف الدين غازى

لما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين رضى الله عنهما ، وملك ولده سيف الدين بعده . واستيلاء(٤) فخر الدين عبد المسيح واستبداده(٥) بالأمور وحكمه على سيف الدين غازى ، أنف لذلك وكبر لديه وشق عليه . وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة فى إقامة السياسة(٦) ، وكان رحمه (١٧١ — أ) الله لينا رفيقاً عادلا، فقال : أنا أولى بتدبير بنى أخى وملكهم، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر(٧) مستهل محرم سنة ست وستين وقصد الرقة ، فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ، ثم سلمها على شىء إقترحه(٨) ، فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها.

وسار إلى الخابور فملكه جميعه .

ثم ملك نصيبين وأقام بها يجمع العسكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر فكان قد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم(٩) .

---

(١) بالأصل : فيهما .
(٢) بالأصل : ينفعه .
(٣) بالأصل : ندمها .
(٤) بالأصل : واستلاء .
(٥) بالأصل : واستبدائه .
(٦) أى الدقة فى تنفيذ القانون.
(٧) بالأصل : جبر . (والتصحيح من الروضتين ح/١/ص/١٨٧) .
(٨) بالأصل : أقرحه .
(٩) بالأصل : وغيرها .

فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كثير من الموصل، فعاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى عماد الدين زنكى ابن أخيه قطب الدين(١). ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة(٢) بلد، وعبر دجلة فى مخاضة (١٧١ — ب) عندها(٣) إلى الجانب الشرقى، وسار فنزل شرقى الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل. ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة. وكان فخر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن أتابك قطب الدين رضى الله عنهما إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل، وأذربيجان، وأران(٤) وغيرها يستنجده، فأرسل أيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل، ويقول [له] : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته — وكان بسنجار — فسار إلى الموصل، وقال للرسول : قل لصاحبك، أنا أرفق ببنى أخى منك فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ(٥) من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدى بأشجع الناس، الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم، فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام (١٧٢ — أ) بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل من جندى وعامى معه لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم [عزموا] على الوثوب بفخر الدين وتسليم البلد إليه. فلما علم فخر الدين ذلك، راسله فى الصلح والدخول فى طاعته، وإبقاء الموصل على سيف الدين، ويطلب لنفسه الأمان وإقطاعا يكون له، فأجابه إلى ذلك، وقال: لا سبيل إلى مقامك(٦) فى الموصل بل تكون عندى بالشام، فإنى لم آت لآخذ البلاد من أولادى، إنما جئت لأخلص الناس منك، وأتولى أنا تربية أولادى، فاستقرت القاعدة على ذلك، وسلمت الموصل إليه، فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمسمائة، وسكن القلعة. وأقر سيف الدين غازى

---

(١) فى الكامل (ح/٩/ص/١١٠) أن كمال الدين الشهرزورى، علق على إبقاء نور الدين، سيف الدين بالموصل وإقطاعه سنجار لعماد الدين بقوله. « هذا طريق إلى أذى يحصل لبيت أتابك، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف ويطمع الأعداء » : يقول ابن الأثير. « فكان ذلك كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة » وقد ذكر ابن الأثير — فى الكامل، فى أخبار سنة ٥٧٠ — انضمام عماد الدين إلى جانب صلاح الدين ضد أخيه سيف الدين.

(٢) بلد : فى الاصطخرى (ص/٥٢—٥٣). مدينة صغيرة على غربى دجلة، وليس بها ماء جار سوى دجلة، وبها شجر وزروع ومباخس كثيرة. وبينها وبين الموصل مرحلة.

(٣) بالأصل. عندها.

(٤) بالأصل : أرانية (والتصحيح من، الروضتين، ح/١/ص/١٨٨).

(٥) بالأصل : الإفراغ.

(٦) بالأصل : مقامه.

على الموصل ، وولى بقلعتها خادماً له يقال له سعد الدين كمشتكين وجعله دزداراً فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه أتابك قطب الدين بين أولاده بمقتضى (١٧٢ — ب) الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة الإمام المستضىء بأمر الله فلبسها(١) ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين .

وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد(٢) ، وأمر ببناء الجامع النورى فبنى ، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً وسار إلى الشام ، فقيل له : إنك تحب الموصل والمقام(٣) بها ونراك أسرعت العود . فقال : قد تغير قلبى فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعنى أيضاً أننى [ههنا(٤)] لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد .

ثم أقطع نصيبين والخابور للعساكر ، وأقطع جزيرة ابن عمر لسيف الدين غازى ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعاً كثيراً .

ذكر غزوة [نور الدين] إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

فى سنة سبع وستين وخمسمائة ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الفرنج الذين فى لاذقية مركبين منها مملوءين(٥) (١٧٣ — أ) من الأمتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا ، فلما سمع نور الدين الخبر إستعظمه ، وراسل الفرنج فى إعادة ما أخذوه فغالطوه ، واحتجوا بأمور منها : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العادة بينهم أخذ [كل] مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضى الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته فلم يردوا شيئاً ، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا فى بلادهم ، بعضهم نحو أنطاكية وبعضهم نحو طرابلس(٦) ، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصنى صافيثا وعريمة فأخذهما عنوة

---

(١) فى ، ابن الفرات (حـ/٧/ص/٥٨) ، أنه لما حاصر نور الدين الموصل ، عزم الخليفة المستضىء بالله على نصرة سيف الدين غازى . فلما علم نور الدين بذلك ، أرسل إليه العماد الكاتب برسالة يذكر فيها أنه كبير البيت ووارثه ، وأنه لا يبغى إلا مصلحة أبناء أخيه ، ويستأذنه فى دخول الموصل ، عندئذ أذن له الخليفة بدخولها وأرسل له الخلع .

(٢) أنظر منشور نور الدين باطلاق المكوس فى ، الروضتين (حـ/١/ص/١٦) .

(٣) بالأصل : القيام . (والتصحيح ، من الروضتين ، حـ/١/ص/١٨٨)

(٤) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/١٨٨) .

(٥) بالأصل : مملين . (٦) بالأصل : طرابلس .

وكذلك غيرهما، ونهب وخرب، وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرقة ،فسار فى العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب .

وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ، فإنهم فعلوا فى ولايتها مثل ما فعل [نور الدين] من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه (١٧٣ — ب) من المركبين ، ويجدد(١) معهم الهدنة فأجابهم إلى ذلك . فكانوا فى ذلك كما يقال، اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم ، وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتى هى أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها .

نادرة غريبة فى زماننا هذا(٢)

قد علم الناس قلة الأمانة فى هذه الأعصار بل عدمها ، فلما أخذ الفرنج هذين المركبين ، كان لوالدى فيهما تجارة مع شخصين ، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير ، وكان يحمل المتاع إلى نور الدين ويحضر التجار ، فكل من إسمه على ثوب أخذه. وكان فى الناس من يأخذ ماليس له ،فكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة —وكان نصرانياً — فلم يأخذ إلاما عليه إسمه وعلامته ، فذهب من ماله ومالنا [شيء(٣)] كثير بهذا السبب ، وكان الذى حصل له من مالنا أكثر من الذى له ، فلما عاد إلينا سلم الذى لنا(٤) إلى والدى ، فامتنع من أخذه وقال [له] : خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه ، وأنا فى غنى عنه ، فلم يفعل ، فقال : خذ (١٧٤ — أ) أنت النصف وأنا النصف ، واجتهد به والدى فلم يفعل . فلما كان بعض الأيام ، وإذا قد جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الأثواب السوسى وغيرها ، وقال : هذا من قماشنا قد حضر اليوم . وسبب حضوره أن إنساناً فقاعياً(٥) من أهل تبريز كان معنا فى المركب ، وقد أعادوا عليه ماله ، فرأى هذه الأثواب وإسمى عليها ،فلم يسهل عليه [أن] يردها، وسأل عنى وقصدنى وهى معه ، وحضر عندى الساعة وسلمها إلىّ ، وقال : قد تركت طريقى لتبرأ ذمتى ، وأخذنا نحن ما عليه إسمنا بعد الجهد . وطلب والدى الرجل ، وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالا يتجر فيه فلم يفعل ، وعاد إلى بلده . وهذان الرجلان نادران فى هذا الزمان .

---

(١) بالأصل : وتجدد . (٢) بالأصل : هذه . (٣)الإضافة من « الروضتين » (ح/١/ص/٢٠٣) . (٤) بالأصل : له . (والتصحيح من « الروضتين » ح/١/ص/٢٠٣).

(٥) لعله نسبة الى صانع الفقاع ، والفقاع شراب يتخذ من الشعير .

ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر

وإقامة الخطبة العباسية بها

فى المحرم من سنة سبع وستين وخمسمائة ، قطعت خطبة العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر ، وخطب فيها للإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين .

وكان السبب فى ذلك أن صلاح (١٧٤ — ب) الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت قدمه فى مصر ، وزال المخالفون له ، وضعف أمر الخليفة بها ، العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، وإقامة الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر ، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين ، فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه ، واتفق أن العاضد مرض — وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له — فاستشار أمراءه كيف [يكون(١)] الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين. وكان قد دخل إلى مصر إنسان عجمى يعرف بالأمير العالم — وقد رأيناه بالموصل كثيراً — فلما رأى ماهم فيه من الإحجام ، قال : أنا أبتدىء بها، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد (١٧٥ — أ) المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضىء بأمر الله ، فلم ينكر أحد(٢) [ذلك(٣)] . فلما كان الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : إن سلم فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى أن ننغص عليه هذه الأيام التى بقيت من أجله ، فتوفى يوم عاشوراء ، ولم يعلم [بقطع الخطبة(٤)] .

ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه . وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد ، بهاء الدين قراقوش — وهو خصى — لحفظه(٥) وجعله كأستاذ دار للعاضد ، فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ووكل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم فى إيوان فى القصر وجعل عندهم من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر (١٧٥ — ب) من العبيد والإماء ، فأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره مر الأيام وتعاقب الدهور .

---

(١) الإضافة من : الروضتين (حـ/١/ص/١٩٤) . (٢) بالأصل : أحدا . (٣) الإضافة من : الروضتين (حـ/١/ص/١٩٤) . (٤) الإضافة من : الكامل (حـ/٩/ص/١١١) . (٥) بالأصل : بحفظه .

ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه ، فلما توفى علم صدقه ، فندم(١) على تخلفه عنه .

وكان ابتداء الدولة العلوية بإفريقية والمغرب فى ذى الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين . وأول من ظهر منهم ، المهدى أبو محمد عبيد الله(٢) وهو [الذى] بنى المهدية وملك إفريقية جميعها ، وقام بالأمر بها بعده ، إبنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد ، ثم إبنه المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل ابن محمد ، ثم إبنه المعز لدين الله أبو تميم معد — وهو الذى سير العساكر إلى مصر مع مولاه جوهر ، ففتحها وملكها فى شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبنى القاهرة — وخرج المعز من إفريقية ، فأقام بمصر وأولاده بعده إلى أن انقرضت دولتهم الآن ، فكانت مدة دولتهم مائتى سنة وستا وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتى سنة (١٧٦ ـ أ) وثمان سنين ، وملك منهم أربعة عشر خليفة ، وهم : المهدى ، والقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ، والمعز لدين الله ، ثم ابنه العزيز بالله(٣) ، ثم الحاكم بأمر الله ، ثم الظاهر لإعزاز دين الله ، ثم المستنصر بالله [ثم المستعلى بالله ، ثم الآمر بأحكام الله(٤)] ثم الحافظ لدين الله ، ثم الظافر بالله ، ثم الفائز بنصر الله ، ثم العاضد لدين الله وهو آخرهم . ولقد أتينا على ذكر ما أجملناه فى المستقصى فى التاريخ ، وإنما نذكر ههنا ما تدعو الحاجة إليه .

ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره ، إختار منه ما أراد ووهب أهله وأمراءه(٥) ، وباع منه [شيئاً] كثيراً . وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين ومر الدهور ، فمنه : القضيب الزمرد طوله نحو قبضة ونصف ، والجبل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

ولما خطب للمستضىء بأمر الله بمصر ، أرسل نور الدين (١٧٦ — ب) إليه يعرفه ذلك ، فحل عنده أعظم محل ، وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوى إكراما له ، لأن عماد الدين كان كبير المحل فى الدولة العباسية ثبتها الله تعالى ، وكذلك أيضاً سير خلعا لصلاح الدين ، إلا أنها أقل من خلع نور الدين ، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر ، وكانت هذه أول أهبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها .

---

(١) بالأصل : قدم . (٢) بالأصل : عبد الله . (٣) بالأصل : بالله العزيز .

(٤) ما بين الحاصرتين ، سقط بالأصل . (٥) بالأصل : وامرآيه .

ذكر الوحشة بين نور الدين

وصلاح الدين باطنا

وفى سنة سبع وستين أيضاً، جرى ماأوجب نفرة نورالدين من(١) صلاح الدين . وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو أيضا عساكره ويسير إليه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والإستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة فى العشرين من المحرم ، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر ، وكان (١٧٧ — أ) نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحل عن دمشق عازما على قصد الكرك فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم ما بلغه(٢) من عزم نور الدين [على] قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه(٣) أحد منهم بشىء ، فقام تقى الدين عمر — إبن أخى صلاح الدين — وقال : إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقه غيره من (١٧٧ — ب) أهله . فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه — وكان ذا رأى ومكر وعقل — وقال لتقى الدين : أقعد ، وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، أتظن أن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ، فقال : لا. فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نورالدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل(٤) الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى المجىء ، يأمرك بكتاب مع

---

(١) بالأصل : عن .

(٢) بالأصل : يبلغه . (والتصحيح من « الروضتين » ، ح/١/ص/٢٠٤) .

(٣) بالأصل : يجيبه .

(٤) بالأصل : يقبل . (والتصحيح من « الروضتين » ، ح/١/ص/٢٠٤) .

نجاب حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد . وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا مايريد ، فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر . ولما خلا(١) أيوب (١٧٨ — أ) بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هـذا العسكر ، وكانوا أسلموك إليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون(٢) إليه ويعرفونه قولى ، وتكتب أنت إليه وترسل فى [هذا(٣)] المعنى وتقول : أى حاجة إلى قصدى ، يجىء نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنق ، فهو إذا سمع(٤) هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت فى شأن . ففعل صلاح الدين ماأشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، توفى نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهـذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

فى ذكر اتخاذ نور الدين حمام الهوادى

وفى سنة سبع وستين ، أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادى . وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، واتخذت (١٧٨ — ب) فى سائر بلاده .

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم [يكونوا(٥)] قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات [لها(٥)] ولمربيها(٦) ، فوجد بها راحة كثيرة [فقد] كانت الأخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التى تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً ، كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل إلى المدينة التى هو منها فى ساعته ، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه ، فانحفظت(٧) الثغور بذلك . حتى أن طائفة من الإفرنج نازلوا ثغراً له ، فأتاه الخبر ليومه ، فكتب(٨) إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالإجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج آمنون (١٧٩ — أ) لبعد نور الدين عنهم ؛ فرحمه الله ورضى عنه ، ما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد .

---

(١) بالأصل : خلى . (٢) بالأصل : فسيكبون . (٣) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/٢٠٤) . (٤) بالأصل : ذا اسمع . (٥) الإضافة من ، الروضتين (حـ/١/ص/٢٠٤) . (٦) بالأصل : لمربها . (٧) بالأصل : فانخفضت . (٨) بالأصل : وكتب .

ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلج أرسلان

فى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان السلجوقى ، وهى ملطية(١) ، وسيواس(٢) ، وقونية ، وأقصرا ، عازما على حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سبب ذلك ، أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من البلاد ، قصده قلج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا ، فسار إلى نور الدين مستجيرا به وملتجئا إلى ظله ، فأكرم نزله وأحسن إليه ، وحمل له ما يليق أن يحمل إلى الملوك ؛ ووعده النصرة والسعى فى رد ملكه إليه . وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما . فلما قصده ذو النون ، راسل قلج أرسلان وشفع إليه فى إعادة ما غلب عليه من بلاده فلم(١٧٩ — ب) يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه(٣) ، فابتدأ بحصنى بهسنا(٤) ومرعش فملكهما(٥) وما بينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها . وكان قلج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده ، قد سار من أطرافها التى تلى الشام إلى وسطها ، خوفا وفرقا ، وراسل(٦) نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الإفرنج ما أزعجه(٧) فأجابه إلى الصلح . وكان فى جملة رسالة نور الدين إليه : إننى أريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء : أحدها أنك تجدد إسلامك على يد رسولى حتى يحل لى إقرارك على بلاد الإسلام ، فإننى لا أعتقدك مؤمنا — وكان قلج أرسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة — والثانى ، إذا طلبت عسكرك(٨) إلى الغزاة تسيره ، فإنك قد ملكت طرفا كبيرا(٩) من بلاد الإسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم ،

---

(١) ملطية : ثغر من ثغور الجزيرة مما يلى الروم . وهى مدينة كبيرة من أكبر الثغور التى دون جبل اللكام، وتحف بها جبال كثيرة الجوز ، وسائر الثمار مباح لا مالك له . وبين ملطية ومنبج أربعة أيام . وتبدأ بلاد الشام — من حيث المسافة الطولية — بملطية ، وتنتهى برفح . (الاصطخرى ، ص ٤٣/٤٦/٤٧/٤٨) .

(٢) سيواس : بلد بآسيا الصغرى ، يمر بواديها نهر قزل لرماك . وهى واقعة على مسافة ستين ميلا من قيسارية ، وعلى مسيرة يومين من توقات . (٣) بالأصل : نحواه . (٤) بالأصل : بهسنى . (والتصحيح من ، ياقوت) وبهسنا : بفتحتين وسكون السين ونون وألف . قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط ، ورستاقها هو رستاق كيسوم ؛ وهو على سن جبل عال . وهى اليوم (فى زمن ياقوت) من أعمال حلب .

(٥) بالأصل : فملكها . (٦) بالأصل : وأرسل . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢١٤) .

(٧) فى مرآة الزمان (ح/٨/ص/٢٩٤) أن نور الدين علم أن الفرنج قد نزلوا على حمص .

(٨) بالأصل : عسكرا . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢١٤) . (٩) بالأصل : كثيرا (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢١٤) .

فإما أن تنجدنى بعسكرك(١) لأقاتل بهم الإفرنج (١٨٠ — أ) وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع فى جهادهم . والثالث أن تزوج إبنتك بسيف الدين غازى ولد أخى ، وذكر أمورا غيرها . فلما سمع قلج أرسلان الرسالة ، قال : ماقصد نور الدين إلا الشناعة على بالزندقة(٢) وقد أجبته(٣) إلى ما طلب ، أنا أجدد إسلامى على يد رسوله . واستقر الصلح ، وعاد نور الدين وترك عسكره فى سيواس مع فخر الدين عبدالمسيح فى خدمة ذى النون ، فبقى العسكر بها إلى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها وعاد قلج أرسلان وملكها .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل نور الدين

ابن عماد الدين زنكى

توفى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر بدمشق ، يوم الأربعاء حادى عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، بعلة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل عنها إلى المدرسة التى أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين .

وكان قد شرع بتجهيز المسير(٤) إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رآى منه فتورا فى غزو الفرنج (١٨٠ — ب) من ناحيته ، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها [مع ابن أخيه سيف الدين(٥)] فى الشام لمنعه(٦) من الفرنج ، ليسير هو بعساكره إلى مصر . وكان المانع لصلاح الدين من الغزو خوف نور الدين ، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتمى بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لا يرى إلا الجد فى غزوهم بجهده وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه ، تجهز(٧) للمسير إليه ، فأتاه أمر الله الذى لا يرد .

حكى لى طبيب دمشقى يعرف بالرحبى — وهو من حذاق الأطباء — ، قال : إستدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا عليه(٨) — وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق — وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته . فكان يخلو فيه للتعبد فى أكثر أوقاته ، فابتدأ(٩) به المرض فيه فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا إليه ورأينا مابه ، قلت له :

---

(١) بالأصل : بعسكر . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٢١٤) .
(٢) بالأصل : الزندقة . (٣) بالأصل : اجته .
(٤) بالأصل : للمسير . (٥) الإضافة من ، الكامل (حـ/٩/ص/١٢٤) .
(٦) بالأصل : تمنعه . (٧) بالأصل : فتجهز . (٨) بالأصل : إليه .
(٩) بالأصل : فاشدا (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٢٢٨) .

[كان ينبغى أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد(١)] فالآن(٢) ينبغى أن تنتقل عن هذا (١٨١ — أ) الموضع إلى مكان فسيح فله أثر فى هذا المرض، وشرعنا فى علاجه فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء، ومات عن قريب رضى الله عنه.

وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلا فى حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين.

ولما توفى كان قد اتسع ملكه جدا، فملك الموصل، وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام، والديار المصرية. وأمر بمسير جند من مصر إلى اليمن فساروا — ومقدمهم شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين — فملكها، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة. وكان مولده تاسع عشر شوال من سنة إحدى عشرة وخمسمائة. وطبق ذكره الأرض لحسن سيرته وعدله. وأنا أذكر من حاله ما تعلم [به] أن الله تعالى كمله، وأنه لم يكن مثله إلا الشاذ النادر.

فى ذكر ولاية ابنه الصالح إسماعيل

رضى الله عنه

لما توفى نور الدين، جلس ابنه الملك الصالح إسماعيل فى الملك ولم يبلغ الحلم(٣)، وحلف له الأمراء والمقدمون(٤) بدمشق وأقام بها، وأطاعه الناس فى سائر بلاد الشام (١٨١ — ب) وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكة باسمه فيها. وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد ابن المقدم. وحكى لى البقة قتلغ الكمالى، قال: لما توفى نور الدين قال صاحبى كمال الدين [محمد الشهرزورى] للأمراء، ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه، والمصلحة [أن] نشاوره فيما نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة(٥) الملك الصالح، فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم(٦). قال: فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنئه بالملك ويعزيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية

---

(١) الإضافة من، الروضتين، (ح/١/ص/٢٢٨).
(٢) بالأصل: كان. (والتصحيح من، الروضتين، ح/١/ص/٢٢٨).
(٣) كان عمر الصالح إسماعيل، إحدى عشرة سنة. (الكامل، ح/٩/ص/١٢٦).
(٤) بالأصل: المتقدمون. (٥) بالأصل: بخدمة. (٦) بالأصل: ويخرجون. (والتصحيح من الكامل، ح/٩/ص/١٢٦).

عليها إسمه ، ويعرفه أن الخطبة له والطاعة كما كانت لوالده . فلما سار سيف الدين غازى ابن عمه قطب الدين وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين (١٨٢ - أ) ولا أعلموه الحال ، كتب إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده [وأخذها(١)] ليحضر فى خدمته ويكفه . وكتب إلى كمال الدين وإلى الأمراء يقول : إن الملك العادل ، لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاى دونى ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه وإهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أخذت بلاده . فقال لهم كمال الدين : هذا الذى كنت حذرتكم [منه] فأقام الملك الصالح بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يمكنوه من المسير إلى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين على بن الداية ، فإنه كان أكبر الأمراء النورية ، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ، وكان هو وإخوته بحلب ، وأمرها (١٨٢ — ب) إليهم ، وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة ، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه ، وأرسل إلى كمال الدين والأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب ، حتى يجمع(٢) العساكر ويسترد ما أخذه منه ، وإلا عبر سيف الدين إلى حلب ، ولا نقوى على منعه ، فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب ، فكان من سيف الدين فى ملك البلاد الجزرية ما نذكره إن شاء الله تعالى .

فى ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود

رضى الله عنـــه

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان (١٨٣ - أ) يوليه ، وإنعام يسديه . وقد تقدم من أحواله فى مملكته ما يستدل به على ما ذكرنا . ونحن نذكر(٣) ههنا ما تعلم به محله فى أمر دنياه وأخراه ، فلو كان فى أمة لافتخرت به ، فكيف فى بيت واحد .

---

(١) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/١٢٦) .
(٢) بالأصل : يستجمع .
(٣) بالأصل : فذكره

فأما زهده وعبادته وعلمه ، فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه ، إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم(١) فى أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ماأفتوه(٢) بحله ولم يتعده إلى غيره ألبتة . ولم يلبس قط ماحرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة . ومنع من شرب الخمر وبيعها فى جميع بلاده ، ومن إدخالها إلى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعى ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون إبنة معين الدين أنر، زوجة نور الدين ووزيرها ، قال : كان نور الدين (١٨٣ - ب) إذا جاء إليها يجلس فى المكان المختص به ، وتقوم فى خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن لها فى أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذى يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنه(٣) . وكان يصلى فيطيل الصلاة ، وله أوراد فى النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة . قال : وإنها قلّت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قد قرره لها ، فأرسلتنى إليه أطلب منه زيادة فى وظيفتها(٤) فلما قلت له [ذلك] تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها والله لا أخوض نار جهنم فى هواها ، إن كانت تظن أن الذى بيدى من الأموال هى لى فبئس(٥) الظن ، إنما هى أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها (٦). ثم قال : لى بمدينة حمص ثلاث دكاكين (١٨٤ -) ملكا(٧) قد وهبتها إياها فلتأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة . كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الإنقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ويعتقد فيه [اعتقادا] حسنا ، فبلغه أن نور الدين يدمن(٨) اللعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية . فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ما حملنى على اللعب بالكرة ، اللهو والبطر ، إنما نحن فى ثغر والعدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب فى الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلا

---

(١) بالأصل : واستفتاهم . (٢) بالأصل : أفتوه . (٣) بالأصل : ويجيب عنهما .

(٤) الوظيفة : أى المبلغ المخصص لنفقتها ، كما يفهم من السياق . وفى (لسان العرب) : الوظيفة من كل شىء ، مايقدر له فى كل يوم من رزق أو طعام أو علف أو شراب . وجمعها الوظائف ، والوظف . (٥) بالأصل : فيبئس .

(٦) بالأصل : فيها . (٧) بالأصل : ملاك . (٨) بالأصل : يدامن .

ونهارا ، شتاء وصيفا ، إذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما(١) لا قدرة لها على إدمان السير فى الطلب ، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الإنعطاف فى الكر والفر فى المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الإنعطاف (١٨٤ — ب) والطاعة لراكبها فى الحرب ، فهذا والله هو الذى يبعثنى على اللعب بالكرة . فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير ، الذى يقل(٢) فى أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله ، فإن من يجىء إلى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات ، يقل فى العالم مثله ، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة ، وهى أفعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكى لى عنه ، إنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت [إليها] ، وبينما هم معه فى حديثها ، وإذا قد جاءه رجل صوفى فأمر بها له ، فقيل [له] : إنها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو أعطى غيرها لكان أنفع له . فقال : أعطوها له ، فإنى أرجو أن أعوض عنها فى الآخرة ، فسلمت إليه ، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميرى أو سبعمائة دينار ، أنا أشك [أنها] كانت تساوى(٣) أكثر .

وحكى لنا الأمير بهاء الدين على بن الشكرى (١٨٥ — أ) رحمه الله تعالى — وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه إنبساط — قال : كنت معه يوما فى الميدان بالرها نسير والشمس فى ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ، فقال لى : أتدرى لأى شىء أجرى فرسى وألتفت ورائى ، قلت : لا . قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها . وكان رحمه الله يصلى كثيراً من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب

جمع الشجاعـــة والخشوع لربه   ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة ، ليس عنده [فيه] تعصب بل الإنصاف سجيته فى كل شىء . وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر . وعلى الحقيقة فهو الذى جدد للملوك إتباع سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فإنهم كانوا قبله (١٨٥ — ب) كالجاهلية ، همة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه . « ومن سن سنة حسنة كان له أجرها

---

(١) الجمام (بالفتح) الراحة . وجم الفرس ، ترك فلم يركب ؛ فعفا من تعبه وذهب إعياؤه . (لسان العرب) .

(٢) بالأصل : لعل .   (٣) بالأصل : تسوى .

وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة(١)» فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة، فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليه السلام مع [اتساع] ملكه، وهو سيد الزاهدين في زمانه، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت، واليمن، والحجاز، وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام إلى العراق، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين. وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد (٢) عنها.

وأما عـــدله

فإنه كان من أحسن الملوك سيرة، وأعدلهم حكما. فمن عدله أنه لم يترك (١٨٦ — أ) في بلد من بلاده ضريبة لا مكسا ولا عشرا، بل أطلقها جميعها في بلاد الشام، والجزيرة جميعا، والموصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا، فأطلقها، وهذا لم تتسع له نفس غيره. وكان يتحرى(٣) العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم [أن] سار ذكره في شرق الأرض وغربها.

ومن عـــدله

أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها، ويقول: نحن شحن لها نمضي أوامرها. فمن اتباعه أحكامها، أنه كان يوما يلعب بالكرة(٤) بدمشق، فرأى إنسانا [من أتباعه(٥)] يحدث آخر ويومىء بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فقال: لي مع الملك العادل حكومة(٦)، وهذا غلام القاضي ليحضره [معي(٧)] إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني، فعاد إليه ولم (١٨٦ — ب) يتجاسر [أن] يعرفه ما قال ذلك الرجل وغالطه، فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله، فألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان وسار إلى القاضي (٨) يقول [له]: إنني قد جئت محاكما، فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر ساوى [بينه وبين] خصمه وحاكمه، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر: هل ثبت له عندي حق،

---

(١) حديث شريف. (٢) بالأصل: لا اليه عنها. (والتصحيح من الروضتين، حـ/١/ص/٧).
(٣) بالأصل: يجرى. (والتصحيح من، الروضتين، حـ/١/ص/٧). (٤) بالأصل: الكورة.
(٥) الإضافة من، الكواكب الدرية (مخطوط، ورقة ٤ و). (٦) أي خصومة.
(٧) الإضافة من. الكواكب الدرية (مصور، لوحة/١٠). (٨) في الروضتين (حـ/١/ص/٧)، أنه كمال الدين بن الشهرزوري.

فقالوا : لا . فقال : إشهدوا أنى قد وهبت له هذا الملك الذى حاكمنى عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندى ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنى ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لى وهبته [له] ، وهذا غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهى درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق ، الواقفة معه .

قال صاحب التاريخ . ومن عدله قدس الله روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التى جرت بها عادة الملوك فى هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فإن قامت عليه البينة الشرعية ، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد فى غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة فى العقوبة والأخذ بالظنة . وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر .

وحكى لى من أثق به ، إنه دخل يوما إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل(١) عنه فقيل : إن القاضى كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا ، فقال : إن [هذا] المال ليس لنا ولا لبيت المال فى هذه الجهة شىء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين فرده إلى الخزانة مرة [أخرى] وقال : إذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عنى ، إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه ، فأنكر على النواب ، وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين فرده إليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا [المال] وأما أنا فرقبتى دقيقة (١٨٧ — ب) لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدى الله تعالى ، يعاد قولا واحدا فأعاده .

ومن عدله أيضا بعد موته — وهو [من] أعجب ما يحكى عنه — ، أن إنسانا كان بدمشق غريبا قد استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفى وملكها (٢) صلاح الدين ، كان أجناده وأمراؤه يفعلون مايريدون ولا يمنعهم ، فتعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم ينصفه صلاح الدين ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكى وقد شق ثوبه ، وهو يقول : يانور الدين ، لو رأيتنا ومانحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكلهم يبكى ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، وقيل له : إحفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل — وهو عند تربة نور الدين يبكى والناس معه — فطيب قلبه ، ووهبه [شيئا] وأنصفه ، فبكى أشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكى ، فقال : أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين (١٨٨ — أ) : وهذا هو الحق ، وكل ما يرى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

---

(١) بالأصل : قال .

(٢) بالأصل : ملكها .

فصل فى ذكر بنائه دار العـــــــدل

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العادل نور الدين رضى الله عنه ، أول من بنى داراً لكشف المظالم وسماها دار العدل . وكان سبب بنائها ، أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم أسد الدين شيركوه — وهو أكبر أمير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك فى الملك — واقتنوا الأملاك فأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره فى قرية أو غيرها ، فكثرت الشكوى إلى كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين ذلك ، أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : إعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببى وحدى ، وإلا فمن هو الذى يمتنع على كمال الدين ، والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه (١٨٨ — ب) فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة [فى ملك(١)] فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأى شىء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدى ، فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا فى الطلب . فقال : خروج أملاكى عن يدى أسهل عندى من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم ، أو يساوى بينى وبين آحاد(٢) العامة فى الحكومة(٣) . فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات . وكان يجلس فى الأسبوع يومين وعنده القاضى والفقهاء ، فبقى كذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين ، فقال لكمال الدين : ما أرى أحداً يشكو من شيركوه . فعرفه الحال ، فسجد فشكر الله تعالى وقال : الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا . فانظر إلى هـذه المعدلة ما أحسنها ، وإلى هذه الهيبة ما أعظمها ، وإلى هذه السياسة ما أشدها . هذا مع أنه كان لا يريق دما ، ولا يبالغ فى عقوبة ، وإنما كان يفعل (١٨٩ — أ) هذا صدقة فى عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه كان أصبر الناس فى الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل فى ذلك . سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم [يقولون] إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها ، لم ير جوكانه(٤) يعلو على رأسه ، وكان

---

(١) الإضافة من الروضتين (حـ/١ / ص ٨) (٢) بالأصل : أجساد . (والتصحيح من الروضتين ، حـ/١/ص/٨) . (٣) الحكومة هنا ، بمعنى القضاء . (٤) بالأصل : جواكانه .

ربما ضرب الكرة فتعلو ، فيجرى الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان ، وكانت يده لا ترى والجوكان فيها ، بل تكون فى كم قبائه استهانة باللعب .

وكان إذا حضر الحرب ، أخذ قوسين وتركشين(١) وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة(٢) فلم أرزقها . سمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابورى — الفقيه الشافعى — وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين (١٨٩ — ب) فإنك عمادهم ، وإن أصبت والعياذ بالله فى معركة ، لا يبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف ، وأخذت البلاد . فقال له : يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ، قبلى من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذى لا إله إلا هو .

وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى ، وأكثر ما ملكه من بلادهم به . ومن جيد الرأى ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب ، فإنه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله فى خدمته سفرا وحضرا(٣) ، وكان يقاتل به الفرنج . وكان يقول : إنما حملنى على استمالته ، أن بلاده حصينة وعرة المسلك ، وقلاعه منيعة ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام ، فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا ، بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الفرنج . وحين(٤) توفى نور الدين (١٩٠ — أ) وسلك من بعده غير هذا الطريق ، ملك المتولى للأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه .

ومن أحسن الآراء ماكان يفعله مع أجناده ، فإنه كان إذا توفى أحدهم وخلف ولدا ، أقر إقطاعه(٥) عليه ، فإن كان الولد كبيراً ، استبد بنفسه ، وإن [كان] صغيراً رتب معه رجلا عاقلا يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون ، هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها . وكان ذلك سبباً عظيما(٦) من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب . وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير فى ديوانه ، وسلاحهم ودوابهم ، خوفاً من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ماهو مقرر عليه من العدد ، ويقول : نحن كل وقت بصدد النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملى العَدد والعُدد ، دخل الوهن على الإسلام . ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل ، فلقد رأينا ما خافه عيانا .

---

(١) تركش : كلمة فارسية ، معناها : جعبة ، كنانة (المعجم فى اللغة الفارسية) وهى التى توضع فيها النبال .
(٢) بالأصل : الشهادة .
(٣) بالأصل : وحدرا . (٤) بالأصل : وحيث . (٥) بالأصل : الإقطاع .
(٦) بالأصل : سبب عظيم .

(١٩٠ — ب)   وأما ما فعله من المصالح

الذى فعله من المصالح فى بلاد الإسلام مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، ونحن نذكر طرفا منه . فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، وحماة وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس .

وبنى أيضاً المدارس بحلب ، وحماة ، ودمشق ، وغيرها للشافعية والحنفية .

وبنى الجوامع فى جميع البلاد ، فجامعه فى الموصل إليه النهاية فى الحسن والإتقان . ومن أحسن ما عمل فيه ، أنه فوض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملا رحمه الله — وهو رجل من الصالحين — ، فقيل له : إن هذا [الرجل] لا يصلح لمثل هذا العمل . فقال : إذا وليت العمل بعض أصحابى من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم فى بعض الأوقات ، ولا يفى الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظنى (١٩١ — أ) أنه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علىّ . وهذا هو الفقه فى الخلاص من الظلم . وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعا على نهر العاصى من أحسن الجوامع وأنزهها . وجدد فى غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم ، إما بزلزلة أو بغيرها .

وبنى البيمارستانات فى البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذى بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج . بلغنى أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غنى وفقير . ولقد جرى لى مع طبيبه ما أذكره ، وذلك أننى قدمت من زيارة بيت المقدس - بعد أن فتحه المسلمون - مريضاً ، فسألت عن طبيب فدلونى على مغربى فأتيته ووصفت له مرضى ، فوصف لى وصفة لم يرضنى قوله ، فعاودته القول فتركنى ومضى ، فأنفت نفسى وضاقت الدنيا فى عينى ، وعزمت على أن لا أعالج نفسى إلا بما تنتهى إليه معرفتى ، واشتد مرضى لما نالنى من الغيظ ، فلما كان الغد ، قوى عزمى على قصد (١٩١ — ب) طبيب يعالجنى ، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدللت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخا للمرضى الذين به ، فلما رآنى قد قاربته ، أقبل على بوجه منبسط وسألنى(١) عن حالتى فوصفتها(٢) له ، فكتب لى نسخة ، وقال لى : يحمل غلامك ما فى هذه النسخة . فقلت : لا حاجة بى إلى ذلك ، فقد أغنانى الله عن مزاحمة الفقراء . فقال : يامولاى ، لا أشك أنك فى غنى عن هذا ، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وإنعامه ، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية

---

(١) بالأصل : وسايلنى .   (٢) بالأصل : فوصفته .

من هذا البيمارستان . فقلت : أنا لا أرى ذلك . فقال: إنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم(١)، فوجدت فى نفسى بكلامه إنبساط . فحكيت له حكاية ذلك الطبيب ، فقال : يا مولاى ، مغربى وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا ، وأما أنا فما تراه فى من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم ، فإنى سافرت إلى الموصل والعراق . فشكرته وعدت عنه ، رضى الله عنه .

(١٩٢ — أ) وبنى أيضا الخانات فى الطرق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، وباتوا فى الشتاء فى كن من البرد والمطر .

وبنى أيضا الأبراج على الطرق ، وبين بلاد المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادى ، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ (٢) الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلا(٣) يبلغ العدو منهم غرضا . وكان [هذا] من ألطف الفكر وأكثرها نفعا ، رحمه الله تعالى .

وبنى أيضا الربط والخانقاهات فى جميع البلاد للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الإدرارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه . وكذا أيضا كان يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والإحترام ، ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، فقصدوه من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها . وبالجملة فكان أهل الدين(١٩٢ — ب) عنده فى أعلى المنازل وأعظمها ، فكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول : ومن المعصوم ، وإنما الكامل من(٤) تعد ذنوبه . بلغنى أن بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعى — وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ فى إكرامه والإحسان إليه — فحسده ذلك الأمير فنال منه يوما عند نور الدين ، فقال له : يا هذا ، إن صح ما تقول فله حسنة تغفر(٥) كل زلة تذكرها ، وهى العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ، ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا —

---

(١) يذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب وقف البيمارستان فلم يره مشعرا بذلك ، « وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه . وإنما صرح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء نفس ذلك بذلك » (الروضتين ، حـ/١/ ص/٩) .

(٢) بالأصل : فأخذوا .
(٣) بالأصل : فلم .

(٤) بالأصل : ممن .
(٥) بالأصل : يغفو . (والتصحيح من : الروضتين ، حـ/١/ص/٩) .

إن صحت — مع وجود حسنته (١) ، على أنني والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذينك ، فكف عنه . هذا والله هو الإحسان والفعل الذى [ينبغى أن(٢)] يكتب على العيون بماء الذهب .

(١٩٣ — أ) وبنى بدمشق أيضا داراً للحديث ، ووقف [عليها(٣)] وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمناه .

وبنى أيضا فى كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة . وبنى أيضا مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، ووقف على الأيتام الذين يقرءون بها القرآن . وهذا فعل لم يسبق إليه . بلغنى من عارف بأعمال الشام ، أن وقوف نور الدين فى وقتنا هذا — وهو سنة ثمان وستمائة(٤) — كل شهر تسعة ألف دينار صورية(٥) ، ليس فيها ملك غير صحيح شرعى ظاهرا وباطنا ، فإنه وقف ما انتقل إليه وورث(٦) ثمنه أو(٧) ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

فصل فى ذكر وقاره وهيبتـــــــه

قدس [الله] روحه ونور ضريحه

فإليه النهاية فيهما ، فلقد كان كما قيل : شديد فى غير عنف رقيق فى غير ضعف ، واجتمع له مالم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط ناموس الملك حتى مع أجناده وأصحابه (١٩٣ — ب) إلى غاية لا مزيد عليها . [وكان] يلزمهم بوظائف الخدمة ، الصغير منهم والكبير . ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية وغيرهما ، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود . وكان مع هـذه العظمة وهذا الناموس القائم ، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه(٨) ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحديثه كأنه

---

(١) بالأصل : حسنه . (٢) الإضافة من ، الروضتين ، (حـ/١/ص/١٠) .

(٣) الإضافة من ، الروضتين ، (حـ/١/ص/١٠) . (٤) حدد ابن الأثير بذكره هذا التاريخ ، السنة التى ألف فيها كتابه هذا . (٥) بالأصل : صورته (والتصحيح من ، الروضتين ، (حـ/١/ص/١٠) .

(٦) هكذا أيضا فى الروضتين ، (حـ/١/ص/١٠) ولعل المراد : وورث ثمنه .

(٧) بالأصل : من ، (والتصحيح من ، الروضتين حـ/١/ص/١٠) .

(٨) بالأصل : ويمشى إلى بين يديه ، (وقد أسقط ، المحقق اللفظ : إلى ، لأنه زائد) .

أقرب الناس إليه . وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً ، يقول : إن هؤلاء لهم فى بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة(١) علينا .

وكان مجلسه كما روى فى صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين ، والمشورة فى أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا . (١٩٤ — أ) بلغنى أن الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقى رضى الله عنه(٢) ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط ، وسوء أدب الجلوس فيه ما لاحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين(٣) وقلة استماعهم ، فقام وبقى مدة لا يحضر المجلس الصلاحى ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه . فقال : نزهت نفسى عن مجلسك ، فإنى رأيته كبعض مجالس السوقة ، لا يستمع [فيه] إلى قائل ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجالس نور الدين فكنا كما قيل : كأنما [على] رءوسنا الطير ، تعلونا الهيبة(٤) والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه ، أنه(٥) لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ فهكذا كانت أحواله جميعها — رحمه الله تعالى — مضبوطة محفوظة .

وأما حفظه أصول الديانات

(١٩٤ — ب) فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيا لها ، لا يهملها ولا يمكن أحدا من الناس من إظهار مايخالف الحق . ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته . وكان يبالغ فى ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الأصل . حكى لى أن إنسانا كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم ، كان يظهر الزهد والنسك — وقد كثر أتباعه — أظهر شيئا من التشبيه(٦) ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه وطيف به فى البلد جميعه ، ونودى عليه : هذا جزاء من أظهر فى

---

(١) الأصل : المنية . (٢) هو أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله الدمشقى ، صاحب « تاريخ دمشق » توفى سنة ٥٧١ . (ترجمته فى شذرات الذهب ، ح/٤/ص/٢٣٩) . (٣) بالأصل : المحدثين . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٠) . (٤) بالأصل : الهيبه . (٥) بالأصل : أنهم .

(٦) أي أنه من المشبهة . وهى فرقة إسلامية ، تشبه الله بالمخلوقات . (انظر : الملل والنحل للشهرستانى) .

الدين البدع . ثم نفاه من دمشق فسار عنها وقصد حران ، وأقام بها إلى أن مات . ويسوق الله القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة .

فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه

رحمه الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد الكاتب — وقد ذكر نور الدين فى بعض (١٩٥ — أ) مصنفاته(١) — فقال : كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذى بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم ، وأثقبهم(٢) رأيا وأنقاهم ، وأعدلهم وأعبدهم ، وأزهدهم وأجهدهم ، وأطهرهم وأظهرهم ، وأقواهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملا ، وأنجحهم أملا ، وأرجحهم رأيا ، وأوضحهم آيا ، وأصدقهم قولا ، وأقصدهم طولا ، وكان عصره فاضلا ، ونصره واصلا ، وحكمه عادلا ، وفضله شاملا ، وزمانه طيباً ، وإحسانه صيباً ، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية ، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية ، وأموره مقتبلة ، وأوامره ممتثلة ، وجده منزه عن الهزل ، ونوابه فى أمن من العزل ، ودولته مأمولة مأمونة ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ، والزيادة زائدة ، والسعادة مساعدة ، والعيشة ناضرة ، والشيعة ناصرة ، والإنصاف صاف ، والإسعاف عاف ، وأزر الدين قوى ، وظمأ الإسلام روى ، وزند النجح ورى ، والشرع متبوع ، والحكم (١٩٥ — ب) مسموع ، والعدل مولى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشرك مخذول ، وللتقى شروق ، وما للفسوق سوق ، وهو الذى أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ الضر ، فاستفتح معاقلها ، واستخلص عقايلها ، وأشاع بها شعار للشرع فى جميع الحل والعقد ، والإبرام والنقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع ، وكانت للفرنج فى أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم ، وبدد سلوكهم ، وصان الثغور منهم ، وحماها عنهم ، وأحيا(٣) معالم العلوم الدوارس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات للصوفية وكثرها(٤) فى كل بلد وكثر وقوفها ، ووفر(٥) معروفها ، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها ، وأجد الأسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر فى الطرقات ببناء [الربط] والخانات ، فضافت(٦) ضيوف الفضايل ، وفاضت

---

(١) فى ، الروضتين (ح/١/ص/١٠) أنه كتاب « البرق الشامى » . وقد أورد أبو شامة فى كتابه ، نص ما نقله ابن الأثير هنا ، من العماد الكاتب .
(٢) بالأصل : واثقبهم (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٠)
(٣) بالأصل : واحى .
(٤) بالأصل : وكبرها . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٠).
(٥) بالأصل : وفر . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١) .
(٦) بالأصل : وضاقت . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١) .

فيوض (١٩٦ — أ) الفواضل ، وهو الذى فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ(١) دولته ورجالها . ولو ذكرت ماقال العلماء فيه لـكان مجلدات ، ولـكن الاختصار أليق بما نحن فيه والسلام .

فى ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازى على البلاد(٢)

الجزرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض ، قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعى العساكر منها ، فسار سيف الدين غازى بن أتابك قطب الدين صاحب الموصل فى عساكره ، فلما كان ببعض الطريق ، أتاه الخبر بموت عمه الملك العادل نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى بلد الخابور فاستولوا عليه ، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك نور الدين فى قلعتها إسمه قايماز الحرانى ، فامتنع فيها ثم أطاع على أن تـكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه ، وسار إلى الرها فحصرها وملكها ، وأرسل إلى مدينة (١٩٦ — ب) الرقة فملـكها ، وكذلك سروج ، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعه جعبر .

وكان بمدينـة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين على بن الداية — وهو من أكبر الأمراء النورية — وهو مريض فلم يمـكنه منع سيف الدين عن البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إليه الملك الصالح فى العساكر التى معه بها ، ليمنع سيف الدين عن البلاد ، فلم يفعل شمس الدين ابن المقدم — وكان هو المربى للملك الصالح والقائم بأمره — وخاف أن يرسله فيأخذه أولاد الداية ويسيروا معه إلى دمشق ويزيلوا ابن المقدم عما يتولاه ، فيتمكن(٣) حينئذ سيف الدين من ملـكها ، فلما استقام له ملك البلاد الجزرية ، قال له فخر الدين عبد المسيح — وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين ، وقصد سيف الدين ظنا منه أن سيف الدين يرعى له خدمته ، وقيامه فى أخذ الملك له من والده قطب الدين على ماذكرناه أولا ، فلم يجن ثمرة ماغرس ، وكان عنده كبعض (١٩٧ — أ) الأمراء — فقال له : ليس بالشام من يمنعك ، فاعبر الفرات واملك البلاد . فأشار أمير آخر معه — وهو أكبر أمرائه — يقال له عز الدين محمود المعروف بزلف دار : قد ملـكت أكثر من والدك ، والمصلحة أن تعود . فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا(٤) ﴾ ، ﴿ وكان ذلك فى الكتاب مسطورا(٥) ﴾ .

وأما أحوال من بالشام ، فإن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملـكها دزدارا لها وهو

---

(١) بالأصل : بإنشاء . (٢) بالأصل : بلاد .

(٣) بالأصل : فمكن . (٤) سورة الأنفال : ٤٢ . (٥) سورة الإسراء : ٥٨ .

سعد الدين كمشتكين — بعض خدمه الخصيان ـ فلما سار سيف الدين إلى الشام كان فى مقدمته على مرحلة ، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين فى أثره فلم يدرك ، فنهب بركه ودوابه وسار إلى حلب ، فتمسك [سعد الدين] بخدمة شمس الدين بن الداية وإخوته ، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك(١) الصالح ، فسار إليها ، فأخرج إليه ابن المقدم عسكراً فنهبوه ، فعاد منهزما إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية ما أخذ [منه] وجهزه وسيره (١٩٧ — ب) إلى دمشق [مرة أخرى] — وعلى نفسها تجنى براقش — فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم ما فى مسير الملك الصالح إلى حلب من المصالح ، فأجابوا إلى تسييره فسار إليها(٢) ، فلما وصلها وصعد إلى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذى يتبعه من أحداثها ، ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا(٣) ﴾ ، واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولا يمكنه الثبات [فيهلك(٤)] ، فراسل الملك الصالح وصالحه على إقرار ما أخذه بيده ، وبقى الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكنا عظيما يكاد يقارب الحجر عليه .

(١٩٨ ـ أ) فى ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن أيوب

إلى دمشق دار العشق وتملكها من يد ابن(٥) مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بنى الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلموها إليه فلم يجبهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر ، وكان كبيرهم(٦) فى ذلك شمس الدين محمد بن المقدم — ومن أشبه أباه فما ظلم(٧) — فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الإجابة وسار إلى الشام ،

---

(١) بالأصل : للملك .   (٢) فى الكامل (حـ/٩/ص/١٣٠) « ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا فى المصلحة فعلموا أن مسيره (أى مسير الصالح إسماعيل) إلى حلب أصلح للدولة من مقامه بدمشق ، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعد الدين ليأخذ الملك الصالح ، فجهزه وسيره » .   (٣) سورة الأحزاب : ٣٨ .
(٤) الإضافة من ، الكامل (حـ/٩/ص/١٣١) .
(٥) بالأصل : من يد أولاد مولاه ، وهذا وهم من ابن الأثير أو تصحيف من الناسخ لأن نور الدين لم يكن له غير ولد واحد وهو الصالح إسماعيل .
(٦) بالأصل : كمرهم . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/١/ص/٢٣٦) .   (٧) يشير ابن الأثير إلى أن والد شمس الدين هو الذى سلم سنجار لنور الدين سنة ٥٤٤ ، فخان بذلك سيده صاحب الموصل . وقد اعتبر ابن الأثير ، شمس الدين خائنا لأنه سلم دمشق لصلاح الدين ، فخان بذلك الصالح إسماعيل ابن سيده نور الدين .

فلما وصل دمشق ، سلمها إليه من بها من الأمراء ودخلها واستقر بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح وإنما أظهر : أنى إنما جئت لأخدم مولاى وابن مولاى ، واسترد له بلاده التى أخذها ابن عمه . وجرت أمور قد شوهدت فلاحاجة إلى ذكرها ، كما قال بعضهم :

فكان ما كان مما قد سمعت به فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وفى آخر الأمر اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح كل منهم على مابيده (١٩٨ — ب) بعد حروب ومخامرات ، قد أتينا على ذكر ذلك فى المستقصى فى التاريخ .

ذكره ولاية مجاهد الدين[1] قلعة الموصل ووزارة جلال الدين أبى الحسن[2] على

فى ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، إستوزر أتابك سيف الدين ، جلال الدين أباالحسن على بن جمال الدين رحمهما الله تعالى ، ومكنه فى ولايته ، وفوض إليه أمور دولته ، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدول ، وأوضاع الدواوين ، وتقرير الأمور ، واطلاع على دقائق الحسابات ، وعلم بصناعة الكتابة الحسابية حيرت العقول . ووضع للناس فى كتابة الإنشاء وضعا لم يعرفوه . وشرع لهم منها شرعا استحسنوه ، وبذل بذلا استعظموه . وكان عمره حين ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة ، ثم قبض عليه فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد — وكان قد زوجه ابنته — فاطلق من الحبس وسار إليه ، فبقى بآمد يسيرا مريضاً ، ثم فارقها وتوفى بدنيسر (١٩٩ — أ) سنة أربع وسبعين وخمسمائة . وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منها فى موسم الحج إلى المدينة فدفن عند والده . وكان أحسن الناس صورة ومعنى ، رضى الله عنه .

ثم إن سيف الدين استناب دزدارا بقلعة الموصل ، الأمير مجاهد الدين قايماز فى ذى الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، ورد إليه أزمة الأمور فى الحل والعقد ، والرفع والخفض . وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين على ولقبه أيضاً زين الدين ، وكان البلد لولد زين الدين إسما لا معنى تحته ، ولمجاهد الدين صورة ومعنى .

وفى سنة اثنتين وسبعين ، شرع مجاهد الدين فى عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجوامع . ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة .

---

(١) بالأصل : مجاهد ن .   (٢) بالأصل : أبا الحسن .

ذكر عصيان [ابن] بوزان وعوده إلى الطاعة

ثم إن الأمير شهاب الدين محمد بن بوزان (١٩٩ — ب) صاحب شهرزور — وهو فى طاعة سيف الدين — أظهر التجنى على سيف الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجعل عذره فى ترك الحضور فى الخدمه بنفسه ، الخوف من مجاهد الدين لعداوة بينهما محكمة القواعد ، وقال : إن مجاهد الدين هو الآن مدبر الدولة(١) والحاكم فيها ، ولا آمنه على نفسى . فأرسل إليه جلال الدين الوزير رسولا عن نفسه ، وكتب إليه كتاباً ليس مثله فى معناه . فلما وصل الرسول والكتاب إلى شهاب الدين بادر إلى الحضور فى الخدمة السيفية .

ذكر القبض على سعد الدين كمشتكين النورى

قد ذكرنا حال سعدالدين كمشتكين وأنه استولى على دولة الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نورالدين ، وحكم عليها . فلما كان سنة ثلاث وسبعين ، قبض عليـه الملك الصالح ، وطلب منه أن يسلم إليه قلعة حارم — وكانت إقطاعه — فلم يفعل ، فأرسل الملك الصالح إلى مستحفظها يأمره بتسليمها (٢٠٠ — أ) إلى نائبه فلم يسلمها ، فسار الملك الصالح إليها من حلب ومعه سعد الدين لحصر القلعة ، وعاقب سعد الدين ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ما طلب منه ، فعلق منكوساً ودخن تحت أنفه فمات ، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ، ثم إنه أخذها بعد ذلك .

ذكر الغلاء والوباء

فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، إشتدالغلاء وعم أكثر البلاد : العراق ، والموصل ، وديار الجزيرة ، وديار بكر ، والشام وغير ذلك من البلاد ، ودام إلى أن انقضى أكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس فىسائر البلاد يستسقون فلم يسقوا ، ثم إن الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث ، وأرخص الأسعار . ومن أعجب(٢) ما رأيت تلك السنة(٣)، أننى كنت فى الجزيرة ، وقد قصدت مدرسة بها أسمع على مدرسها شيئاً من حديث النبيصلىالله عليه وسلم، فبينما أنا جالس عند فقيه فى بيته أنتظر مدرسها ، وإذا قد أقبل إنسان تركمانى قد أثر عليه (٢٠٠ — ب) الجوع وكأنه قد أخرج من قبر ، فبـكى وشـكى الجوع ، فأرسلت من اشترى له خبزاً فتأخر إحضاره لعدمه ، وهو يبـكى ويتمرغ على الأرض ، فتغيمت السماء وجاءت نقط(٤) المطر متفرقة ، وضج

(١) بالأصل : للدوله .
(٢) بالأصل : عجب .
(٣) يقول ابن الأثير فى (الـكامل ، حـ/٩/ص/١٤٥) أنه كان فىالجزيرة فى شهر رمضان سنة ٥٧٥ « والناس فى أشد ما كانوا غلاء وقنوطا من الأمطار » .
(٤) بالأصل : تنقط .

الناس . ثم جاء الخبز فأكل ذلك التركمانى وأخذ الباقى معه ومشى . واشتد المطر ، ودام من تلك الساعة ، فرخصت الأسعار ، ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة . ثم عقب(١) الغلاء وباء شديد كثير . وكان مرض الناس شيئاً واحداً ، وهو سرسام ، فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة ، ولقى الناس منه ما أعجزهم حمله ، ثم إن الله تعالى رفعه عنهم فى سنة ست وسبعين وخمسمائة وقد ضعضع العالم .

فصل فى ذكر وفاة أمير(٢) المؤمنين

المستضىء بأمر الله الخليفة العباسى

فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، توفى الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله بن المستظهر بالله ، وقد تقدم باقى نسبه . وأمه أم ولد [أرمنية تدعى غضة(٣)] وكانت خلافته [نحو تسع سنين وسبعة أشهر(٤)] .

ذكر شىء من سيرته قدس الله روحه

(٢٠١ — أ) وكان عادلا حسن السيرة ، كثير البذل المال ، غير مستقص(٥) فى أخذ ما جرت العادة بأخذه . وكان الناس معه فى أمن وسكون لم يروا مثله . وكان رحمة الله عليه كريم الأخلاق ، كثير العفو لا يرى المعاقبة بل يعفو ويصفح . وزر له عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء(٦) إلى أن قتل أوائل ذى القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان قد سار [إلى] الحج — وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج — فعبر عضد الدين دجلة فى شبارة ، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل ، فتقدم إليه بعض العامة ليدعو له ، فمنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم أن لا يمنعوا عنه أحد ، فتقدم إليه [بعض] الباطنية فقتلوه بالجانب الغربى ، وقتل الباطنية وأحرقوا ، وحمل من موضعه إلى دار له بقطفتا بالجانب الغربى ، فتوفى بها رحمه الله تعالى . وتولى الأمور بعده ظهير الدين بن العطار وحكم فى الدولة حكماً نافذاً .

---

(١) بالأصل : تعقب . (٢) بالأصل : الأمير . (٣) الإضافة من ، الكامل (حـ/٩/ص/١٤٨) . (٤) سقط بالأصل . والإضافة من ، الكامل (حـ/٩/ص/١٤٨) .

(٥) بالأصل : مستقص . واللفظ المثبوت هنا يقابل ، اللفظ : مبالغ ، الوارد فى ، الكامل (حـ/٩/ص/١٤٨) .

(٦) هو عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبى القاسم بن مسلمة . (الكامل ، حـ/٩/ص/١٤٣)

ذكر وفاة الملك سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود (٢٠١—ب) ابن عماد الدين زنكى بن آقسنقر

فى صفر من سنة ست وسبعين وخمسمائة ، توفى الملك سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكى رضى الله عنهم . وكان مرضه السل فطال به . ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسمائة للغلاء الحادث فى البلاد وخرج سيف الدين فى موكبه ، فثار الناس وقصدوه مستغيثين به ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك ، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين ، وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها ، وأراقوا الخمور ، وكسروا الأوانى وعملوا ما لا يحل ، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان ، وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ، ولم يكن له فى الذى فعله الناس من النهب فعل ، إنما هو أراق الخمور ، ولما رأى فعل العامة نهاهم عنه فلم يسمعوا منه ، فلما شكى [الخمارون(١)] منه ، أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته ، فلما أطلق (٢٠٢ — أ) لينزل من القلعة ، نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل ، وقال : والله لاغطيته حتى ينتقم الله لى ممن ظلمنى ، فلم يمض غير قليل حتى توفى الدزدار المباشر لأذاه له ، ثم بعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه إلى أن توفى . وكان عمره نحو ثلاثين سنة . وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً .

ذكر صفة سيف الدين وذكر شىء من سيرته

كان رحمه الله من أحسن الناس صورة ، تام القامة ، مليح الشمائل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، متوسط البدن بين السمين والدقيق . وكان عاقلا ، وقوراً ، قليل الإلتفات إذا ركب وإذا جلس . عفيفاً ، لم يذكر عنه شىء من الأسباب التى تنافى العفة . وكان غيوراً شديد الغيرة ، لم يترك أحداً من الخدام يدخل دور نسائه إذا كبر ، إنما يدخل عليهن الخدم الصغار . وكان لا يحب سفك الدماء ، ولا أخذ الأموال مع شح فيه .

---

(١) الإضافة من : الكامل (ح/٩/ص/١٥٠) .

فى ذكر مملكة المولى السعيد (٢٠٢—ب)

عز الدين بن قطب الدين مودود

لما اشتد المرض بسيف الدين ، أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه [وكان عمره حينئذ اثنى عشرة سنة(١)] نخاف [على الدولة(١)] من ذلك ، لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته . وامتنع أخوه المولى السعيد عز الدين [مسعود(١)] من الإذعان والإجابة إلى ذلك ، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز ، بأن يجعل الملك بعده فى أخيه ، لما هو عليه من كبر السن أولا والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطى ابنيه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى المولى عز الدين ليبقى لهما [ذلك(٢)] ففعل ذلك ، وحلف الناس لأخيه . فلما توفى سيف الدين ، كان مجاهد الدين هو المدبر للدولة والنائب فيها ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، فركب إلى الخدمة العزية وعزاه ، وركّبه إلى دار المملكة ومشى فى ركابه راجلا ، فدخلها وجلس للعزاء . وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجرأته وحدة كانت فيه . وكان لا يلتفت إلى أخيه (٢٠٣ — أ) سيف الدين إذا أراد أمرا ، فلما ولى تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقا بالرعية ، محسنا إليهم ، قريبا منهم . فكان فى ذلك كما روى ، أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما عهد إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة ، خافه الناس لما عرفوا من شدته وفظاظته ، فقال بعض الصحابة لأبى بكر : ما تقول لربك إذا قدمت عليه وقد استخلفت علينا عمر ، فقال : أقول له استخلفت عليهم خيرهم ، فلما توفى أبو بكر وولى عمر ، رأى الناس من رقته عليهم ، ورفقه بهم ، وشفقته عليهم ما هو مشهور مدون فى الكتب .

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن العادل نور الدين

الشهيد بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر الملك شاهى(٣)

فى [رجب(٤)] من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، توفى الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكى رضى الله عنهم بمدينة حلب ، ولم يبلغ عشرين سنة .

---

(١) الإضافات من ، الكامل (حـ/٩/ص/١٥٠) .

(٢) مكان هذا اللفظ ، بالأصل : بجاهد . (والتصحيح من ، الروضتين ، حـ/٢/ص/١٨) وفى الكامل (حـ/٩/ص١٥٠) : « ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما ، والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قايماز ، ففعل ذلك » . وأن سيف الدين أعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه ، وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك .

(٣) نسبة إلى علاقة قسيم الدولة آقسنقر بالسلطان ملكشاه السجلوقى . (أنظر ماسبق ، ص/٤)

(٤) بياض بالأصل ، والإضافة من ، الكامل (حـ/٩/ص/١٥٣) .

ولما اشتد مرضه (٢٠٣ — ب) وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها، فقال: لا أفعل حتى أستفتى الفقهاء. وكان عنده علاء الدين الكاشانى الفقيه الحنفى بمنزلة كبيرة، [وكان] يعتقد فيه اعتقاداً حسناً ويكرمه، فاستفتاه، فأفتاه بجواز شربها. فقال له: ياعلاء الدين، إن كان الله سبحانه قد قرب أجلى أيؤخره شرب الخمر، قال: لا. قال: والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ماحرمه علىّ. فلما أيس من نفسه، أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين رضى الله عنه، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه. فقال بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب لعماد الدين ابن عمك لكان أحسن، ثم هو تربية أبيك وزوج أختك [وهو أيضا عديم المثل فى الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الاعراق وطهارة الأخلاق والخلال التى تفرد بها(١)] فقال: إن هذا لم يغب عنى، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى مابيدى، ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين [فإن ملكها صلاح الدين(٢)] فلا (٢٠٤ — أ) يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين، أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله. فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا(٣) صحته(٤)، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه، ومن أشبه أباه فما ظلم.

فلما توفى، أرسل دزدار حلب — وهو شاذ بخت — وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه، فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لمهم عرض، فلقى القاصدين عندها فأخبروه الخبر، فسار إلى الفرات وأرسل إلى أتابك [عز الدين] يعرفه الحال، ويشير بتعجيل الحركة، وأقام على الفرات ينتظره. فسار أتابك مجداً، فلما وصل المنزلة التى بها مجاهد الدين أقام معه، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له فسار حينئذ إلى حلب ودخلها(٥)، وكان يوما مشهودا.

ولما عبر الفرات، كان تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — بمدينة منبج، فسار عنها هاربا إلى مدينة حماة، وثار أهل حماة ونادوا بشعار (٢٠٤ — ب) أتابك، وكان صلاح الدين بمصر، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق، وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد الشامية، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكى، فلم يفعل، وقال: بيننا يمين فلا نغدر به(٦)، وأقام بحلب عدة شهور، ثم سار منها إلى الرقة فأقام بها.

---

(١) الإضافة من «الروضتين (ح/٢/ص/٢١). (٢) الإضافة من «الروضتين (ح/٢/ص/٢٢)

(٣) بالأصل: وعلموه. (٤) بالأصل: صحيته.

(٥) فى «الكامل (ح/٩/ص/١٥٤) أنه دخلها فى العشرين من شعبان من السنة. (٦) أنظر «الكامل (ح/٩/ص/١٣٧ حوادث سنة ٥٧١) تحت عنوان: «ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها».

وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولج عماد الدين ، وقال : إن سلمتم إلىّ حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ الجماعة(١) بتسليمها إليه ، وكان أكثرهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج فى تسليمها إلى عماد الدين ، فلم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه من الدولة وكثرة عساكره وبلاده ، فوافقه وهو كاره ، وسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار وعاد إلى الموصل .

وكان صلاح الدين بمصر وقد أيس من العود إلى الشام ، فلما بلغه أخذ عماد الدين حلب ، برز فى يومه (٢٠٥ — أ) عن القاهرة إلى الشام ، فلما سمع أتابك بوصوله إلى الشام ، جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين ، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه ، فلما رأى أتابك ذلك ، لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه ، إذ كان ذلك الأمير أوثقهم(٢) فى نفسه ، فعاد إلى الموصل .

وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها ، فعاد إلى حلب وحصرها ، فسلمها إليه عماد الدين وأخذ سنجار والخابور ونصيبين عوضا عنها . وكان سبب هذا جميعه تسليم حلب إلى عماد الدين ، فإنه كان مضرة محضة .

فصل فى سبب قضية القبض على مجاهد الدين قايماز وما تبعه من الوهن(٣)

فى جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، قبض المولى المرحوم أتابك عز الدين رضى الله عنه على مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى ، وهو (٢٠٥ — ب) حينئذ نائبه فى بلاده ، واتبع فى ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر فى مضرة(٤) صاحبه . وكان الذى أشار به عز الدين محمود زلف دار وشرف الدين أحمد بن أبى الخير — الذى كان أبوه صاحب بلد الغراف — وهما من أكابر الأمراء — فلما قبضه كان بيده إربل ، وشهرزور ، ودقوقا(٥) ، وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين [سنجر شاه] بن سيف الدين [غازى بن مودود] صغيرا ، والحكم فيها إلى مجاهد الدين ، وله أيضا قلعة العقر ، فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين على بإربل ، وكان فيها لاحكم له مع مجاهد الدين ، وامتنع معز الدين بالجزيرة ، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله

---

(١) الجماعة ، هم أمراء عز الدين مسعود . (٢) بالأصل : اثقهم . (٣) جاء العنوان فى «النص» مضطربا ، هكذا : فصل فى سبب قضية الذى جرت فى ذكر القبض على مجاهد بن قايماز وما تبعه من الوهن .

(٤) بالأصل : نصرة . (والتصحيح من ، الروضتين ح/٢/ص/٥٤) .

(٥) دقوقا : فى (ياقوت) : مدينة بين إربل وبغداد .

عسكرا حصر دقوقا فملكوها ، ولم يحصل للمولى عز الدين من جميع ما كان بيد مجاهد الدين إلا شهرزور ، وصارت هذه البلاد التى كانت بيده أضر شيء على الموصل . وبقى مجاهد الدين مقبوضا نحو عشرة أشهر ، وندم أتابك على قبضه فأخرجه ، وخلع عليه وأعاده إلى ولاية قلعة الموصل ، إلا أن الذى (٢٠٦ — أ) أخذ من البلاد لم يعد إلى طاعته . وقبض أتابك على عز الدين زلف دار وعلى شرف الدين أحمد ابن صاحب الغراف ، عقوبة لهما على ما أشارا به من قبض مجاهد الدين . وعلى الحقيقة فليس على الدول شيء أضر من إزالة بيشكار(١) مدبرها وإقامة غيره ، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الإنسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه ، ويكون الثانى — وإن كان كافيا — بمنزلة الطبيب الذى لا يعرف مزاج الإنسان ولا ما يوافقه ويؤذيه ، فإلى أن يعرف حاله ينفسد أكثر مما ينصلح . قال .

فى ذكر حصر الجزيرة

فى شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، سار المولى السعيد عز الدين — قدس الله روحه — إلى جزيرة ابن عمر، فحصرها وبها معز الدين سنجرشاه ابن أخيه سيف الدين غازى وهو صاحبها . وكان سبب ذلك أن معز الدين كان سيء السيرة مع المرحوم عز الدين ، خارجا عن طاعته (٢٠٦ — ب) ، مساعدا للأعداء عليه ، وينقل(٢) عنه إلى الملوك المجاورين لبلاده ما يوحشهم منه ، إلى غير ذلك من الأسباب التى بعضها يخرج الوالد عن محبة ولده ، ولم يزل المرحوم يرفق به ويستميله وينعم عليه ، وهو لا يزداد إلا سوء معاملة وأدب ، فبقى كذلك من أوائل سنة تسع وسبعين إلى الآن ، فلما طال الأمر عليه وأيس من إصلاحه ، سار إليه فحصره بها وضيق عليه ، وعزم على أخذها منه فلما نازله أدركته رقة الوالد فلم يقاتله ، بل نزل عليه من غير قتال إلا شيئا لا يبالى به المحاصر ، فبقى كذلك إلى رجب ، فلما رأى معز الدين ضعف حاله ونفاد أمواله وتغير رجاله ، خضع وطلب العفو والصفح ، فأجابه إلى ذلك وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وخرج معز الدين إلى خدمته ؛ فأحسن إليه وأنعم عليه وأمنه ، وعاتبه على ما كان يبدو منه . فاعتذر بأعذار علم المرحوم أنه غير صادق فيها ، إلا أنه تغمد إساءته بعفوه ، وزلته بصفحه عنها (٢٠٧ — أ) ، وأقره على بلده وعاد عنه إلى الموصل ، فعاد معز الدين إلى حالته الأولى فتجاوز عنه واطرحه ، وقال : ما يمنعنى عن أخذ بلده والحجر عليه ، إلا الخوف من ظن الملوك أنى فعلت هذا شرها على ما بيده ، وإلا كنت فعلت معه ما يستحقه(٣) .

---

(١) البيشكار : كلمة فارسية لها أكثر من معنى ، مثل : معاون ، ناظر ، طالب ، عاقل ، وزير . والمعنى الأخير ، هو المقصود فى « النص » . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

(٢) : بالأصل : ينتقل .

(٣) ذكر ابن الأثير فى ، الكامل ، سببا آخر لحصار عز الدين مسعود جزيرة ابن عمر ، يختلف عما هو وارد هنا . (أنظر حـ/٩/ص/٢١١)

ذكر وفاة المولى السعيد المرحوم عز الدين [مسعود] رضى الله عنه

توفى صلاح الدين يوسف بن أيوب فى السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، فلما وصل خبر وفاته إلى الموصل ، إلى المولى المرحوم عز الدين رضى الله عنه ، جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم فى الذى يفعله ، فأشار عليه أخى مجد الدين أبو السعادات(١) رحمة الله عليه ، بالإسراع فى الحركة وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه ، فقال مجاهد الدين قايماز : ليس هذا برأى أننا نترك وراءنا مثل عماد الدين صاحب سنجار ، ومعز الدين صاحب الجزيرة ، والملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ونسير ، إنما الرأى أننا نراسلهم ونستميلهم (٢٠٧ — ب) ونأخذ رأيهم وننظر مايقولون . فقال أخى : إن كنتم تفعلون مايشيرون به عليكم ويرونه فاقعدوا ، فإنهم لا يرون إلا هذا(٢) ، لأنهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوتكم ، إنما الرأى أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ، ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم ويعلمهم أنه على الحركة ، فليس فيهم من يمكنه يخالف خوفاً أن يقصد ولايته ، لا سيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام ، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعاً ، فيحملهم ذلك على موافقته ، ومتى أراد الإنسان [أن] يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله ، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم ، وإن كان العكس أحجم ، فظهرت أمارات الغيظ(٣) على مجاهد الدين ، فسكت أخى لأنه كان هو المخدوم للجميع على الحقيقة والحاكم فيهم . واتبع المرحوم عز الدين — قدس الله روحه — قول مجاهد الدين ، وأقام بالموصل عدة شهور يراسل المذكورين ، فلم (٢٠٨ — أ) ينتظم بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما ، فإلى أن انفصل الحال ، وصل الملك العادل أبى بكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك ، وجاءته العساكر من دمشق وحلب وحمص وحماة ، وامتنعت البلاد به .

وسار المرحوم عز الدين عن الموصل إلى نصيبين ، وقد ابتدأ به إسهال بنزيف(٤) ، فوصل إلى نصيبين واجتمع بها هو وعماد الدين ، وسارا فى عساكرهما إلى تل موزن(٥) من شبختان

---

(١) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى . توفى سنة ٦٠٦ . (ترجمته فى : شذرات الذهب ، ج/٥/ص/٢٢) وترجم ابن الأثير لأخيه ترجمة مختصرة ، فى « الكامل » (ح/٩/ص/٣٠٢) .

(٢) بالأصل : هكذا . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/٢/ص/٢٢٧) .

(٣) بالأصل : الغليظ .

(٤) بالأصل : قريب . (والتصحيح من ، الروضتين ح/٢/ص/٢٢٧) .

(٥) تل موزن : فى (ياقوت) : بفتح الميم وسكون الواو وفتح الزاى وآخره نون . بلد قديم بين رأس عين وسروج ، وبينه وبين رأس عين نحو عشرة أميال .

يقصدون الرها ، فأرسل الملك العادل حينئذ يطلب الصلح ، وأن تكون البلاد الجزيرية : الرها ، وحران ، والرقة وما معها بيده على سبيل الإقطاع من المرحوم عز الدين فلم يجبه إلى ذلك ، وقوى المرض به بتل موزن واشتد إلى أن عجز عن الحركة ، فعاد إلى الموصل فى طائفة يسيرة من العسكر ومعه مجاهد الدين وأخى مجد الدين ، وترك سائر العساكر مع أخيه عماد الدين ليفصل الحال (٢٠٨ — ب) ويقرر الصلح مع الملك العادل ، فلما وصل دينسر رأى ضعفاً شديداً ، فأحضر أخى وكتب وصيته ، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضاً بالإسهال ، وبقى كذلك إلى أن توفى سابع وعشرين شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة . ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله فى مرضه ، فإنه كان لا يزال ذاكراً الله تعالى ، حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً(١) ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، وأشهد [أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله(٢)] وأشهد أن الموت حق [وعذاب القبر حق ، وسؤال منكر ونكير حق ، والصراط حق ، والميزان حق(٣)] وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . ويقول لمن [عنده(٤)] يخاطبه : إشهد لى بهذا عند الله تعالى ، ثم يعود إلى حديثه . وأحضر عنده من يقرأ (٢٠٩ — أ) القرآن ، فلم يزل كذلك إلى أن توفى رضى الله عنه . وأصاب الناس من رعاياه كلهم بموته فجيعة لم يصبهم مثلها ، وأظهروا من الغم والحزن مالا كان يظنه أحد . ودفن بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة . وكان عمره . . . .(٥) . وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر . وكان أسمر ، مليح الوجه ، حسن اللحية ، خفيف العارضين . وحكى لى والدى ، قال : هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه . وكان ربعة إذا مشى ، فإذا ركب لم يعله(٦) أحد .

ذكر شىء من سيرته رحمه الله تعالى

كان رضى الله عنه لين الجانب ، كريم الأخلاق ، كثير الإحسان إلى الناس ، يتعهدهم(٧) بالنفقات والسؤال عن أحوالهم ، لاسيما من يعلم أن له خدمة متقدمة فى دولتهم ، فإنه كان يعظمه ويحترمه ويعلى محله ، فمن ذلك أنه كان فى دولته الأمير بهاء الدين على بن الشكرى — وكان رجلا (٢٠٩ — ب) كبيراً له خدمة سالفة — ، فكان يبالغ فى احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالكرة ، يعطيه من دوابه الخاص ما يركبه ويلعب عليه . ومن ذلك أيضاً ، أنه لما عاد من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين ، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد ، ونزل

---

(١) : بالأصل : مرا . (٢) بياض بالأصل . والإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) .
(٣) بياض بالأصل . والإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) . (٤) الإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) .
(٥) بياض بالأصل . (٦) بالأصل : يعليه . (٧) بالأصل : يتعدهم .

هو فى المغرقة(١) فى الكشك الذى بالميدان ، ونزل الناس متفرقين . وكان فى جملة الواصلين معه ، أخى مجد الدين رحمهما الله تعالى ، وكان ينزل بالقرب منه ، فنصبت خيمة(٢) أخى بزاوية الميدان من داخله ولم يدخل الموصل ، فخرجت أنا إليه أبصره ، فركب المرحوم عز الدين رضى الله عنه فرأى الخيمة ، فاستدعى أخى وقال له : أرى خيمتك ههنا . قال : لأنك رسمت أن لا يدخل أحد . قال : إلا أنت ، فإن والدك أثير الدين له مدة ما رآك ، ولاشك أنه قد اشتاقك ، فتدخل إليه وتسلم عليه وتسأله الدعاء ، ولاتجىء إلينا إلى ثلاثة أيام ، فامتنع من ذلك ، وقال : أنا أبصره وأعود إلى الخدمة ، فلم يرخص (٢١٠ — أ) له فى ذلك ، وألزمه بقصد والده والإقامة عنده . فانظر إلى هذا الرفق واللطف الذى لا يفعله الإنسان إلا مع أهله لا سيما الملوك .

وكان رحمه الله تعالى حييا كثير الحياء ، كما قيل ، أشد حياء من العذراء فى خدرها ، لم يحدث أحداً قط إلا وهو مطرق . فمن حيائه(٣) أنه أمر طائفة من عسكره بالتجهز للغزاة ، وكان فيهم مملوك لم يكن له محل ، إنما هو بمفرده ، فحضر فى خدمته ، وقال : لى مهم أريد [أن] أقوله ، فأذن له فى القول ، فقال : بلغنى إننى فى جملة العسكر المسير إلى الغزاة ، وعجبت من مولانا كيف يسمح بمثلى ويرسلنى ويبعدنى عن خدمته ، ولاشك أن المولى لا يعرف محلى ، وإلا فما كان أمر بذلك . فقال له : صدقت ، مثلك لاينبغى أن يفارقنا مع علو محلك وارتفاع قدرك . فلما خرج من عنده أظهر الإنكار ، وقال : قد صار مثل هذا المدبر المنحوس يقول لى هذا القول ، ومن هو وما محله وقد سيرنا فى هذه الغزاة (٢١٠ — ب) جماعة من أكابر الأمراء ، أليس له بهم أسوة . فقال له بعض الحاضرين : لم لا أمر المولى بتأديبه وإقامته من خدمته ، وكيف استمع حديثه . فقال : إستحيت منه ، فقالوا : أفلا تؤدبه(٤) وتعرفه ذنبه . فقال : قد أحسن الظن بنفسه فلا نعاقبه عليه .

وكان رحمه الله رفيقاً رقيق القلب ، كثير الرحمة لرعيته . حكى عنه أخى مجد الدين رحمه الله تعالى ، أنه ركب يوماً فقال له ولمن معه : إننى هذه الليلة ما نمت إلى سحر . فقالوا له : وما سبب ذلك ، قال : كنت سمعت أن ابن فلان مريض — وذكر إنساناً بائعاً(٥) بالموصل — فلما كان الليلة سمعت صوت مأتم ، فظننت أنه توفى فضاق صدرى — وكان بلغنى أنه ليس لأبويه غيره — فشق ذلك علىّ ، وقمت من الفراش إلى أطراف السطح ، لعلى أعلم من هو الميت ، فطال الأمر إلى ثلث الليل الأخير ، فقلت : لم أعذب نفسى ، فأرسلت خادماً وفتح أبواب الدار وأرسل من الأجناد من يستعلم لنا من الميت ، فعاد وذكر أنه شخص لم أعرفه ، فحينئذ (٢١١ — أ) نمت . فاعجب لهذه الشفقة والرقة على رجل من الرعية ليست له صحبة ولا خدمة .

---

(١) هكذا بالأصل : ولعلها : الغرفة . (٢) بالأصل : خيمته . (٣) بالأصل : حياؤه .
(٤) بالأصل : فلا تؤذونه . (٥) بالأصل : بيعا .

قال . وكان رحمة الله عليه دينا خيراً ، قد ابتنى فى داره مسجداً فيخرج إليه فى الليل ويصلى فيه أوراداً كانت له ، ولبس فرجية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائى الصوفى ويصلى بها ، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائى المذكور ، وكان من الصالحين .

وكان رضى الله عنه يقوى يد من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . كان بالموصل رجل من الفقراء الأخيار من باجبارى(١) اسمه حرب، فكان كثيراً ما(٢) يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاجتاز يوما على الجسر فلقى دوابا تحمل الخمر لإنسان هو أقرب الناس إلى المرحوم عز الدين وأخصهم به ، فألقاه الفقير عن الدواب وأراقه بعد أن ضُرب ، فبلغ الخبر إليه ، فأحضر الفقير وأمره بإزالة جميع ما يراه من المنكرات وأطلق يده ، وأنكر على ذلك الأمير وأمره (٢١١-ب) بإحضار غلمانه الذين ضربوا الفقير ، فبعد الجهد أن تركهم .

وكان رحمه الله تعالى يأمر بالإنتصاف(٣) من أقرب الناس إليه وأعظمهم منزلة عنده ، ويقوى يد صاحب الحق . فمن ذلك أنه كان بالموصل إنسان من أعيان الدولة ، وهو مع ذلك يتولى أمر الخاتون والدة المرحوم رضى الله عنه ، وله بها أعظم جاه وأعلى منزلة ، ولها به أتم عناية وأكثر حماية لقديم خدمته ، وكان له قرية تجاور قرية لإنسان عجمى مقيم بالموصل ، فأخذ شيئاً من أرض قرية العجمى وطال النزاع بينهما ، ففى بعض السنين جاء إلى الموصل واعظ ، فأحضره المرحوم عز الدين بداره ليعظ عنده ، وأمر أن لا يحجب أحد ، فاجتمع عالم كثير ، فتكلم ذلك الواعظ ، فقام ذلك العجمى وصاح واستغاث وبيده رقعة يشكو بها حاله ، فأمره السعيد عز الدين بالجلوس إلى أن يفرغ المجلس ، فلما فرغ جلس ، وأحضر القاضى وأمره بالحكم بمقتضى الشريعة (٢١٢-أ) المطهرة فحكم بينهما ، فظهر الحق للعجمى ، فأمر [عز الدين] الحاكم بالإسجال له والإثبات لحقه والإشهاد عليه به ، وأرسل معه أوصل حقه [إليه] وأسخط والدته فى اتباع الحق .

وكان رضى الله عنه حليما ، فمن حلمه ، أن إنساناً فقيراً من أهل الموصل من أصحاب الزوايا بظاهر البلد ، لما وصل صلاح الدين يوسف ابن أيوب الموصل [محاصراً لها(٤)] إجتمع به وأكثر التردد إليه وأخذ صلته ، وقال : ما تحتمل الملوك بغضة إلى أحد . فلما عاد صلاح الدين ، أحضر المرحوم عز الدين هذا الفقير وأنكر عليه ، وأمر بتخريب زاويته ، ثم أحضره بعد أيام واعتذر إليه واستحله ، وأعطاه مائة دينار وأمره بتجديد زاويته ، وقال : إن أردت شيئاً(٥) آخر أنفذه(٦)

---

(١) نسبة إلى قرية «باجبارة» . وفى (ياقوت) : هى قرية فى شرقى مدينة الموصل على نحو ميل . وهى كبيرة عامرة فيها سوق . (٢) بالأصل : مما . (٣) بالأصل : بالانصاف . (٤) حاصر صلاح الدين الموصل ثلاث مرات . الأولى فى سنة ٥٧٨ ، والثانية والثالثة فى سنة ٥٨١ . (٥) بالأصل : شيء . (٦) بالأصل : انفذ .

لك ، فعمر غير زاويته وأكبر منها وأحسن ، وغرم عليها جملة وافرة ، وكلما فرغ بالنفقة أنفذ له شيئاً آخر إلى أن فرغت ، وكان بعد ذلك يتردد إليه ويزوره ويواصله بالعطاء ، وكان يتردد (٢١٢ — ب) إلى الصالحين ويزورهم ويصلهم .

قال . وهو الذى ابتنى المدرسة الغربية بباب دار المملكة، وهى مدرسة حسنة ، جعلها للفريقين الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ماليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء ، والدعوات فى المواسم والأعياد ، والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك ، وقرر فى وقفها من الصدقات كل أسبوع وفى الأيام الشريفة والليالى المباركة شيئاً كثيراً .

وهو الذى فتح الباب الغربى فى الموصل — وهو بين باب كندة وباب العراق — ولم يكن هناك باب فجاء حسناً ، وانتفع به أهل ذلك الصقع .

فى ذكر ملك ولده السعيد نور الدين بن عز الدين

ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى

قد ذكرنا عود المرحوم — قدس الله روحه — من تل موزن مريضاً وأنه كتب وصيته بدنيسر . وكان فى جملة الوصية أنه أوصى بالملك لولده المولى نور الدين أرسلان شاه ، قدس الله روحه ، وأوصى بغير ذلك . وكان الوصى فيهاد مجاهد (٢١٣ — أ) الدين قايماز ، رحمه الله تعالى . فلما وصل إلى الموصل وهو مريض ، أرسل إليه أخوه شرف الدين بن قطب الدين مودود يطلب أن يجعل الملك له ، وأرسلت أيضاً والدته الخاتون فى المعنى وبالغت ، لأن شرف الدين أيضاً ولدها ، وجمعا لهما جموعاً وجندا ، وأظهر شرف الدين أن أحداً لا يقدر يملك الموصل معه ، وحدث نفسه بشىء ظنه حقاً ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون(١) ﴾ وقال شرف الدين : إن ملكنى أخى بعده ، وإلا أثرت فتنة فى البلد وأخذته قهراً ، فإن عجزت سرت إلى الملك العادل بن أيوب . وأرعد وأبرق . وكان عمر المولى المرحوم نور الدين ـ قدس الله روحه ـ حينئذ نحو عشرين سنة ، وهو ينظر إلى عمه ويظنه يفعل ما يريد . وكان الملك العادل سيف الدين بن أيوب حينئذ قد نزل نصيبين ، فلهذا قوى جنان شرف الدين ظناً منه أن أخاه يملكه إذ هو كبير [البيت(٢)] ليقوم برد العادل عن نصيبين ، فخاب ظنه (٢١٣ — ب) فقال عز الدين لمجاهد الدين ليحلف الناس لولده نور الدين ، وقال : أخاف أن

---

(١) سورة الصف : ٨

(٢) الإضافة من ابن واصل (ح/١/ص/٢٣) .

أموت وليس لكم مَلكٌ مستقل بالملك والعادل فى البلاد ، فيحدث ضرر لايمكنكم تلافيه ، فلم يقدِم مجاهد الدين على ذلك خوف الفتنة ، وكان يحب السلامة ، فأرسل إلى شرف الدين يأمره ويشير عليه بأن يحلف لولد(١) أخيه ووعده الزيادة [فى الاقطاع] فلم يجب إلى ذلك وتهدد وقال . فتوقف مجاهد الدين فى تحليف الناس . ثم إن المرحوم نورالدين ، رضى الله عنه ، أرسل إلى أخى مجد الدين ـ رحمه الله ـ مع خادم لوالده ، وهو أمين الدين يمن ، يطلب منه أن يشير على مجاهد الدين بتحليف الناس له وترك التوانى فيه ، ووعده الزيادة والإقطاع وتمليك القرايا ، وأرسل إليه معه خاتماً ، فرد الخاتم ، وقال : خاتم المولى إنما يعطى على بلاد ، وأما هذا الأمر اليسير فهو أحقر من أن يؤخذ عليه خاتمه — وكان أخى هو الذى يصدرون عن رأيه على ما شاهده الناس — وأما ما رسمت به فأنا مشدود الوسط فيه (٢١٤ — أ) ، ولا يشكرنى المولى على هـذا ، فإننى أفعله خدمة لوالدك الذى أنا فى خدمته إذ هو هـكذا يريد ، ولو أراد غيره لاتبعته ولم يبد منى إلا ما يوافق غرضه والمصلحة له ولدولته ، وأنا أشكر الله تعالى حيث إرادة والدك موافقة لإرادتك ، فأنا(٢) خدمت خدمة وافقت الغرضين ، وأماماوعدت به من إنعام وزيادة مرسوم ، فليست لى رغبة فى شىء من هـذا ، فلى من نعمتكم ما يفضل عنى . ثم ركب من وقته واجتمع بمجاهد الدين بالقلعة فرآه مفكراً ، فشكى إليه مجاهد الدين وقال : هذا شرف الدين يريد الفتنة ، والمولى عز الدين يريد ولده ، والعادل بنصيبين ، والفتنة قد رفعت رأسها . فبينماهما فى الحديث ، وإذا قد جاء قاصد من المرحوم عز الدين يقول لمجاهد الدين : قد ضجرت مما أقول لك لتحلف الناس لولدى وأنت(٣) تهمل الأمر والعدو بالقرب منكم وانتم بغيرسلطان ، وأنا فما أظن أننى أعيش يوما آخر فما تنتظر . فتضجر مجاهد (٢١٤ — ب) الدين ، وأعاد ما كان يقوله لأخى من الشكوى . فقال له أخى : أنت تفعل هـــذا جميعه بنفسك والدولة(٤) معك ولو شئت لم يكن منه شىء ، والرأى أن تأمر بإحضار الأمراء ، وأرباب المناصب ، والمقدمين ، وأعيان البلد وتحلفهم لولده كما يريد ، فإذا فعلت هذا ، حينئذ يندم شرف الدين وما عسى أن يفعل ، وإن بدا منه ما يخالف هذا ، أخذناه قهراً ووكلنا به ، ومهما الأمر على هذه الحال بغير يمين لنور الدين ، ولا يركب ليراه الناس ، ويعلموا أن لهم سلطاناً ، لا نزال مع شرف الدين مصدعين . فأمر مجاهد الدين باستدعاء الجماعة الذين ذكرهم أخى فحضروا ، وحلفوا بالنسخ التى كتبها أخى ـ رحمه الله ـ لهم ، وحلف مشايخ المحال وعرفاء(٥) الأسواق ، فسمع من جمعهم شرف الدين فخافوا وتفرقوا عنه ، فأرسل إلى مجاهد الدين يعاتبه(٦) حيث حلف الناس قبله ، وقال : أردت أن أخدم المولى نور الدين وأتولى

---

(١) بالأصل : لولده . (٢) بالأصل : فاذا . (٣) بالأصل : وان .
(٤) بالأصل : وبالدولة . (٥) بالأصل : عرف .
(٦) بالأصل : يعاتب .

القيام بأمره (٢١٥ — أ) ثم إن مجاهد الدين ركّب السعيد نور الدين من الغد فى موكب والده ، وحمل السنجق على رأسه ، ومشى مجاهد الدين فى ركابه راجلا قد حمل الغاشية ، فلم يلبث المرحوم عز الدين بعده غير يومين حتى توفى رضى الله عنه وأرضاه . واستقر السعيد نور الدين — قدس الله روحه — ولم يتغير بالناس حال ، ورعى هذه الخدمة لأخى رحمه الله تعالى فكان عنده واحد دولته ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، ولم يزل كذلك إلى أن فرق الموت بينهما رضى الله عنهما .

ذكره وفاة عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود

فى [المحرم(١)] من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، توفى الملك العادل عماد الدين زنكى ابن السعيد أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكى بن آقسنقر رضى الله عنهم ، صاحب سنجار ونصيبين والخابور وقد تقدم كيف ملكها ، وكان عمره . . . .(٢) . وولى بعده ابنه (٢١٥ — ب) قطب الدين محمد ، وتولى تدبير(٣) دولته مملوك والده ، مجاهد الدين يرنقش ، وكان دينا خيراً ، إلا أنه كان شديد التعصب(٤) على مذهب الشافعى رضى الله عنه ، يكثر ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم . فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنفية(٥) بسنجار ، وشرط أن يكون النظر فى وقوفها إلى الحنفيين(٦) من أولاده دون الشافعيين ، وهذا غاية التعصب .

ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين

فى [جماد الأولى(٧)] من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، سار المولى السعيد نور الدين أرسلان شاه إلى مدينة نصيبين — وهى لقطب الدين [محمد(٨)] ابن عمه عماد الدين — فملكها . وسبب ذلك أن عمه عماد الد زنكى ، رحمه الله ، كان له نصيبين ، فتطاول نوابه بها ، واستولوا على عدة قرايا من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل ، وهى تجاور(٩) ولاية نصيبين .

فبلغ الخبر إلى مجاهد الدين قايماز ، فلم يعلم مخدومة نور الدين الخبر ، لما يعلم من علو همته (٢١٦ — أ) وإبائه ، فخاف أنه ربما حمله الغيظ على أن يبدو منه مايوجب اختلافا بينه وبين عمه ، فأرسل من عنده رسولا إلى عماد الدين فى المعنى وقبح هذا الفعل ، وقال: لا شك أن النواب قد

---

(١) بياض بالأصل . والإضافة من ، الكامل (حـ/٩/ص/٢٣٩) . (٢) بياض بالأصل .
(٣) بالأصل : بتدبير . (٤) بالأصل : الغضب . (والتصحيح من ، الكامل، حـ/٩/ص/٢٣٩) .
(٥) بالأصل : للحنيفية . (٦) بالأصل : الحنفين . (٧) بياض بالأصل . والإضافة من ، الكامل (حـ/٩/ص/٢٤٠) . (٨) الإضافة من الكامل (حـ/٩/ص/٢٤٠) .
(٩) بالأصل : وهو مجاور . (والتصحيح من ، الكامل (حـ/٩/ص/٢٤٠)

فعلوا هذا بغير أمره . فأعاد الجواب : إنهم لم يفعلوا [إلا] ماأمرتهم به ، وهذه القرايا هى من أعمال نصيبين ، ولم يُعدها . فرد مجاهد الدين برسالة(١) ثانية يقول له : ماتساوى(٢) هذه وأضعافها أن تخرج ولذلك نور الدين عن يدك ، فإنه إلى الآن ما خالفك فى شىء ، وما أعلمته بهذه الحال لعلمى أنه لا يصبر عليها ، وليس هو مثل والده [وأخاف(٣)] إن علم [أن] يخرج الأمر عن يدى ولا أقدر أمنعه . فلم يلتفت عماد الدين [إليه] فحينئذ أنهى مجاهد الدين الحال إلى السعيد نور الدين، فغضب لذلك وأنكر [عليه] حيث لم يعلمه أولا وقال : وهذا هو الذى أطمعه ، ثم أحضر أميرا من مشايخ دولتهم ، يقال له بهاء الدين على بن الشكرى [وهو] من خدم الشهيد رضى الله عنه ، وأرسله إلى عماد الدين يقول: قد بلغنى كذا وكذا ،وأن (٢١٦ — ب) مجاهد الدين راسلك مرتين ولم ترد ملكنا إلينا ، فلو أنك أرسلت تطلب جميع الولاية وغيرها لكان أحب الأشياء إلىّ ، وأما أن(٤) تأخذ منى قرية واحدة مراغمة لى واطراحا لجانبى فلا أصبر على هذا، فتأمر بإعادتها قولا واحداً .

فمضى الرسول فأدى الرسالة وعماد الدين قد مرض ، فاغتاظ من ذلك وامتنع من الإجابة . فقال الرسول من عنده نصحاله ، وأشار عليه بالمصلحة ، لأنه كان عند جميع البيت الشريف الأتابكى مقبولا ، فلم يصغ إلى قوله ، وقال ما جرت العادة أن تقوله المرضى . فعاد الرسول إلى الموصل وأخبر مجاهد الدين جلية الحال ، فأمره أن يكتم ما يغيظ نور الدين ، فلم يفعل وحكى للمرحوم نور الدين جلية الحال ، فغضب وعزم على المسير إلى نصيبين وملكها ، ومجاهد الدين يمنعه . فتوفى عماد الدين والحال على ذلك فجلس للعزاء .

ثم أرسل إلى قطب الدين محمد بن عماد الدين فى المعنى ، فلزم ما كان والده عليه ، فسار حينئذ نور الدين عن الموصل (٢١٧ — أ) إلى نصيبين ، فلما سمع قطب الدين [بذلك] سار عن سنجار فى عساكره فسبقه إليها ونزل بظاهرها ، وعزم على منعه من النزول عليها ومن محاصرتها ، فلما وصل نور الدين ، لم يعبأ بقطب الدين وتقدم إلى البلد ، وكان بينه وبين قطب الدين نهر ، فلما قرب نور الدين [من] النهر ، عبر الأمير فخر الدين عبد الله بن عيسى المهرانى النهر(٥) — وهو من أكبر الأمراء النورية — وقاتل من بإزائه ، فلم يثبتوا له ، وعبر العسكر النورى وقد تمت الهزيمة على قطب الدين ولم يقاتله غير فخر الدين عبد الله ، واحتمى هو ونائبه مجاهد الدين برنقش وغيرهما بقلعة نصيبين ، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلى ديار بكر ، ثم منها إلى حران ،

---

(١) بالأصل : رسالة . (٢) بالأصل : تستاوى . (٣) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) .

(٤) بالأصل : بان . (٥) بالأصل : بالنهر .

وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها(١) — وكان بدمشق — وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد إليهم نصيبين . وأقام أتابك نور الدين بمدينة نصيبين ، فمرض كافة أمرائه وأكثر عساكره فعادوا إلى الموصل وتوفى أكثرهم ، وأقام هو بنصيبين (٢١٧ — ب) وقد تضعضع العسكر بعود الأمراء وكثره الأمراض . ووصل الملك العادل إلى الديار الجزرية ، فحينئذ فارق السعيد نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل [فى رمضان(٢)] لاستيلاء المرض على كافة العسكر وعودهم ، فلما فارقها تسلمها قطب الدين بن عماد الدين .

وتوفى جماعة من الأمراء المواصلة ، منهم عزالدين جورديك ، وفخر الدين عبد الله بن عيسى ، وشمس الدين عبد الله بن ابراهيم المهرانيان وظهير الدين (يولق(٣)] بن بلنكرى الذكرى ، ومجاهد الدين قايماز ، وجمال الدين محاسن وغير من ذكرنا . وأما من هو أقل من هذه الطبقة فلا نطول الكتاب بذكرهم فهم كثير .

ولما عاد المرحوم نور الدين إلى الموصل ، قصد الملك العادل بن أيوب قلعة ماردين لحصرها واستولى على ربضها ، وحصر القلعة وضيق على من بها ولم يبق غير ملكها ، فأنقذها الله تعالى على يد نور الدين على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة مجاهد الدين(٤) قايماز

رحمه الله تعـــالى (٢١٨ — أ)

فى [ربيع الأول(٥)] من سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، توفى مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى بقلعة الموصل ، وهو متوليها والحاكم فى الدولة الأتابكية النورية . وكان ابتداء ولايته القلعة فى ذى الحجة من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فأعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه على ما ذكرناه ، وبقى إلى الآن . وكان أصله من القرادى من أعمال شبختان وأخذ هو منها طفلا . وكان عاقلا ، دينا ، خيراً ، فاضلا ، يعلم الفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه . ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيراً ، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة . وكان يكثر الصوم ، وكان يصوم رجب وشعبان ورمضان ، وشيئا من شوال ، وعشر ذى الحجة ، وعشر المحرم ، وكل اثنين وخميس ، والأيام البيض من كل شهر إلى غير ذلك . وكان له ورد يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة .

---

(١) بالأصل : وغيرها .
(٢) الإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) .
(٣) الإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) .
(٤) بالأصل : مجاهدين .
(٥) بياض بالأصل . والإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٢٤٨) .

(٢١٨ — ب) وبنى عدة جوامع منها الذى بظاهر الموصل ، وبنى عدة خانقاهات ، منها التى بالموصل ، ومدارس ، وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح . ومناقبه كثيرة فلا نطول بذكرها لئلا نخرج عن ماقصدناه من الاختصار .

ذكر مافعله المرحوم نور الدين عفى الله عنه [بماردين]

فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة فى رمضان ، سار الملك السعيد نور الدين — قدس الله روحه — إلى ماردين لإزاحة العسكر العادلى عنها وإبقائها على صاحبها حسام الدين [يولق أرسلان ابن إيلغازى بن أرتق(١)] ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل حصرها فى العام الماضى على ماذكرناه ، فبقى محاصرا لها أحد عشر شهرا ، فعدمت الأقوات وغيرها بها ، وأصاب أجنادها مرض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام ، ولم يبق غير الاستيلاء عليها . فبينما الملك العادل يحاصرها ، إذ توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية ، وكان عسكره مع عمه الملك (٢١٩ — أ) العادل على ماردين . فلما توفى ، ملك بعده أخوه الملك الأفضل على بن صلاح الدين ، وكان بينه وبين عمه نفرة قد ذكرناها فى المستقصى .

فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصرى الذى مع عمه يأمرهم بمفارقته والعود إلى مصر فعادوا ، فقل جمعه وعسكره . إلا أن أهل ماردين قد ضعف من بها واستكانوا ، ولم ينفعهم قلة العسكر عليهم ، لأن الراجل كان كثيرا ويكفى فى حصرهم .

ثم إن الملك الأفضل أرسل إلى السعيد نور الدين يطلب منه الموافقة على الملك العادل فأجاب إلى ذلك ، وخرج الأفضل من مصر عازماً على حصر دمشق واستعادتها من عمه ، لأنه كان أخذها منه ، فلما سمع الملك العادل الخبر ، سار عن ماردين جريدة فى نفر يسير إلى دمشق ليحفظها من الأفضل ، وترك ابنه الكامل محمد مع العسكر على ماردين يحاصرونها .

وبرز المرحوم نور الدين عن الموصل وسار إلى ماردين أواخر شعبان (٢١٩ — ب) ، ووافقه قطب الدين ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين ، ووافقه أيضاً معز الدين ابن عمه سيف الدين — وهو صاحب جزيرة ابن عمر — فساروا ، فلما وصلوا إلى ماردين نزلوا أسفل جبلها ، وشرع نور الدين بجمع الرجالة ليزحف إلى ربض ماردين ويقاتل العسكر العادلى(٢) من تحت ويقاتلهم أهل ماردين من فوق ، لعلهم يظفرون بهم ويزيلونهم قهراً ومكابرة ، مع تعذر الصعود فى الجبل إلى الربض ، إنما همته كانت عظيمة لا يعتقد أنه يعجزه شىء . فاتفق أن العسكر

---

(١) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٢٤٢) .

(٢) بالأصل : العادل .

العادلى نزل عن الربض إلى قتال العسكر(١) النورى ، ونزل(٢) الرجالة فى الربض ليمنعوا أهل القلعة من النزول ، فجاء أمر لم يكن فى الحساب ، فالتقوا واقتتلوا .

وكان قطب الدين صاحب سنجار قد واطأ العسكر العادلى على أن ينهزم بين أيديهم ولم يعلم بذلك أحداً ، فقدر الله تعالى ، أنه لما نزل العسكر العادلى واصطفت العساكر ، ألجأت (٢٢٠ — أ) قطب الدين الضرورة والزحمة إلى أن وقف فى شعب بجبل ماردين ، ليس إليه طريق للعسكر العادلى ، ولا يرى الحرب بينهم وبين العسكر النورى لينهزم ، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له ، والتقى العسكران واقتتلوا واشتد القتال ، وكان السعيد نور الدين فى القلب وإلى جانبه(٣) أخى مجد الدين على بغلة ، فقال له : فى مثل هذا اليوم تركب بغلة . فقال : الساعة نأخذهم برقابهم إن شاء الله تعالى ، فحمل العسكر العادلى على القلب النورى فتزحزحوا عن موقفهم قليلا ، فقال أخى للسعيد نور الدين : تقدم قليلا ليراك الناس فيتقدموا وتشتد أنفسهم ، فأخذ الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخى به إلا وقد حمل ، قال أخى : ولقد ندمت حيث قلت له ليتقدم حيث لم ينفعنى الندم ، فحين رآه الناس قد حمل ألقوا نفوسهم على [العساكر] العادلية فأخذوهم باليد ، وانهزم الباقون مصعدين (٢٢٠ — ب) فى الجبل إلى الربض ، وحمل الأسرى إلى بين يدى نور الدين ، فرأى فيهم أميراً(٤) من أعيان العسكر وهو مكشوف الرأس ، فقام إليه واعتنقه ، وأخذ شيئاً(٥) كان على رأسه فألبسه إياه بيده وأقعده إلى جانبه ، وأحسن إلى المأسورين جميعهم ووعدهم الإطلاق إذا فرغوا من أمر ماردين .

وأما الملك الكامل والعسكر الذين معه ، فإنهم لما جنهم الليل رحلوا عن ماردين ، فتقطعوا فى ذلك الجبل وساروا نحو(٦) ميافارقين ، وأصبحت الأرض منهم بلقعاً لا أنيس بها ، وأتى الخبر إلى السعيد نور الدين رضى الله عنه ، فقال له بعض أصحابه : إصعد إلى الربض فليس دون ملك القلعة مانع لضعف من بها فتملكها صفواً عفواً ، ويكون هذا الموضع المثل : رب ساع لقاعد . فقال : حاشا لله أن يتحدث الناس عنى أن ناساً اعتضدوا بى واستنصرونى فأغدر بهم . ثم قال لأخى مجد الدين وهو عنده : ماتقول . فقال : الغادرون كثير (٢٢١ — أ) وقد أودعت الكتب غدراتهم فهى باقية إلى يوم القيامة ؛ وإنما لم يؤرخ عن أحد من الناس أنه قدر على مثل ماردين وتركها وفاء وإنعاماً وإحساناً . قال ، فقال لى : أرسل إلى صاحب ماردين ليرسل نوابه إلى ولايته وقراياه — وكان قد أقطعها للعساكر التى معه وأمر بكف أيديهم عنها وتسليمها إلى صاحبها — قال : فقلت له : إن أصحابنا لم يأخذوا درهما واحداً لتأخر إدراك الغلات ، فلو بقى الإقطاع بأيديهم

---

(١) بالأصل : عسكر . (٢) بالأصل : وترك . (٣) بالأصل : الجانبه .
(٤) بالأصل : أمير . (٥) بالأصل : شىء . (٦) بالأصل : نحوا .

إلى أن يأخذوا منها(١) ما ينفقون(٢) منه(٣) على بيكارهم(٤) لكان مصلحة . فقال: لانكدر إنعامنا وإحساننا إليهم ، ونحن نكفى أصحابنا . قال : فأرسلت إلى صاحب ماردين ليتسلم بلاده فتسلمها وأرسل اليها النواب . وهذه سيرة لم يؤرخ عن أحد من الناس مثلها .

وكان فى عزمه المسير إلى حران وما والاها من البلاد الجزرية للاستيلاء عليها ، فمرض وعاد إلى الموصل، ولوسار اليها لملكها ، لأن الملك الكامل وعسكره لما فارقوا ماردين قصدوا ميافارقين (٢٢١ — ب) لعلمهم أن السعيد نور الدين يقصد البلاد الجزرية ، فأبعدوا عنها خوفاً منه .

ذكر عوده رضى الله عنه إلى بلاد
العادل والصلح بينهما

قد ذكرنا فيما تقدم عود المولى السعيد نور الدين رضى الله عنه عن ماردين مريضاً ، فلما وصل الى الموصل بقى أياماً ثم عوفى ، فلما قوى ، عاد وجمع عسكره وسار الى البلاد الجزرية التى بيد العادل فى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وعزم على حصرها ، وكان بها حينئذ الملك الفائز ولد الملك العادل ومعه عسكر كثير قد سيرهم والده اليه لحفظ(٥) البلاد من نور الدين ، فلما وصل الى رأس عين ، جاءته رسل الفائز ورسل من معه من أكابر الأمراء يرغبون فى الصلح ويشيرون به ، فاقتضت المصلحة إجابتهم إلى ما طلبوا فصالحهم على ما بأيديهم ، وضمنوا [له] أن يحلفوا له الملك العادل وحلفوا له على ذلك ، فأرسل الى العادل بالذى تقرر ، وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده لحلف له (٢٢٢ — أ) واتفقا واستقرت القواعد وأمنت البلاد ، وعاد السعيد نور الدين إلى الموصل [فى ذى القعدة من السنة(٦)] .

فى ذكر حصر العادل مدينة(٧) سنجار وما فعله المولى نور الدين
فى حفظها وضبطها

فى سنة ست وستمائة ، سار الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام إلى سنجار فى عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر لحصرها وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين — وهو

---

(١) بالأصل : منهم . (٢) بالأصل : ينقون . (٣) بالأصل : به .
(٤) البيكار : لفظ فارسى ، يرسم هكذا : پيگار . وله أكثر من معنى ، منها : الحرب ، وهو المعنى المقصود هنا . (أنظر ، المعجم فى اللغة الفارسية) .
(٥) بالأصل : يحفظ . (٦) الإضافة من الكامل (ج/٩/ص/٢٠٥) .
(٧) بالأصل : الامدينه .

ابن عم المرحوم نور الدين قدس الله روحه — فأرسل قطب الدين ولده إلى الخدمة النورية مستجيراً ومستنصراً، ثم سار إلى إربل، إلى الملك المعظم مظفر الدين [كوكبرى(١)] فى المعنى، فأرسلا إلى العادل يشفعان فى أمر سنجار ويطلبان إبقاءها على صاحبها وترك التعرض إليها، فاعتـــذر عن الإجابة، وذكر لصاحبها ذنوباً تقتضى قصده وحصره، فجمع السعيد نور الدين عساكره، ووصل إليه الملك المعظم مظفر الدين فى عساكر إربل وشهرزور وأعمالها، واجتمعا بالموصل بعد طول افتراق، واتفقا بعد (٢٢٢ — ب) اختلاف، ووثق(٢) كل واحد منهما بصاحبه وثوقاً لامزيد عليه، إلى حد أن مظفر الدين كان يبيت(٣) فى قلعة الموصل ونور الدين بظاهرها فى المعسكر، وهذا غاية الائتلاف والاتفاق، وعزما على المسير إلى سنجار ولقاء العادل ومحاربته، وإنما منعهما عن ذلك، أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أعز الله سلطانه، أرسل رسولا، وهو بهاء الدين بن الضحاك أستاذ الدار العزيزة فى إصلاح الحال، وناهيك بهذا شرفا وجلالة وقدراً لنور الدين عند أمير المؤمنين، إذ ينفذ مثل أستاذ داره العزيزة ليسعى فى أغراضه، فأشار بهاء الدين بترك الحرب، وقال: أى الطائفتين انهزمت، كان وهذا عظيما فى الإسلام لايجبر وخرقا لايرقع. فسمعا وأطاعا، وسار إلى سنجار واجتمع بالعادل، وجرت أمور، وترددت الرسل، واستقرت القاعدة على الصلح وإبقاء سنجار على قطب الدين فرحل العادل عنها(٤).

(٢٢٣ — أ) ذكر وفاة المولى السعيد نور الدين

قدس الله روحــه

توفى المولى السعيد نور الدين — قدس الله روحه ونور ضريحه — فى(٥) رجب من سنة سبع وستمائة. وكان كثير الأمراض منحرف المزاج، واختلف الأطباء فى مرضه الذى توفى به، فقيل لوث مزاج، وقيل قرحة وقيل غير ذلك. تنوعت الأسباب والداء واحد.

وكان رضى الله عنه قوى النفس فى مرضه، لم يغفل عن تدبير الملك وسياسته إلى أن فارق الدنيا. ولما اشتد مرضه انحدر فى شبارة إلى الحامة(٦) المعروفة بعين القيّارة فلم يجد بها راحة،

---

(١) الإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٣٠١). (٢) بالأصل: رونق. (٣) بالأصل: بيت.

(٤) ذكر ابن الأثير فى الكامل، (ح/٩/ص/٣٠١) أن سبب حصار الملك العادل سنجار. أن نور الدين اتفق مع العادل على الاستيلاء على بلاد كل من قطب الدين صاحب سنجار ومعز الدين محمود صاحب جزيرة ابن عمر، على أن تكون بلاد قطب الدين للعادل، وبلاد معز الدين لنور الدين، فسار العادل إلى بلاد الجزيرة واستولى على الخابور، ولما حاصر سنجار، خاف نور الدين منه فنقض الاتفاق معه، وانضم إلى قطب الدين لتخليص سنجار منه. ورواية الكامل أوسع مما هى هنا فى «النص». (٥) بالأصل: من.

(٦) الحامة: فى (ياقوت): الحمة. عين حارة بين أسعرت وجزيرة ابن عمر على دجلة. وتقصد من النواحى البعيدة ليستشفى بمائها.

فأصعد إلى الموصل فأدركه أجله ليلا قبل الوصول إليها ، وكان معه المولى بدر الدين فتاه ، فكتم موته من طبيب(١) وملاح وخادم إلى أن وصل إلى البلد ، فأدخله الدار ميتا وتركه بالمكان الذى كان فيه مريضاً ، ووكل ببابه من يمنع من الدخول إليه ، وأمضى فى نهاره ذلك ماكان وصاه (٢٢٣ — ب) به فى طريقه إلى أن توفى ، فلما فرغ من جميعه ، أظهر موته آخر النهار ودفن أول الليل بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل ، وقام فى حفظ البلد المقام المرضى ، بحيث أن أهل البلد الرجال والنساء باتوا يترددون عامة الليل إلى الدار السلطانية ، فلم يفقد من أحد منهم الحبة الفرد . واشتد الحزن عليه ، ولم ينفعهم اشتراكهم فى المصيبة به ، لأنه كان رفيقا بهم ، مشفقا عليهم ، ناظرا فى مصالحهم . وأكثر الشعراء رثاءه(٢) وتأبينه(٣) .

قال فيه البليغ ما قال ذو العى وكل بوصفه منطيق
وكذاك العدو لم يعد أن قال جميلا كما يقول الصديق

ولما توفى كان عمره [ثمانيا وثلاثين سنة(٤)] . وكان ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً ، وكان أسمر ، خفيف اللحية والعارضين بالمرة ، مليح الوجه ، وقد أسرع إليه الشيب .

ذكر شىء من سيرته

كان رضى الله عنه بعيد الهمة ، كبير النفس ، كريم الأخلاق (٢٢٤ — أ) حسن الصحبة مع مماليكه ، يمازحهم وينبسط معهم ، كثير الإحتمال لما يبدو منهم ، فمن ذلك أننى أعلم أنه بقى عدة سنين يشكو من بعض أصحابه ويذمه إلى أن قال : ابتلاء الله تعالى بخالقى ، إن أحببت إنسانا أبغضه ، وإن قدمته أخره ، وإن أعطيته حرمه . ومع هذا جميعه ، فكان يحتمله ويحلم عنه ولا يظهر له شيئاً من ذلك .

وكان رضى الله عنه يحلم عن نوابه ويتغافل عنهم مع علمه بحركاتهم وسكناتهم . ولقد قال يوما لمن يثق إليه : ما أجهل هؤلاء نوابى ، يخدمنى أحدهم وليس له شىء وعليه دين ، فما ينقضى عليه سنة حتى يوفى دينه ويعمر الدور والأملاك ، ويرسل إلىّ يطلب أن يشترى منى قرايا ، ولو أن لهم عقلا دوخر(٥) الأموال واشتروا بها أملاكا من غيرى ، فإنهم يعلمون أننى أعرف أحوالهم

---

(١) بالأصل : طيب . (٢) بالأصل : مراسه (بدون تنقيط ، ويمكن قراءة اللفظ : مراثيه) . واللفظ الذى اختاره المحقق أوفق للعبارة . (٣) اللفظ بدون تنقيط بالأصل . (٤) ما بين الحاصرتين بياض بالأصل . وهو تحديد ترجيحى على ضوء ما هو وارد فى « النص » (ص/١٨٩) أن نور الدين ولى الموصل وعمره نحو عشرين سنة . (٥) هكذا بالأصل . ولعل اللفظ تحريفا للفظ : ادخروا .

قديما وحديثا . ومع هذه المعرفة فكان يغضى عنهم كأنه لا يعلم بشىء من أمرهم .

وكان — قدس الله روحه — كثير الإحسان إلى رعيته (٢٢٤ — ب) والرفق بهم والقرب منهم ، سريع الإنفعال للخير . حكى لى أخى مجد الدين رحمه الله تعالى — وكان [على] غاية الخبر به — قال : ماقلت له فى شىء قط من عدل وبذل مال أوغير ذلك من الصلاح فقال لا . وحكى لى أيضاً عنه قال : كنت معه فى بعض أسفاره ، وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره ، فبلغه أن ولد السردار قد سرق من داره شيئاً ، فأرسل إلىّ ليلا يأمرنى أن أكتب كتابا إلى الموصل بقطع يده ، فأعدت الجواب : إنى ما أكتب هذا الكتاب الليلة ، وإذا اجتمعت به غدا أعرفه ما عندى فى هذا ، فأعاد مرة ثانية وثالثة وأنا أمتنع من ذلك ، فاستدعانى ، فحضرت عنده فقال لى : لم لا تكتب الكتاب(١) فقلت له : عادتى معكم أنى لا أكتب إلا ماتجيزه(٢) الشريعة . فقال لى : هذا سارق توجب الشريعة المطهرة قطع يده . فقلت له : لا قطع عليه ، لأنه من غير حرز(٣) لأن المفاتيح بيده ، فعفا عنه .

ومن رفقه برعيته (٢٢٥ — أ) وتعطفه عليهم ، أنه كان له غلام قد خدمه قديما فى صباه وأوجب عليه حقا ، وكان يؤثر أن يقدمه ويفوض إليه أمرا ، فولاه ولاية الموصل ، فسلك مع أهلها سيرة فيها بعض الخشونة ، فكتب إليه بعض أهلها يذكر له شيئاً مما يفعله هذا النائب فعزله ، وبقى مدة معزولا ، ثم حمله(٤) طول خدمته له على أن ولاه غيرها ثانية(٥) ووصاه بالإحسان والرفق . فغلبت(٦) عليه عادته ، فعزله ثانياً ميلا فى هوى رعيته واستمالة لقلوبهم وحفظا لهم . ومن ذلك [أيضاً] أنه مرض مرضاً شديداً غير مرضه الذى توفى فيه وعظم مرضه ، فكان الناس على طبقاتهم يحضرون كل يوم [إلى] باب داره محبة له فبطلت معايشهم ، فكان يتكلف فى بعض الأوقات القعود لهم ، ويأمر بادخالهم جميعهم إليه . ففى بعض الأيام حضر أخى مجد الدين والناس على الباب مجتمعون ، فحين رأوا أخى استغاثوا وقالوا : نريد نبصر صاحبنا . فلما دخل رآه وبه قوة ، فأشار عليه (٢٢٥ — ب) بالقعود لهم والانتقال إلى مكان فسيح لكى(٧) يدخل إليه جميع الناس ، ففعل وتكلف الحركة واحتمل المشقة طلبا لرضاهم ، إذ علم أنهم يؤثرون أن يروه .

وأما وقاره وهيبته فى حركاته وسكناته وملبوسه فإليه النهاية ، لم يكن يلبس إلا مالا يعيبه(٨) به أحد ، فلم يكن يلبس الذهب والحرير والألوان التى يستحسنها الشباب ، ولا يترك على دابته حلية من ذهب

---

(١) بالأصل : كتابا . (والتصحيح من ، ابن واصل ، حـ/٣/ص/٢٠٥) . (٢) بالأصل : الا تجيزه . (والتصحيح من ، ابن واصل ، حـ/٣/ص: ٢٠٥) (٣) بالأصل : خزن . (والتصحيح ، من ابن واصل ، حـ/٣/ص/٢٠٥) . (٤) بالأصل : حمل . (٥) بالأصل : ثابته . (٦) بالأصل : غلب .
(٧) بالأصل : لكن أن . (٨) بالأصل : نعينه .

ولاغيرها ، بل ترك ما كان يسلكه غيره من قواعد السلطنة وألقاه تحت قدمه ونزه نفسه عنه أنفة منه.

وأما شجاعته ، فالذى ذكرنا من حاله يدل على غاية الشجاعة وقوة النفس وزيادة الإقدام ، ونحن نذكر ههنا نكتة ، وهى إنه رضى الله عنه [لما] عزم على قصد بلاد العادل مما يليه ، وكذلك أيضاً عزم الملك الظاهر بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، والسلطان غياث الدين وغيرهما ، كل منهم (٢٢٦ — أ) يقصد ما يليه منها ، فأقام العادل بحران ليكون فى الوسط ليبادر الى من يسبق إلى التقدم ، فاتفق أن السعيد نور الدين كان منحرف المزاج وزاد به ذلك ، فرأى مصالحة العادل فصالحه ، وكان العادل لا يزال يراسله سرا يستميله ، فلما تم الصلح بينهما سار العادل عن حران إلى دمشق ، فقيل له لو أقمت حتى ينفصل الحال مع الباقين لكان جيدا . فقال : ليس فيهم من يفكر فيه ، إنما الذى يخاف ويرجى هو نور الدين ، ومن عداه فليس بشىء ، وسار ولم يقم . فكان كما قال ، ليس فيهم من يحرك [ساكنا] . ومن ذلك [أيضا] ، أن العادل كان له ديار مصر ، والشام ، وديار الجزيرة ، وبلاد أرمينية ، وبعض ديار بكر وباقيها فى طاعته ، ومعه أيضا صاحب سنجار(١) ، والملك المعظم(٢) صاحب إربل ، ومعز الدين(٣) صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان المرحوم نور الدين رضى الله عنه كل قليل قد أنشب الحرب معهم ويقصد بلادهم ، فكان العادل (٢٢٦ — ب) بسببه لا يزال يستميل أصحاب الأطراف المجاورين لبلاده والأمراء الذين فى عسكره بمصر والشام ، ليستعين بهم عليه وخوفا أن يميلوا إليه ، وبلغنى أن العادل قال — وقد بلغه خبر حركته — : أى رجل هو نور الدين ، أنا خصمه بهذه البلاد جميعها وهذه العساكر الكثيرة ، وكل من يجاوره معى عليه وقد أحدقنا به من جميع جهاته ، ومع هذا فلا يقنع منا بالسلامة ، بل يريد أن يملك بلادنا ، ولولا أن الله تعالى أعاننا [عليه] بكثرة أمراضه لعجزنا عنه . وبلغنى أيضا أنه قال لما توفى السعيد نور الدين — قدس الله روحه — : ذهب من كان يخاف [منه] . ومن ذلك أنه ذكر عنده يوما ملك والده السعيد قلعة حلب ، وأنه سلمها إلى أخيه عماد الدين ، فقال : والله ما أذكر هذه الحال إلا أعجب منها ، والله لو ملكتها(٤) لجالدت صلاح الدين [عليها] بالسيف بباب مصر .

(٢٢٧ — أ) وأما علو همته

فمن ذلك ما فعله بماردين من إنقاذها من العسكر العادلى وإبقائها على صاحبها ، ولو أن ذا القرنين فعل ذلك لكان عظيما . وما ذكرناه من طلب ملك البلاد والتغلب فمن علو الهمة وكبر النفس .

---

(١) هو قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى (الثانى) . (٢) هو مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك . (٣) هو معز الدين محمود بن سنجر شاه بن سيف الدين غازى (الثانى) .
(٤) بالأصل : ملكها .

وأما عقله وحسن آرائه

فإليه النهاية . سمعت أخي مجدالدين رحمه الله غير مرة ، يقول : ليس عندهذا المولى نورالدين مثله ، والله إنه أعلم بالمصلحة من كل من(١) رأيناه ، ولقد رأيت كثيراً من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيهم أسرع إدراكاً ولا أهدى إلى الصواب منه في سرعة خاطر. ولو رمت ذكر جياد(٢) آرائه لاحتجت إلى كثير من الأوراق ، لكن المقصود التنبيه من كل خلق على بعضه .

وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه ومماليكه(٣) في حياته

فأنا أذكر ما رأيته منه . فمن ذلك أن أخي مجد (٢٢٧ — ب) الدين — رحمة الله عليه — توفى سلخ ذي الحجة من سنة ست وستمائة ، فأرسل المولى المرحوم نور الدين — رضي الله عنه — إليّ ذلك اليوم عدة مرار يقول : لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتى أقول لك ، فإني أريد أصلي عليه — وكان الزمان صـــيفاً ، وكان رضي الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس وهو موعوك البدن — فلما كان العصر وفتر الحر ، أرسل إليّ يأمرني بحمله إلى الجامع ، وانحدر هو فسبقنا ، فلما رأى الجنازة ، بلغني عنه أنه بكى كثيراً وأظهر التأسف ، ولما قصدنا خدمته بعد ذلك أظهر لنا من الهم بسببه شيئاً كثيراً ، وحملنا له ما جرت العادة وفيه سجادة للصلاة ، فرده وسألني عن شيء كان بلاه(٤) بنفسه ، فأومأت إلى السجادة ، فمد يده وأخذها ، [حدث] هذا جميعه وهو شديد الوعك . ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضا إلى أن توفى بعده بسبعة أشهر ، رضي الله عنه .

ومن محاسن أعماله المدرسة التي أنشأها بباطن الموصل (٢٢٨ — أ) مقابل دار المملكة ، وهي من أحسن المدارس ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وجعلها وقفا على ستين فقيها من الشافعية ، سوى ما فيها من الصدقات الدارة والتعهدات للصوفية والفقراء(٥) .

ذكر ملك ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره

كان المولى السعيد نور الدين — قدس الله روحه كما نور ضريحه — قد عهد إلى ولده المولى الملك القاهر العالم العادل المؤيد المنصور المظفر(٦) المجاهد المرابط عن الدنيا والدين ، سلطان

---

(١) بالأصل : ما .
(٢) بالأصل : اجاد .
(٣) بالأصل : مماليكه .
(٤) بالأصل : بلايه .
(٥) أنظر وصف المدرسة في كتاب « الموصل في العهد الأتابكي » الديوه جي (ص/١٤٢) .
(٦) بالأصل : المضفر .

الإسلام والمسلمين ، ناصر أمير المؤمنين ،أبى المظفر مسعود أعز الله سلطانه ، وأعلى شأنه ، ونصر جنده وأعوانه ، وخذل عدو دولته وأهانه .

وهذا دعاءٌ لو سكتُّ كفيته لأنى سألت الله فيك وقد فعل

قبل وفاته بعدة سنين ، لأنه كان يرى الدنيا بعينه ، ويسمع منها بأذنه ، ويستسهل صعاب الأمور منه ، ويستحلى بقربه ، ويستلذ نسيم الهواء به (٢٢٨ — ب) ولم يزل فى حجره ، وبين سحره ونحره ، فلما اشتد بالمرحوم المرض ، ورأى أن جوهر حياته قد استحال إلى العرض ، جدد العهود له ، وأمر بأخذ الميثاق على كافة الأولياء من الأجناد والأمراء والأعيان والأماثل والعلماء والأفاضل(١) .

ساد الملوك لسبع عشرة حجة ولداته إذ ذاك فى أشغال
قعدت بهم هماتهم وسمت به همم الملوك وسورة الأبطال

فلما توفى السعيد رضى الله عنه وأرضاه ، وأكرم نزله ومثواه ، قام مقامه ، وحفظ من الملك نظامه ، وتلافى ذلك الفتق ، ورقع ذلك الخرق ، واقتفى أثر السعيد بأبيه ، فى كل ما يذره ويأتيه

زاد على ما شاد آباؤه به وقد شاد الذى أثلوه
أقصر كل الخلق عن شأوه حسرى وطال الكل إذ طاولوه

(٢٢٩ — أ) وأضحت الدولة به باسمة ، بعد أن كانت باكية ، وشاكرة ، بعد أن كانت شاكية ، ومستبشرة ، بعد أن كانت باسرة ، وعاودها بهاؤها وروعتها ، وفارقها عبوسها وروعتها .

ولما فرغ من وظيفة العزاء ، بذل من الأموال والتشريفات مالم يسبقه من مضى ولا يدركه من هو آت ، عمت الأمير والمأمور ، وشملت(٢) الصغير والكبير ، وأظهر من الجود ما عير على حاتم وكعب ، وحير كل ذى عقل ولب ، وهذا موضع المثل : ليس السرف فى الشرف . وحين استقر فى الدست ظهر عليه من علو الهمة إلى معالى الأمور ، ومحبة العدل فى سياسة الجمهور ، ومن الغرام بمكارم الأخلاق ، من الحلم والسخاء ، والعفو والإباء ، مالم يجاره فيه أحد إلا وسبقه ثانياً من عنانه ، ولم يباره ملك إلا وجاء سكيتا فى ميدانه ، واشتهر عنه من العدل ما لو رآه كسرى لعاد خجلا يتعثر بأذياله ، ولاستتر(٣) حياء من وراء حجاله .

(٢٢٩ — ب) من كان ذاك أبوه كان لمجده أن يستطيل وأن يشاد بناؤه
من كان من نجل البدور ونجرها لم يعدها إشراقه وعلاؤه

(١) بعد هذا اللفظ ، بياض بمقدار سطر كامل فى « النص » . (٢) بالاصل : وسامت .
(٣) بالأصل : ولاستر .

ملك إذا افتخرت بآباء العلى ... أولادها فخرت به آباؤه
من رام مشبهه سوى أسلافه ... فى المكرمات الغرخاب عناؤه
ملك الجلال فأشرقت لألاؤه ... وحبي الجميل فأعرقت آلاؤه

ولو رمنا شرح مفردات محاسن أفعاله وحكم أقواله لطال الكتاب ، ولكنا نقتصر على حادثة واحدة يستدل بها على نظائرها ، وهى ، أنه — خلّد الله سلطانه — جلس فى دار العدل للإنصاف ، والأخذ للضعفاء من الأقوياء والأشراف ، فحضرت امرأة عمياء ادعت أن بعض الملوك من عمومته ضربها(١) ببندقة عند(٢) الجلابين رماها ، كانت سبب عماها ، فأمر بإحضاره إلى الحاكم وهو عنده ، فحضر وساوى خصمه [وقيل له الدية(٣)] أو القصاص ، فقام فزعا قد أيس من الحياة ، وهو لا يصدق بالنجاة ، فأرضى خصمه بمال بذله ، وعن القصاص (٢٣٠ — أ) استنزله ، فعادت الإمرأة وذكرت أنها قد رضيت وعفت عن حقها ، وهذه حالة لم يسمح بمثلها ، ولم يدون فى كتب التواريخ عدلها .

ياليت شعرى من هذى مكارمه ... ماذا ترى ببلوغ النجم ينتظر

أجرى الله على يده الشريفة كل صالحة ، ودفع عن حضرته العلية كل فادحة ، ووفقه للصواب فى الأقوال والأفعال ، ولا زال سلطانه قاهرا ، وفلك سعادته دائرا ، ولا برح جد عدوه عاثرا ، وذكره خاملا داثرا(٤) .

لما فرغ المولى السعيد المرحوم نور الدين أسكنه الله جنانه ، وأفاض عليه عفوه ورضوانه ، وملأ ضريحه روحه وريحانه ، من تقرير قواعد ولده المولى الملك القاهر عز الله أنصاره ، أراد أن يشد أزره بمن يجعله له وزيراً ، وعلى ما فوض إليه (٢٣٠ — ب) من أعباء المملكة ظهيراً ، ليكون مدبراً لدولته ، وناظرا فى مهام مملكته ، ونائباً عنه فى ولاية رعيته ، فاعتبر خواصه وأولياءه ، ومماليكه وأصفياءه ، وكفاته وأمراءه ، ليختار منهم من يكون أهلا لهذا الأمر الكبير ، وقيما بهذا الشأن الخطير ، فلم يرفيهم أقوم سيرة ، ولا أخلص(٥) سريرة ، ولا أتم وفاء ، ولا أعلى همة وأكثر سخاء ، ولا أغزر حياء ومروة ، ولا أغنى غناء ولا أعظم فتوة ، ولا أحسن اصطلاحا ، ولا أكثر للحق اتباعا ، ولا أعدل منه أحكاما ، ولا أعلم بما يكسب الدولة انتظاما ، من المولى الأمير الأصفهسلار الكبير العادل العالم الكامل الأسعد المقبل بدر الدين [لؤلؤ(٦)] عضد الإسلام ، وسيد الأمراء ، حسام أمير المؤمنين أسبغ الله ظله ، وأعلى محله ، وقهر عدوه وأذله .

---

(١) اللفظ بدون تنقيط بالأصل .
(٢) بالأصل : عن .
(٣) الإضافة من « دى سلين » (ص/٣٧٢) .
(٤) بعد هذا اللفظ بياض بالأصل بمقدار سطر ونصف سطر .
(٥) بالأصل : أخلس .
(٦) الإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٣٠٤) .

أوحده الله فما مثله لطالب ذاك ولا ناشد
ليس على الله بمستنكر(١) أن يجمع العالم فى واحد

(٢٣١ — أ) فحيث وجد ما كان ينشده ، وظفر بما كان يريده ويقصده(٢) ، تقدم إليه بخدمة ولده ، وحكمه فى أمواله ورجاله وبلده ، ورأى أنه قد أسند هذا المهم إلى الولى الوافى ، وفوض هذه الزعامة إلى المخلص الكافى ، وقد كان — رضى الله عنه — يتفرس فى هذا الأمير، إستحقاق التقدم والتدبير ، فلم يزل يدرجه بين ألطافه وكراماته ، وولاياته وإقطاعاته ، من رتبة إلى أخرى هى أعلى(٣) منها مكانا ،وأرفع شأنا، إلى أن ولاه إمارة الجيوش والعساكر ،وسياسة القبائل والعشائر .

ولما استأثر الله تعالى بالمرحوم ، قام فى خدمة المولى الملك القاهر مقاما يحمده عليه الدانى والقاصى ، والمطيع والعاصى ، والبادى والحاضر ، والمنجد والغاير ، ولقد جاء على حين فترة من الكرام ، وكثرة من اللئام ، فجدد من أعلام السيادة ما كان دارسا ، وأضحك من ثغور المروة ما كان عابسا ، واختالت الدولة من حسن تدبيره (٢٣١ — ب) اختيال العروس ، ورفلت من صائب آرائه فى أحسن لبوس ، وافتخر به دهره على ساير الدهور .

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك(٤) إنسانا فأنت الذى نعنى

هذه نبذة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر ، وقطرة من بحر مكارمه تناسب هذا المقتصر(٥)، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما اعتمدناه ، وتركنا ما قصدناه ، ونحن إن شاء الله تعالى نأتى على كثير من ذلك فى المستقصى فى التاريخ ، والله الموفق للصواب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله وحده ، وصلى [الله] على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم تسليما كثيراً .

---

(١) ورد هذا الشطر من البيت بالأصل ، هكذا : وليس لله بمستنكر . (٢) بالأصل : ويقصد .
(٣) بالأصل : أعلا . (٤) بالأصل : لغرك . (٥) بالأصل : المعتصر .

الفهـــــــــارس

فهرس الأعلام

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

(غ)

ف

ق

ك

(ل)

(م)

و

ى

فهرس الأماكن والبلدان

ا

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

ه

و

ى

فهرس المصطلحات[1]

ا

ب

ت

ج

خ

---

(١) اكتفينا هنا بذكر الصفحة التي ورد فيها شرح المصطلح .

د

ز

س

ط

م

فهرس الموضوعات

المخطوطـــــــــة

المراجع

ن أبى طى : يحيى بن حميدة بن ظافر بن على الغسانى الحلبى .

النصوص المنقولة من بعض كتبه فى « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لأبى شامة .

ن الأثير : على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الواحد الجزرى .

الكامل فى التاريخ . (مطبعة الإستقامة بالقاهرة) .

ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على بن محمد ، أبو الفرج .

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . (طبعة الهند : ١٣٥٩ هـ) .

ابن خلكان : أحمد بن محمد بن أبى بكر .

وفيات الأعيان وأبناء الزمان . (طبعة بولاق : ١٢٩٩ هـ) .

شداد : يوسف بن رافع بن تميم الاسدى .

سيرة صلاح الدين الأيوبى ، المسماة ، بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . (مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ) .

طباطبا : محمد بن على المعروف بابن الطقطق .

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية . (نشر محمود توفيق الكتبى : ١٣٤٠ هـ) .

عبد ربه : أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى .

العقد الفريد . (لجنة التأليف والترجمة والنشر : ١٩٤٨)

لعديم : عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة العقيلى .

زبدة الحلب فى تاريخ حلب . (تحقيق سامى الدهان) .

بن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . (نشر مكتبة القدسى بالقاهرة : ١٣٥٠ هـ) .

فرات : محمد بن عبد الرحيم أحمد بن على بن .

تاريخ الدول والملوك . (مصور : دار الكتب ، رقم : ٣١٩٧ تاريخ) .

قاضى شهبة : بدر الدين محمد بن أبى بكر .

الكواكب الدرية فى السيرة النورية . (مصور : دار الكتب ، رقم : ١٢٢٧ تاريخ) .
(مخطوط : دار الكتب ، رقم : ٢٠١١ تاريخ) .

ابن القلانسى : حمزة بن أبى يعلى الاسدى .
ذيل تاريخ دمشق . (تحقيق امدروز : بيروت ١٩٠٨) .

ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى .
البداية والنهاية فى التاريخ . (مطبعة السعادة بالقاهرة) .

ابن واصل : محمد بن سالم .
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال : ١٩٥٣) .

ابن الوردى : عمر بن الوردى .
تتمة المختصر فى أخبار البشر . (المطبعة الوهبية بالقاهرة : ١٢٨٥ هـ) .

أبو شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى .
الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية . (مطبعة وادى النيل بمصر : ١٢٨٧ هـ) ؛
(طبعة سنة ١٩٥٦ ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد) .

أبو المحاسن : يوسف بن تغرى بردى الأتابكى .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . (مطبعة دار الكتب المصرية : ١٩٣٥) .

الاصطخرى : ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى ، المعروف بالكرخى .
المسالك والممالك . (تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى : ١٩٦١) .

باركر : أرنست باركر .
الحروب الصليبية . (ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى . نشر مكتبة النهضة المصرية : ١٩٦٠) .

البدليسى : شرف خان البدليسى .
شرفنامه . (ترجمة محمد على عوف) .

البيهقى : ابراهيم بن محمد .
المحاسن والمساوىء . (مطبعة السعادة : ١٩٠٦) .

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :
المجلة التاريخية المصرية . (المجلد السابع : سنة ١٩٥٨) .

حبشى : حسن حبشى (الدكتور) .

نور الدين والصليبيون . (نشر دار الفكر العربى) .
دى سلين :
تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل. (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين: باريس).
زامباور : ادوردفون زامباور .
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلام . (أخرجه الدكتور زكى محمد حسن وآخرون . مطبعة جامعة فؤاد الأول : ١٩٥١) .
الطبرى : محمد بن جرير .
تاريخ الأمم والملوك . (نشر مصطفى محمد) .
العماد الكاتب : محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى .
١ — تاريخ دولة آل سلجوق .(اختصار الشيخ الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى . مطبعة الموسوعات بمصر : ١٩٠٠) .
٢ — جريدة القصر وجريدة العصر . (تحقيق شكرى فيصل : دمشق ١٩٥٩) .
٣ — النصوص المنقولة من بعض كتبه فى « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لأبى شامة .
الفارقى : أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى .
تاريخ الفارقى . (تحقيق الدكتور بدوى عبد اللطيف عوض . القاهرة : ١٩٥٩) .
القلقشندى : أبو العباس أحمد القلقشندى .
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . (المطبعة الأميرية ١٩١٣ — ١٩١٥ بالقاهرة) .
المقريزى : تقى الدين أحمد بن على .
السلوك لمعرفة دول الملوك. (تحقيق الدكتور مصطفى زيادة . مطبعة دار الكتب المصرية: ١٩٣٤)
هنداوى : الدكتور محمد موسى .
المعجم فى اللغة الفارسية . (نشر : مكتبة مطبعة مصر) .
ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى .
معجم البلدان . (نشر الخانجى . مطبعة السعادة : ١٩٩٦) .
يوسف بن قزاوغلى التركى ، المعروف بسبط ابن الجوزى .
مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان . (طبعة الهند : ١٩٥١) .

تصويبات

ص	س	الخطأ	الصواب
٨ (م)	٦	سلطة	سلطنة
٨ (م)	١٠	موود	مودود
١٠ (م)	٨	الثلاث	الثلاثة
١٠ (م)	حاشية (٣)	ج /	ج/٩
١١ (م)	٢٥	( )	(٥)
١١ (م)	حاشية (٣)	٢ و ١	٢٥١
١٣ (م)	حاشية (٢)	ابن العماء	ابن العماد
١٤ (م)	١٢	٥١٠	٥٦٣
٢	١٠	الكوراث	الكوارث
١٧	١٠	أدحرها	ادخرها
١٨	حاشية (٨)	السلطان محمد	السلطان محمود
٢٥	١٢	بيس	دبيس
٣٠	١٩	يتعرص	يتعرض
٤٥	٤	فامشهورا	مشهورا
٤٥	٥	رس	فارس
٤٧	٢	اا إلى بر وشحنها	إلى البرية وشحنها
٥١	حاشية (٢) (تضاف إليها : أما الخليفة المستنصر بالله العباسى فإنه ولى الخلافة سنة ٦٢٣) .		
٥٧	١٣	وازادد	وازداد
٦١	٧	يستجدونهم	يستنجدونهم
٦٨	حاشية (٣)	والجنائب	والنجائب
٧٤	١	المبنى	المنبجى
٨٥	٥	ء نا	عونا
٩٩	٦	يمند	يمند

ص	س	الخطأ	الصواب
١٠١	٨	تنامشها	تنفاشها
١١٦	حاشية (٧)	حجن	حصن
١١٩	٨	زين	زين الدين
١٤١	٥	عليه ، ملك	عليه ملك
١٤٨	حاشية (٤)	بجمل من	من بجمل
١٥٤	حاشية (١)	المستضىء بالله	المستضىء بأمر الله
١٨٩	١٤	فيهاد	فيها
١٩١	٢١	الععل	الفعل
١٩٥	٢٠	الموضع	موضع
١٩٧	١٢	وهذا	وهنا
٢٠٤	حاشية (١)	بمنكر	بمتنكر

(**ملحوظة**) : ذكرنا فى **صفحة** ١٤ من المقدمة ، أن لابن الاثير كتاب « تحفة العجائب وطرفه الغرائب » ، واعتمدنا فى هذا على حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون وعلى فهرس دار الكتب ـ المخطوط لايحمل اسم المؤلف ـ ولما كنا بسبيل اصدار كتاب عن ابن الاثير ومؤلفاته ، فقد رجعنا الى كتاب تحفة العجائب لدراسته والتعريف به تعريفا واسعا ، وعند قراءة الكتاب تبين لنا أنه منسوب خطأ لابن الاثير ، ففى اللوحة ٥٤ ، ينقل المؤلف عن كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر » لأبى بكر بن عبد الله ابن أيبك الدوادارى صاحب صرخد ، من رجال القرن الثامن ، وفى اللوحة ٦٥ ، ينقل المؤلف عن ابن الاثير خبرا يستهله بقوله : ومن غريب ما ذكر ابن الاثير فى تاريخه . وقد اكتشفنا خطأ نسبة الكتاب الى ابن الاثير أثناء طبع « التاريخ الباهر » وبعد طبع المقدمة ؟

عبد القادر أحمد طليمات

الفهارس